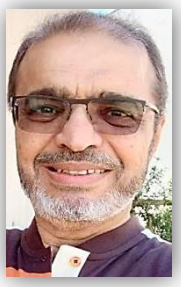

تأليف بروفيسور/
عيسى سليم بن عمران

المُعَلِّمُ التونْسي

الكتاب رقم 74

رواية يمكن أن تكون حقيقية !

لكلِ فِعْلٍ ردٌّ فِعْلٍ..!

صفحة الناشر

هذا الكتاب:

هذه رواية من وحي الخيال.. ولكنها يمكن أن تكون حقيقية. حدثتْ في فكر المؤلف حين كان طالباً صغيراً بمرحلتي التعليم الإعدادي والثانوي في الستينات من القرن الماضي وظلت عالقة بذهنه ولم ينسها كما لم يجد لها فرصة ليدوُّنها حتى تجاوز السبعين من عمره فقرر حينها أن يكتبها من ذاكرته ويضيف إليها شيئاً من خياله.. ولعله قد نسي بعضاً من أحداثها أو أوراقها المبعثرة في ذاكرته..!

فهل ستُعجب القارئ الكريم وتلقى منه قبولاً حسناً ويستفيد منها ومن مغزاها العميق كما استفاد منه المؤلف في حياته ..؟!
والله ولي التوفيق

بروفيسور دكتور / عيسى سليم بن عمران
طرابلس ليبيا
سبتمبر 2021

الإهداء

إلى كل من يتعامل مع الأولاد والأحفاد والطلبة والجيل الجديد
بالحزم اللين معاً دونما إفراط أو تفريط..!

محتويات الكتاب

(الأرقام تشير إلى الصفحات)

- تمهيد 5
- الأستاذ الغريب 7
- إيْعيّش خويا 15
- اللص الشبح 25
- كيف راضالله 35
- لا.. قل لا 45
- فوزية وفتحية 55
- العكارية والعقرب 65
- الفجيعة الخديعة 75
- الجنة والنعيم 85
- ايتالو بالبو 95
- لازم فيه أماليا 107
- سي لحبيب 117
- الطفل معتز 127
- الأشعار تكتبني 137
- الابن المفقود 147
- الحدث العجيب 157
- غسيل السيارة 167
- لكل فعل رد فعل 177
- انقاذ الشرف 187
- الفصل الأخير 197
- المؤلف في سطور
- مؤلفات بروفيسور عيسى سليم بن عمران

تمهيد

تجري أهم أحداث هذه الرواية بمعهد **الشروق للتدريب المهني**.. وهو معهد يعادل مدرسة التعليم الثانوي ولكنّ نظامه الإداري يختلف نوعاً عن نظام المدارس التعليمية الاعتيادية سواء في المناهج أو في مستقبل الطالب. ويحوي معهد الشروق هذا على ثلاثة فصول تعليمية: الفصل الأول به 8 طلاب. أما في الفصل الثاني والفصل الثالث فيوجد في كلٍّ منهما ستة طلاب.. أي أنّ مجموع طلبة المعهد عشرين طالباً كحد أقصى لاستيعاب الفصول. وأغلب الطلبة يتامى أو ينتمون لعائلات فقيرة وتتلقى من هيئة الضمان الاجتماعي إعانات مالية أو عينية. ويتم التركيز في مناهج هذا المعهد على المهن والحِرف التي تُعتبر حجر الأساس.. بالنسبة لكل مجتمع مدني حديث: كالسباكة والنجارة وأعمال البناء والديكور والبستنة وشبكة الكهرباء وتصريف المياه والمجاري والتكييف ثم صيانة الأجهزة المنزلية والكهربائية وأعمال المخابز وصناعة الحلويات والأغذية. وبعد التخرج في هذا المعهد يمكن لكل طالب الالتحاق بأيٍّ من المصالح والهيئات الحكومية أو الشركات للقيام بالأعمال الفنية والخدمية التي يحتاجها المجتمع. كما بإمكان الطالب أن يكمل تعليمه الثانوي والجامعي أو أن يتجه للوظيفة المكتبية الحكومية أو إلى مجال التدريب الفني.

ومن أبطال الرواية: المعلم القادم من تونس ثم ثلاثة من طلبة المعهد وهم: سالم (الراوي) وصديقاه جابر وصابر بالإضافة إلى مدير المعهد الشيخ ميلود والحاج علي صاحب الدكان ومعلمو المعهد وهم يقطنون قريةً تقع على شاطيء البحر وهي ضاحية من ضواحي العاصمة طرابلس العاصمة الليبية. ويعيش معظم سكان تلك القرية في الأساس على صيد السمك ويزاول بعضهم الزراعة وتربية الأغنام.

الأستاذ الغريب

وقف متردداً خجولاً أمام باب الإدارة.. وحَجَبَ عيْنيْه بنظارةٍ سوداء مطأطيءَ الرأس.. ونظر باتجاه حذاءه القديم فمَسَحَهُ بقفا بنطالونه بحركةٍ سريعةٍ رشيقةٍ كأنه تعلّمها فأتقنها ليزيح عنه الغبار ثم تنفّس بعمقٍ وتشجّعَ وتمْتم قليلاً.. ثم طرق الباب بيدٍ مرتعشة فلم يسمع ردّاً.. فأعاد المحاولة ونقر عليه هذه المرة بإصبعه.. فجاءه صوتٌ قويٌّ حادٌّ من الداخل يقول: *ادخل*! فسمعهُ وكأنه صادرٌ من ضابطٍ عسكريٍّ فسَرَتْ في أوصاله رعشةٌ كلسعةِ الكهرباء.. فشعر بالدوار.. لكنه صمّم واستجمع قواه.. ودخل على استحياء كأنه عريسٌ ليلة دخلته.. وكان يرتدي بدلةً رمادية قديمة باهتة اللون نظيفة وقميصاً أبيضاً يميل للاصفرار .. وحول عنقه ربطةٌ سوداء ليس فيها خطوط أو نقاط.. ويجرُّ حذاءً بُنِيّاً وبيده حقيبةُ ملابس صغيرة مستطيلة.. بُنْيّة باهتة من ورقٍ مقوى.. وقد أكل عليها الدهر وشرب. وكان بمنتصف الأربعين من عمره قصيرَ القامة نحيلَ البدن. برأسه جبهةٌ عريضةٌ وصلعةٌ أمامية وشعْرُ رأسه أسود أشعث. وكان وجهه شديد البياض به بسمةٌ خجولةٌ وممزوجة بمسحةِ حزنٍ دفين.

تنحنح وقال بصوتٍ مكبوت: *صباح الخير*! فردّ عليه المدير وهو جالسٌ وراء مكتبه العتيق: *أنت الأستاذ سعيد*؟ فقال بخجل: *نعم سيدي سعيد عبد القادر معلّمُ الموسيقى*. فردّ الشيخ ميلود بلُطف: *لكنْ نحن ليس عندنا مادة موسيقى في المنهج*!! فقال: *نعم سيدي.. أنا كنتُ معلمَ موسيقى من سنوات طويلة في تونس*. فقال المدير وهو يهز رأسه ويفتش في الملف أمامه: نعم *في تونس صحيح.. ولكن هنا لا توجد حصة موسيقى.. نحن نحتاج مشرفاً عاماً.. والمعهد المهني له نظامٌ يختلف عن نظام المدارس العادية !*

فتنحنح الرجل الغريب ولم يدْرِ ماذا يقول. فاستطرد المدير قائلاً في هدوء: *هنا نحتاج لضبط وربط أكثر من المدارس العادية.. فهمت ؟!* فجال الضيف بنظارته السوداء في سقف الحجرة.. ثم رفع حاجبيْه وأردف قائلاً وهو يبتسم: *فهمت سيدي. بابا كان يقول الله يرحمو: كيف ما يجيك الزمان تعالالو.. هكّا كان بابا يقول.. الله يرحمو..!*

فردّ الشيخ ميلود: *يرحمه الله ويرحم جميع المسلمين..* إذا وافقت يمكنني قبولك *مشرفاً عاماً للمعهد. لكن موسيقى لا توجد..* فهزّ الرجل كتفيْه.. علامة رضاه بالوظيفة الجديدة على مضض.. لأنه يعلم أنها ليست مهمة سهلة. ثم قال: أنا مثلما ذكرتُ لسيادتك في الرسالة.. والدي توفّي وتركني مع أمي ثم مرضتْ هي وماتتْ وضاقتْ بيَّ الحياةُ وما عدتُ أستطيع العيش في تونس لوحدي. فقررتُ أن أبحث عن رزقي هنا بينكم.. فابتسم الشيخ ميلود ورحب به.

في تلك الأثناء كنتُ أراقبه في ممر الإدارة.. فشدني إليه ثم حين دخل أسرعتُ لكي أتابعه من النافذة المطلة على الفناء الخارجي أثناء وقت الاستراحة.. والمكنسة بيدي حيث كان مسموحاً لي بأن أدخل أي مكانٍ في المعهد لتنظيفه وترتيبه حسب أوامر الشيخ ميلود..!

ثم رأيتُ حين نهض الشيخ ميلود من مكتبه وأقفل ملف سعيد عبد القادر أمامه.. ثم اقتربَ منه فلاحظتُ كيف كان الرجل قصير القامة نحيلاً مقارنة بالمدير ممتليء البدن فارع الطول عريض المنكبين.. فربّتَ على كتفه مشجّعا وقام معه بجولة داخل المعهد فأطلاّ على فصوله الثلاثة فرأى الضيف فتياناً ذكوراً بأعمار مختلفة. ثم فتح له المدير غرفةً تُستعمل كورشة نجارة ومعمل وأخرى للعب تنس الطاولة وثالثة للأشغال اليدوية والفنية. وهذا كل ما كان في معهدنا من فصول وغُرف.. وأنا أتبعهما.. فالتفتَ إليّ الشيخ وقال:

وهذا سالم المناوب اليوم. فابتسم لي الرجل الغريب ورفع يده وقال *عالسلاما. سي سالم يعيّشك*! بينما كان يحمل بيده الأخرى حقيبته العتيقة البُنيّة. فقال لي الشيخ: *خُذ يا سالم الحقيبة من الأستاذ.. واصطحبه ليرى الغرفة حيث سيقيم ويستريح من السفر قليلاً..* ! فهَممْتُ بأخذ الحقيبة لكنّ الرجل قال لي: *خللي عليك. ما نتعّبكش أهو نمشي معاك يعيّشك*. وسار ورائي في الممر بينما اختفى المدير.

وبينما كنا نسير سمعنا هرجاً ومرجاً.. فقلت له بقصد: *ربنا يعينك..*! فبدا كأنه فهم قصدي فرفع حاجبيْه بنظارته.. وقال: *يا ستّار أُستر..*! لاحظتُ أن لهجته لم تبتعد كثيراً عن لهجتنا في طرابلس.. لولا أنه يشدد أكثر مما نفعل على حرف **القاف**. وأنه يردد كلمة ***يعيّشك***. التي لم أسمعها من قبل. وكانت اللهجة المصرية أكثر تداولاً بيننا في مدارسنا بحكم الاعتماد على المعلمين المصريين من جهة ثم بسبب انتشار الأفلام المصرية حتى صرنا لا نجد صعوبة في فهمها بل أخذنا نتحدث بها بطلاقة خاصةً حين نمرح ونتضاحك. أما التونسية فلم تكن منتشرة بيننا بتلك الصورة. ولاحظتُ على الرجل الغريب أنه لم يكن كثير الكلام.. وبينما كنا نتجه إلى غرفة الإقامة. قال لي: *وإنتي من أمتى تعمل هوني*؟ فاستغربتُ حين خاطبني بإنتي بدلاً من أنت.. ثم كيف جمع بين صيغة المذكر والمؤنث معاً. فأجبته قائلاً: لي هنا نحو عامين.. أنا طالبٌ هنا في المعهد أتعلّم وأعمل. وعلى كل طالب أن يقوم بالمناوبة مرة في الأسبوعيْن ينظّف ويكنس ويمسح الأبواب والمقاعد. فتوقّف ونظر إليّ ثم قال: *بالحَقّ*؟؟ *أمّا مشاالله عليكم.. تبارك الله. إنتي ما زلت زغير. قداش عمرك*؟ فقلت له كم تعطيني؟ فابتسم وقال: *نعطيك كل خير اطناشل سنا*؟ فقلت: أربعة عشر عاماً.. أنا في الفصل الثاني. فابتسم حتى بانتْ أسنانه وقال:

تبارك الله..البكالوريا قريب. وتخدم زادا.. وين بوك؟ فقلتُ له: توفيّ منذ عامين وخوي أصغر مني.. لابد أن أعمل لكي أعين أمي. فهي تقوم بكل شيء. هي الأم والأب والمربيّة. لا أدري لماذا لكني حكيتُ له قصتي كلها في مرة واحدة.. وكأنني وجدتُ معه الأمان.

وصلنا الغرفة فأخرجتُ المفاتيح من جيبي وفتحتُ الباب.. فأحدثَ صوتاً كعِواء القطة *مياوو*. وأنرتُ المصباح فانكشف سريران فرْدِيان بينهما منضدة صغيرة وحولها كرسيان خشبيان بنيّان. وبجوار كل سرير دولابُ ملابس ورفٌّ عليه كتبٌ متراصة. فقلتُ له: *هذه غرفة المشرف غرفتك الآن. اختر السرير الذي يعجبك*. فقال: *الله يبارك* ولم يزد عن ذلك شيئاً وفتح حقيبته فأخرج منها ملابسه المرتبة..! فوضعها على سريره.. ثم خلع سترته وجلس على الكرسي بجواره.

كنتُ على وشك مغادرة الغرفة فسألني: *لمن السرير الآخر*؟ فقلتُ: سريرٌ كان للمشرف السابق والآخر كان لبوّاب المدرسة. فقال: *أوّين هما توّا*؟ فقلت: *عند ربي*. فرمقني بنظرة غريبة وقال: *عند ربيّ.. تقصد*!؟فقلت: *نعم الله يرحمهما*. فسأل عمّا حدث لهما؟ فقلت: *حادث سيارة*. وخرجتُ مسرعاً وأنا أسمع أحداً ما يناديني في الممر. بعد نحو نصف ساعة.. وبينما كنتُ أكنسُ بأحد الممرات وأمسح الجدران وأسمع الأستاذ صخر معلم الرياضيات وهو يصول ويجول رأيتُ الضيف واقفاً يتحسس الجدار ويمشي ببطء قرب صحيفتنا المعلقة [***الشروق***].. فظننتُه مهتمّاً بها.. فدنوتُ منه وقلتُ له: هذه الصحيفة نكتبها مرة كل أسبوعيْن.. فسألني عن عدد المشاركين فيها فقلُت: هيئة التحرير أربعة وجميع الطلبة يمكنهم المشاركة فيها.. وعندنا إذاعةٌ مدرسية ومعرضٌ للفنون ثم ورشةٌ للأعمال اليدوية. فصفّق برفق بيديه.. وردّ قولته المألوفة: *تبارك الله عليكم*.

وحين رأيتُ الشيخ ميلود يقترب منا انسحبتُ لأكملَ عملي.. وذهبا هما معاً إلى غرفة المدير لكي يتعرف الضيف على الأستاذ **صخر**.. معلم مادة الرياضيات.. وعلى بقية زملائه كالأستاذ السوداني **عثمان** معلم مادتيْ اللغة العربية والدين والأستاذ **مصطفى** معلم الفيزياء والكيمياء أما معلم الأحياء **خالد** فهو في إجازة بسبب وفاة والده الأستاذ **صالح** المشرف العام للمعهد سابقاً. ثم الأستاذ **إسماعيل** معلم الرسم والأشغال اليدوية والذي يأتي متأخراً كعادته.

وكنا في معهدنا نتّبِعُ نظاماً تعليمياً خاصاً بالتدريب المهني وليس كما كمدارس التعليم المعتاد فمنهجنا يركّز على الرياضيات ثم الفيزياء والكيمياء لصلتها بالمهن الحرفية. وأقرب لمنهج مدرسة [الفنون والصنائع] ومقرها في شارع 24 ديسمبر بوسط طرابلس. بل كنا على صلة وثيقة بها وبالضمان الاجتماعي أكثر من صلتنا بوزارة التعليم كشأن بقية المدارس. وكان معهدنا يستقبل اليتامى كطلبة منتظمين به فيعطينا مزايا مالية وعينية لإعانة أُسرنا وذوينا.. وحين نكمل هذا المعهد بنجاح لدينا فرصة لمواصلة التعليم الثانوي أو الدراسة في الجامعة أو للتعيين بعديد المصالح ومنها مثلاً: المصارف والضرائب والضمان الاجتماعي والبريد أو قسم التدريب المهني الذي يتبع وزارة الخدمة العامة. ولنا فرص التعيين كموظفين في الدولة.

ولمدير معهدنا الشيخ ميلود مكانة خاصة بهيئة الضمان الاجتماعي وهو في نفس الوقت.. مختارُ المحلة التي نقيم فيها ولديه عديد الصلاحيات ومنها قبول المعلمين الذين يختارهم هو للمعهد. وهو مبتكر فكرة قيام الطلبة بخدمة أنفسهم وخدمة المعهد بالتناوب فيما بينهم بمقابل مادي وتشجيعي. فحين لم يجد عمالةً من قِبل هيئة الضمان تقوم بذلك العمل .. اتجه إلى الطلبة أنفسهم.

ولم يكن لعمي **الصادق** بوّاب المعهد من عمل إلا الجلوس بمدخل المبنى وبيده عصا رفيعة يهدد بها الطلبة ويضرب بها في الهواء بأن يلتزموا الهدوء أو الرد على الزوار إمّا بالدخول أو بالرفض. أمّا تنظيف فصول المعهد وكنْس ممراتها وجدرانه فلم تكن من اختصاصه.
كنا قد رحبنا بفكرة الشيخ ميلود منذ أن أتانا في الفصل ذات صباح. وأقترح علينا أن نخدم معهدنا بأنفسنا بالتناوب بأن يقوم كل طالب من العشرين طالباً بالعناية بمبنى ومحتويات المعهد ويعتبره كأنه بيته ومِلْكَهُ.. يحرص عليه ويعتني به ويبلّغ الإدارة بأيّ نقصٍ وخللٍ وعيْبٍ فيه. ويتقاضى فوق هذا جُنيْهاً كاملاً عن يوميْن في الشهر.. وسال لعاب كل واحدٍ منا حين سمع بذلك العرض المغري.. فقد كانت تذكرةُ السينما برُبْعِ جنيه وصحن حلويات شهرزاد قُرب "بنك روما" بربع جنيه أيضاً. أما بطاقة الأتوبيس الشهرية لكل طالب فلم يزد ثمنها عند تجديدها عن جُنيْهٍ واحدٍ فقط لا غير..!

ففرحنا بالاقتراح فرحاً عارماً.. وصفّقنا بحرارة للشيخ ميلود.. فعَلتْ وجهَهُ المستديرَ المنعّم إشراقةٌ وردية ورأيناه لأول مرة يضحك بتلك الطريقة الطفولية وكأنه قد ربح أكبر جائزة في أذكى مسابقة عالمية.

واتضح لي فيما بعد أن الشيخ ميلود بتلك الفكرة الذكية قد اصطاد عصفورَيْن بحجرٍ واحد. فبَدَلَ أن يُعطي العامل 30 جنيهاً كمرتّبٍ شهري ها هو يعطي جميع الطلبة عشرين. كما أن الطلبة سيتبارون فيما بينهم أيهم الأفضل للقيام بتلك المهمة.. ولم نكن نعلم أنها بالفعل مهمة شاقة إلا بعد أن جرّبناها. وخاصة فيما يتعلق بتنظيف المرحاض وكنس الممرات الطويلة والغرف العديدة والحديقة التي يُصِرُّ الشيخ ميلود على أن نعتبرها جنة الفردوس حتى وهي لا تحوي في الواقع سوى أنواعاً متعددة من الصبّار والشوكيات.. ؟!

وحينما سألته مرةً عن سر اختياره لتلك الأصناف من الشوكيات؟!
أجابني مبتسماً بقوله: حتى لا تقترب منها الأغنام ولا المعيز وتأكلها..
يا سالم.. أما الإبل فلا تقترب منا هنا في معهدنا.. كما تعلم..!
لم يكن الشيخ ميلود رجلاً ساذجا كبقية أقرانه في ذلك الحي ممن لا عمل ولا شغل لهم في أغلب النهار إلا لعب الورق والخربقة بحصى يحتفظ بها بعضهم في جيوبهم وكأنها.. قطعُ الألماس النفيسة.

وتساءلتُ: إذا اعتبرنا أننا نحضر إلى المعهد كل شهر في 26 يوماً بحساب أربعة جمعات كعطلة.. فكيف تُوزّع الأيام على 20 طالباً بالعدل والتساوي؟ ثم تذكّرتُ أن المدير استثنى 7 منهم باعتبارهم معاقين. ثلاثة منهم أكِفّاء لا يبصرون وثلاثة لديهم شلل الأطفال أما السابع فساقه مبتورة ويتلقون إعانة من هيئة الضمان الاجتماعي.
أي أن عدد من يقومون بالخدمة 13 مرتين في الشهر أي 26 يوماً.

وعرفتُ بهذا أن الشيح ميلود يضع لكل شيءٍ حسابه. ولا يخطط أو يقترح ويتصرف إلا بعد أن يفكّر ويُمْعِن النظر فيما يفكّر. ولذلك اكتسب ثقة أهل القرية فجعلوه مختار المحلة منذ سنوات عديدة.
كما اكتسب ثقة المسؤولين في هيئة الضمان فأعطوه صلاحيات في المعهد لا يتمتع بها غيره من مدراء الإدارات والموظفين !
وبالرغم من أن مهمة العناية بالمعهد وتنظيفه ليست أمراً هيّناَ.. كما قد تبدو للناظر.. إلا أن الطلبة اتفقوا - رغم صعوبة اتفاقهم على أمر آخر- على أن يهتموا بمعهدهم وكأنه مسكنهم ومأواهم وملكهم بالفعل وليس بالقول فحسب. بل إن منهم من أحضر من بيته خِرَقاً بالية للتنظيف والمسح.. أو مكنسةً مستعملة أو سطلاً للمياه. كما أحضر غيرهم قطعاً من الصابون وبعض الصودا الكاوية. وتبرع من عنده استطاعة من أولياء الأمور ببعض الأثاث المستعمل.

وكان جدول المناوبة بالمعهد- كما وضعه الشيخ ميلود يقضي بأن يأتي الطالب المناوب إلى المعهد مبكراً قبل زملائه أي في السابعة والنصف صباحاً وقبل موعد الجمع الصباحي لكي يكنس الممرات وينظف ويرتّب ما يجده بغير محله من المقاعد والأثاث. ثم يحضر الدروس مع زملائه إلى موعد الاستراحة في الحادية عشرة إلا ربع.. فيتنازل عنها ليستمر في تنظيف الغرف خلالها ثم يعود مع زملائه ليحضر بقية الدروس.. وما أن تنتهي في الواحدة والنصف حتى تبقى له النصف ساعة الأخيرة ليتم فيها ما بقي له من أعمال التنظيف في دورة المياه وفي الممرات وكذلك في الحديقة. ليكمل عمله عند تمام الساعة الثانية ظهراً. ويكون بهذا قد أنهى مناوبته ليوم كامل.

وكان من عادة الشيخ ميلود أن يأتي أغلب الأحيان مبكراً إلى المعهد. ويدخل مكتبه بعد جولة سريعة في أركانها وينشغل في مكتبه بالعديد من المسائل والرسائل والملفات ثم يُلقي نظرة خاطفة على الفصل الدراسي ويحيّ الأستاذ الذي يُلقي درسه ثم يراقب الطالب المناوب وقد يستقبل بعض الضيوف أو يرد على بعض المكالمات الهاتفية. وكان قد عودنا أيضاً على أن ينتظر الطالب المناوب بعد الانتهاء من عمله ليستلم منه المفاتيح ثم يقفل مكتب الإدارة والغرف ويخرج.

ولم يكن مسموحاً لأحدٍ من الطلبة بالبقاء بعده إلا الأستاذ المشرف الذي أعطاه نسخة من الباب الخارجي للمعهد ومفتاح الغرفة التي يستريح أو يبقى فيها حتى ساعة الغروب. أو هكذا كان النظام مع المشرف السابق رحمه الله. أما بالنسبة للمشرف الجديد **المعلم التونسي** فإن النظام سيتغيّر قليلاً كما قال الشيخ ميلود. ولم نكن نعلم بعد كيف سيتغيرّ.. لأن من عادته أنه لا يبوح بكل قرارته أو برامجه وتعليماته إلا بعد أن يدرسها دراسة متأنية ودقيقة..!

إيعيّش خويا

أما **الاذاعة المدرسية** فكانت تتألف من مسجلٍ صغير ومايكروفونٍ ومكبّرَ صوتٍ كالقمع تبرّع به رئيس قسم المرور بمركز شرطة الحي للشيخ ميلود فثبّته بفناء المعهد لبَثِّ نشيدِ الصباح وتحيةِ العلم ونصف ساعة للإذاعة المدرسية أثناء الاستراحة.. ويتحصّل طلبة المعهد على إفطارٍ صباحيٍّ يتألف من رغيف الخبز بالجبنة أحياناً أو بالتونة أحياناً أخرى مع علبة من الحليب وفي بعض الأحيان أيضاً كيس من التمر وعلبة من الحلوى الشامية أو الزيتون. وللطالب أن يأكلها أثناء الاستراحة أو أن يأخذها معه إلى بيته وأسرته إن رغب في ذلك لكي يشاركه إخوته فرحته بها. هكذا كانت نشاطات المعهد.

ودخل المعلم التونسي معترك الحياة في معهدنا.. وأخذ يتعرف شيئاً فشيئاً على الطلبة والمعلمين فيها.. ولم ينقصه الذكاء لكي يكتسب انتباههم بروحه المرحة وكلمة *ايعيّشك* التي انتقلت بين الطلبة كأنها الشكولاتة (الشوكولا).. حتى صرنا نتبادل تلك العبارة فيما بيننا: *ايعيّشك خويا* ".. أي بين أصدقائي وزملائي في المعهد ونضحك.

ولم تمر إلاّ عدة أسابيع حتى دخل **المعلم التونسي** تاريخ المحلة.. ومحلتنا تقع على شاطيء البحر ويمتهن كثيرٌ من سكانها حرفة صيد الأسماك ولها شاطيء واسع شاسع. وفي الربيع تزدهر فيها الأشجار والأزهار. وخاصة أشجار الليمون والبرتقال والمشمش والزيتون.

ما يجعل منها مشاهد طبيعية خضراء خلابة.. بين ما يتناثر بينها من مساكن شعبية مبنية بالطوب الأبيض.. نظراً لغنى تلك المنطقة بمقاطع الطوب الجيري.. الأبيض ناصع البياض.. أما سكانها فكانت تربط بينهم صلاتٌ قوية من الصداقة والقرابة والمصاهرة.

وعندما يأتي المساء يلفُّ قريتنا الهدوء والسكون.. وكنا نحن الطلبة نخرج في الليل للتزاور والتسامر. وقد نلجأ في ليالي الصيف لشاطيء البحر لنقضي هناك ساعات الليل وننام هناك إلى مطلع الفجر لأننا لم نكن نطيق حر بيوتنا كما أننا لم نكن نعرف شيئاً اسمه المكيّف آنذاك وحتى لو عرفناه ما كان بمقدور أغلب أسرنا اقتناؤه. وكنا ننام على خرير مياه الشاطيء.. ونغمات أم كلثوم وصوتها الرنان.. ويمر بقربنا رجال حرس الشواطيء على خيولهم ليطمئنوا إلى أننا بسلام. وفي الصباح الباكر حين نعود من ليلتنا المريحة كان يصاحبنا رجال الصيد وعلى أكتافهم أقفافُ السمك بخطىً واثقة راسخة في غبطةٍ وسرور. ونُسرع الخطى لنلحق بيومٍ دراسي جديد في همة ونشاط.

في تلك الأثناء والأجواء انضم الضيف الجديد **المعلم التونسي** إلى قريتنا وأهلها ومعهدنا. فلم يجد نفسه غريباً عنا كما لم نجده وأهلُنا أنه غريبٌ عنهم.. بل رحّبنا به واحتضناه. رحّبنا به وكأنه ابنٌ قد طال انتظاره.. وها هو الآن قد عاد إلينا أخيراً من سفره البعيد..!

سمعتُ من صديقي **جابر** المتخصص في تقصّي الأخبار بأن المعلم التونسي هذا قد قال أنه من أصل ليبي لكنّ الطلبة والناس في القرية يصرون على تسميته بالمعلم التونسي.. ومع الأيام اندمج في أهل القرية وصار يسهر معهم ويأكل ويشرب في بيوتهم ويدندن مع شبابهم على أنغام الناي.. أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم.. التي يحفظها عن ظهر قلب.. أما في آخر الليل فكان يعود إلى غرفته في المعهد لينام فيها حتى الصباح. وكان يبتسم لكل من يلقاه ويحييّه بابتسامة عريضة ويهديه من شكولاتة *يعيّشك*. وذات صباح ذهب لكي يُلقي على الشيخ ميلود التحية كالعادة. فقال له: بالاضافة إلى الإشراف.. أريد منك يا أستاذ سعيد أن تأخذ حصة الرياضة. وقال:

كانوا وعدوني في الضمان بمعلم رياضة ولم يأتِ أحدٌ منهم وحصة الرياضة مهمة للطلبة يوماً بعد يوم فهمت؟ فقال:*أفهمت*. واستلم منه كرةَ قدم وكرةَ سلة.. وطلب منه أن يحتفظ بهما عنده.. ولا يُخرجهما إلا لحصة الرياضة. فقال: لو يسمح سيادة المدير أود ألاّ أقتصر على الكرة وإنما أعلمهم رياضات أخرى مفيدة. فأجابه الشيخ ميلود: جميل. لا بأس. اصنع ما شئت. لك الحرية في ذلك..!
وناداني الشيخ ميلود ذات مرة بينما كنت في مكتبه وأقوم بتنظيف الدولاب وطاولة الاجتماعات وقال لي: تعالى يا سالم.. فدنوتُ منه. فقال لي: ألاحظتَ شيئاً على الأستاذ سعيد ؟ وحين رآني مستغرباً. قال: هل لاحظتَ أنّ نظرَه ضعيفٌ؟ أو يكاد يكون أعمى؟ فقلتُ: لاحظتُ أنه يرتدي نظارة سوداء طوال الوقت. فقال لي: أريدك أن تكون بالقرب منه وتساعده خوفاً من أن يتعثر ويسقط.. أفهمت؟! فقلتُ له: حاضر يا أستاذ. سأحاول أن أكون بقربه وأساعده..!

استغربتُ من هذا الأمر.. كما تعجّبتُ أيضاً من أنه ظل يرتدي نفس الثياب منذ أسبوعيْن.. رغم أنّ لديه غيرها وقد أخرجها من الحقيبة ورتّبها في الدولاب. وذات مرة سألني عن الحمّام.. فقلتُ له بإمكاني الذهاب معك إلى شاطيء البحر أو لحمام المسجد. فقال لي: *معاك حق فكرة هايلة يعيّشك. كانا احتجتك توّا انقولك.. ايعيّشك*.. !

ورأيته في الصباح التالي.. عائداً إلى المدرسة وشعره الأشعث مبللاً.. ويرتدي نظارته السوداء.. وقد أحاط عنقه بمنشفٍ أبيض عليه صورُ قططٍ جميلة. فاقتربتُ منه وضحكتُ فبدا لي.. من ذكائه أنه فهم معنى ضحكتي. فقال أنه يحب القطط *برشه برشه*.. فقلتُ له: وأنا عندي القطط خيرٌ من الكلاب. فقال لي مبتسماً: أأأ.. *مخلوقات ربي.. كل واحد وشغلو.. ووظيفتو.. يا سي سالم*.

بعد أيام.. شاهدتُ المعلم التونسي كيف أخذ يتعوّد على الذهاب إلى دكان الحاج **علي الجبالي** القريب من المعهد.. ليشتري منه ما يحتاجه للأكل ومسحوق غسيل الملابس "التايد".. ولاحظتُ عليه أنه يحب رغيف الخبز بالتونة أو الجبن ضمن ما يحضره الحاج علي بنفسه أثناء وقت الاستراحة إلى الفصل الدراسي. وكان الحاج علي قد تعوّد أن يوزّع 20 رغيفاً في 3صحون ألومنيوم على الفصول ثم يعرّج على الإدارة ويسلّم الشيخ ميلود 10 أرغفة له وللمعلمين.. ورأيتُ الحاج علي عند خروجنا من المدرسة وقت الظهر يستعمل تلك الصحون في تنقيع ملابسه وفي غسل الخضراوات والفاكهة. ثم رأيته أحياناً يضع فيها أحشاء الخروف بعد ذبحه للبيع. ولكنا لم نكن نكترث لذلك.. طالما أن رغيف الإفطار يصلنا في حينه..!

ولم نكن لا أنا ولا أحدٌ من زملائي الطلبة نعلم هل الحاج علي متزوج وله بيت أم لا..؟ حتى صديقي جابر الذي كان يستقصي الأمور بكل دقة لم يكن يعلم عن حياته الخاصة شيئاً.. لكني أعتقد أن الشيخ ميلود عنده الخبر اليقين. وقد رأينا الحاج علي يغسل وجهه في كل صباح بالصابون أثناء دخولنا المعهد وكأنه كان نائماً في دكانه وأنه مقيمٌ فيه إقامة تامة.. بالإضافة إلى أننا لم نر له أبناء ولا أقارب.

وما هي إلا أيامٌ قليلة.. حتى اكتشفنا المعلم التونسي.. يساعد الحاج علي ساعة العصرية فيرتّبُ صناديق الخُضر والفواكه ويرشها بالماء كما يرش فناء الدكان كذلك لكي لا يتطاير الغبار. وكان يجلس بجواره يشربان الشاي ويتضاحكان.. وقد صارت بينهما ألفةٌ ومودة وصداقةٌ عجيبة. وفي يوم من الأيام وكان يوم عطلة أتيت إلى الدكان في وقت الضُحى.. لأشتري نصف كيلو فقط من اللحم.. كما حددتْ لي أمي ذلك.. ففوجئتُ بالمعلم التونسي في دكان الحاج علي..!!

فوجئتُ به يشقُ خروفاً ويكسّر عظامه. فترددتُ قليلا أأدخل؟ أم في ذلك إحراج له؟ لكنني سمعته يقول مبتسماً: *إيجا يا سي سالم.. مرحبا.. إيجا ما يسالش. عمك الحاج علي عندو شغل وأنا فمكانو. تحب نعطيك من هال فخيذا لحلوّا هادي..؟ راهي باهية ياسر..*!
فاشتريت منه نصف كيلو وأنا مندهش.. ولعله لاحظ دهشتي فقال: (*كيف ما يجيك الزمان. تعالالو. كيف ما باباكان يقول. الله يرحمو*)

ومنذ ذلك اليوم شعرتُ في داخلي بإحساسٍ غريب وغير مريح تجاه "المُعلّم التونسي" كما نلقبه. فمن هو ؟ وما قصته؟ وماذا وراءه من أسرار وأخبار بل وربما أخطار؟! وهل هو معلّمٌ بالفعل؟ وهل أصله ليبي كما يقول لبعض معارفه في قريتنا؟ أصبحتُ أشكُّ في أمره..!

ذات صباح علّق الشيخ ميلود بجوار صحيفتنا الحائطية: جدولاً بتوزيع الحصص: الرياضيات- الفيزياء والكيمياء- الأحياء- اللغة العربية والدين كل يوم حصة بواقع خمس حصص يومياً. وحصة للرياضة البدنية وللرسم: ثلاث حصص أسبوعياً بالتناوب أي أن الجدول 6 حصص يومياً. ويبدأ عند الثامنة بالضبط صباحاً بقراءة سورة الفاتحة جماعةً ثم تحية العلم والنشيد الوطني ثم تمرينات الصباح. وفي الساعة الثامنة والنصف تبدأ الحصة الأولى لمدة 45 دقيقة وتنتهي السادسة الواحدة والنصف ظهراً وتتخلل الحصص نصف ساعة للاستراحة وسماع الإذاعة وتناول الإفطار.
وبذلك يتألف اليوم الدراسي من 5 ساعات ونصف.. وكان الشيخ ميلود يغيب يوماً في الأسبوع لمدة ساعتين لقضاء أشغال إدارية في هيئة الضمان. وذات يوم أخبر المعلم التونسي بأنه أنهى له اجراءات التعيين وبأن مرتبه الشهري سيكون 50 جنيهاً بعد الاستقطاعات القانونية بوظيفة مشرف عام ومعلم رياضة تحت التجربة.

كما سلّمهُ مبلغ 20 جنيهاً ريثما يأتيه المرتب وكما سمعته يقول له ذلك وكنتُ بجوارهما أقوم بعملي في مكتب الإدارة. وفي تلك الأثناء تعرّف المعلم التونسي على كل زملائه وعرف من الطلبة كيف أنهم يخشون غضب الأستاذ صخر معلم الرياضيات.. لأنه قويٌّ ليس بعلمه فحسب.. بل وحتى في أسلوب معاملته فهو يستخدم الضرب على الأصابع وعلى الكتفين والوجه بيده وبعصاه النحيلة. ولا أنسى كيف وقف بجانب مقعدي في الفصل ذات مرة.. وقال: لنفرض أن زميلكم سالم ربح ألف جنيه.. فتبسّمتُ قبل أنْ يتم المثال. فلطمني على أنفي بقبضة قوية حتى أن الدمَّ سال مني وفقدتُ وعيّ. وقال لي بعدها: تحسابه حق يا غبي.. هذا مجرد مثال. نوض امشي!
فخرجت إلى دورة المياه مسرعاً وخيّم الخوف والهدوء على الفصل. وصار كأنه مقبرة. ومنذ ذلك اليوم أصبحنا نهابُهُ بينما أحسستُ أنه ندم ناحيتي وقال: أنت طالب مُجتهد.. فلا تضحك في الفصل..!!
وتعرّف المعلم التونسي على الأستاذ **صخر** بحذر شديد.. لِمَا سمع عنه من حكايات. فقد قيل له عنه أنه ضرب لصاً في القرية فأغميّ عليه وحين أسعفوه في المستوصف.. وجدوا عنده كسوراً في اليدين والأنف والكتف والأضلاع. وبقي شهرا كاملاً في المستشفى الكبير في وسط طرابلس تحت حراسة الشرطة ثم أحالوه إلى النيابة. وقال لي المعلم التونسي ذات مرة: *أوّاه.. الأستاذ صخر. صخر بالحق*!

أما الأستاذ عثمان معلم اللغة العربية والدين فكان خريج الأزهر وله لكْنةٌ مصرية نوعاً ما ويشدد على حرف القاف ولكن بصورة تختلف عن نطق المعلم التونسي. وكان الأستاذ عثمان كثير الكلام لا يسكت عن الحديث باللغة الفصحى ويسرد حكاياتٍ لا نهاية لها لكنه طيبٌ ومسالمٌ ولا يؤذي أحداً من الطلبة مهما كانوا منه ساخرين..!

أيْ أنه على النقيض من الأستاذ صخر. فوجد فيه المعلم التونسي زميلاً ممتعاً لتبادل النكت والحكايات والضحكات بلا أي حرج..!

وتعرّف المعلم التونسي على الأستاذ مصطفى السارح مع معادلاته ومسائله في الفيزياء والكيمياء وكان يحكي له عن الفلزات واللافلزات فلا يبدو على المعلم التونسي أنه فهم منه شيئاً على الإطلاق. وذات مرة سأله الأستاذ سعيد: وشنوا نعملوا بيهم الفلزات واللافلزات..؟ فضحك الأستاذ مصطفى وقال: الفلزات كمعدن الحديد والنحاس. واللافلزات مثل الكربون والفوسفور والأكسجين. فقال سعيد: أأأأ. *فهمت ايعيّشك يعيّشك. سمعنا وسلمنا. الواحد كل يوم يتعلم*..!

بقي الأستاذ الأنيق والرقيق خالد معلم مادة الأحياء فقد كان موهوباً في الرسم والشرح والتوضيح وكان في بداية كل حصة.. يرسم على السبورة زهرةً أو حيواناً أو جهازاً من أجهزة الجسم من وحي ذاكرته.. فيجعل منها لوحة ملونة بالطباشير في سرعة عجيبة ودقة متناهية ويشرح عليها الدرس وكأنه قصة فيلم من أفلام المغامرة. فيحكي عن النحلة فلانة وكيف ودّعتْ أهلها في الخلية. وطارت في الفضاء حتى لامست بأقدامها سطح زهرة ما فعانقتها وتحدثتْ إليها وامتصّتْ من رحيقها مقابل أن تأخذ منها حبوب اللقاح لتمنحه لزهرة أخرى. ورجعتْ في رحلة فضائية عجيبة وبمسار دقيق فلم تخطيء عنوان خليتها لتجد العاملات بانتظارها يزغردن لاستقبال حصيلة الرحيق. ثم يضرب الجرس وتنتهي الحصة ونحن في متعة بين الفن والعلم. هذا الأستاذ تعرّف عليه المعلم التونسي فوجده كما قال لي ذات مرة: *لو عندكم عشرا من أمثالوا.. تتفوقوا على المدارس في فرانسا*.

أما الأستاذ **إسماعيل** مدرس الرسم فكان لعوباً واسع الفم وقحاً أو منافقاً حسبما تقتضيه الظروف.. يغمز بعينيه ويتحرّش بالأولاد..!

كما يتملق للشيخ ميلود ويسترضيه.. لكي يتغاضى عن قدومه متأخراً إلى الحصة بحجة المواصلات.. وهو في حقيقة الأمر.. كثير العربدة والسهر ومحباً لشرب الخمر. لكنه كان رسّاماً وكأن بيده آلة تصوير. رسم لنا على الحائط ذات مرة شُبّاكاً يُطِلُّ على حديقة.. فكدنا لا نصدق أنها لوحة بل هو شُبّاكٌ حقيقي ووراءه شجرٌ يتنفس.. تعرّف عليه المعلم التونسي هو الآخر فأخذ يرافقه ويدعوه لغرفته ويدندن معه أغاني أم كلثوم وحليم. ولم يكن من المسموح لأحدٍ منا من الطلبة أن يطلَّ عليهما وهما في تلك الغرفة وما فيها من أسرار..!

وهكذا عرف المعلم التونسي طريقه.. إلى زملائه الذين كان عليه أن يحتكَّ بهم شاء أم أبى. وأخذ يتفقد جميع أركان المعهد كل صباح.. حتى إذا ما حضر الشيخ ميلود وجده ينضّم صفوف الطلبة ويعرض عليهم بعض التمارين الصباحية.. قبل أن تقترب عقارب الساعة من الثامنة صباحاً. ولم تكن تنقصه الجرأة والشجاعة لكي يأمر الطلبة بصوتٍ مرتفع مسموع بأن يصطفّوا وينتبهوا وينظّموا أنفسهم رغم أن التحاقه بالمدرسة لم يمض عليه إلا أسابيع معدودات. وكان قد وجد لدى الطلبة قبولاً حسناً.. بما كان يضفي على أحاديثه معهم وتوجيهه لهم من طرافة وخفة دم ومن عبارات تونسية لم يعتادوها ولكنهم وجدوها مسلية من أخوات: *عالسلامة يعيّشك تبارك الله*.
.. وهكذا تمكّن "المعلم التونسي" من أن يدخل كافة القلوب التي لقيّها أمامه من دون عناء. ولكنه لم يسمح لأحدٍ بأن يطرق أبوابه إلا بقدرٍ محدود. بل ظل في منطقة ضبابية لا يسهل رؤية معالمها..!

وحين كنتُ أتحدث مع جابر وصابر عنه كنا نذكر أنّ الأسرار تحيط به من كل جانب.. فإذا كان بالفعل ليبيَّ الجنسية فكيف يسكن في غرفة بالمعهد؟.. ولا يقيم في بيت أو يستأجر حجرة في القرية؟!

ولماذا تعاطف معه الشيخ ميلود إلى ذلك الحد؟! وهل كان بالفعل معلماً في تونس قبل أن يأتي إلى معهدنا؟ ولماذا معهدنا بالذات..؟ وكيف وقع اختياره علينا؟ أسئلة كثيرة كنا نطرحها على أنفسنا ولم نجد لها أجوبة شافية.. ولعل الأيام المقبلة سوف تجيبنا عنها..!

في يوم من الأيام وبينما كنتُ أرتب وأنظف مكتب المدير دخل علينا الأستاذ عثمان معلم اللغة العربية والدين وقال للشيخ ميلود يبدو أن المعلم التونسي مستقرٌ في غرفة المشرف ولا يفكر في الرحيل عنها.. فقال له المدير أنه وعده قبل أن يأتي من تونس بأن يعينه بالإقامة المؤقتة في المعهد إلى أن تسمح ظروفه باستئجار مسكن أو حجرة وأضاف الشيخ قائلاً أنه ظنّ بأنه سيسكن في المعهد مؤقتاً.. فقد سبق وأن شاهدنا المشرف السابق الأستاذ **صالح** رحمه الله يقيم بهذه الغرفة في النهار.. وفي المساء يعود إلى بيته وأسرته. أما المعلم التونسي فلا يبدو أنه سيغادر هذه الغرفة ليبحث عن غيرها.

ومرت الأيام ولم يتغيّر شيءٌ في المعلم التونسي إلاّ لباسه إذ ترك تلك البدلة الإفرنجية بعد الانتهاء من اليوم الدراسي في الظهيرة.. ليرتدي لباساً فضفاضاً كالذي يرتديه أهل التبو أو التوارق. ووضع فوق رأسه قبعةً سوداء ولفَّها بشالٍ أبيض طويل وغطى وجهه كما يفعل *أهل التوارق*.. كما ثبّتَ أمام عينيه نظارةً سوداء لها سطحُ مرآةٍ شديدِ اللمعان. وحينما رأيته في تلك الهيئة لأول مرة وهو جالس أمام دكان الحاج علي الجبالي لم أصدِّق أنه هو.. إلا بعد أن ناداني باسمي: *ها سي سالم. إيجا إيجا نقولك*. وكنتُ أستغرب أن يناديني بسي سالم.

وكان صديقي جابر قد قال لي ذات مرة أنّ المعلم التونسي قد أخبر بعض أهل القرية بأنه من أصل ليبي تارقي.. وهاجر أبوه إلى تونس قبل ستين عاماً أي بعد أن انتهتْ الحرب العالمية الأولى..!

فعمل هناك وأنشأ مصنعاً صغيراً للصناعات التقليدية إلى أن مات.. ونُقل عن المعلم التونسي أنه قال أيضاً أن أمه قد حاولت أن تُخلف زوجها في إدارة المصنع وتسييره وردِّ ما تراكم عليه من ديون.. وأنْ تربّي ابنها الوحيد سعيد.. ولكنّ أحدَ العمّال الجشعين هناك حاول إغواءها ورغب في أن يتزوجها.. ليستحوذ على المصنع. لكنها لم توافق فترصّد لها وقرر الانتقام منها وصنع لها مكيدة مع الضرائب. فحجزوا عليها المصنع وأودعوها السجن. وتشرّد الطفل بين خاله الذي أساء معاملته.. وبين "دار الأيتام" الذي حاول الفرار منها لأكثر من مرة ولم يفلح.. إذ كانت الشرطة تُلقي عليه القبض وتُرجعه بالقوة إلى أن توقف عن الفرار واقتنع بأن حياة الشوارع لن تزيده إلا همّا وغمّاً وفقراً.. ثم تعلّم فنون الموسيقى التي استهوته..!

ثم عمل وهو صبي في عدة فرق موسيقية للسيّاح الأجانب. وكان له ميْلٌ للعزف على الناي بأنغام حزينة مؤثرة شدّتْ إليه كل الانتباه. ثم قُبل للعمل في بعض المدارس الخاصة كمعلم موسيقى. كما عمل في العديد من الحِرف والأماكن لكنه لم يوفق إلى حياة آمنة مستقرة.

وبعد أن خرجت أمه من السجن وكافحتْ وعملتْ كخادمةٍ بالبيوت لم تساعدها صحتُها المتهالكة على الاستمرار والاستقرار.. فدخلتْ المستشفى وتأزمتْ حالتها ولجأت إلى التسول.. ولم يفلح سعيد في أن يوفر لها الدواء ولا العيش الكريم فسافر للعمل على متن سفينة لصيد السمك لكنها لم تكن مهنته التي خُلق من أجلها. وحينما رجع علم بأن أمه قد فارقت الحياة أثناء وهي في الشارع تتسول.. فقرر الهجرة إلى فرنسا عن طريق وكالة تونسية امتصّتْ دمَهُ ورمتْهُ. فعاد خائباً سائباً.. وبدأ حياته من جديد. فالتقى رجلاً مسنّاً أخبره بأنه كان يعرف أباه حق المعرفة.. وأوصاه - كما قال - بوصيّة غالية..!

اللص الشبح

أوصى الرجلُ المسنُّ المعلّم سعيد.. بأن يتجه جنوباً إلى ليبيا حيث أصله وموطن أبيه وحيث تمّ اكتشاف البترول فيها مؤخراً.. وقال له أنها ستكون جنة الله في الأرض. وها هو الآن عائدٌ لكي يقتفي أثر أبيه وأهله ويبحث عما تركه له من ميراث وخيرات وأقارب وأحباب..

وبعد وصوله.. لم يعرف من أين يبدأ.. ولا عمّنْ يسأل لكي يدلّه !

وقال صديقي صابر بأنه توصّل إلى أن هناك صلةَ قرابة أو بالأحرى مصاهرة بين الشيخ ميلود و**المعلم التونسي**. فمن المعلوم في القرية أن الشيخ ميلود تزوّج بعد وفاة زوجته الأولى بامرأةٍ من تونس.. وقيل أيضاً أن هذه المرأة على صلةٍ ما بالمعلم التونسي.. بل قيل فيما قيل أنها ابنة خالته وتنتمي إلى عائلة فقيرة.. وأن هذه العائلة الفقيرة تقيم في واحدٍ من أفقر الأحياء بالجنوب التونسي.. ولا يدري أحدٌ لِمَ اختار الشيخ أن تكون زوجته من ذلك الحي الفقير ؟!

ولم يستطع أحدٌ أنْ يقترب من الشيخ ميلود لكي يعرف أسرار تلك المسألة.. نظراً لما كان له من هيبة ووقار ومركزٍ مرموق في الدولة.. رغم ما عُرف عنه من تواضعٍ وحسنِ معاملة وطيب علاقة.. بكل فئات الناس وعلى اختلاف مستوياتهم الاجتماعية في قريتنا.

لكنّ المعلومة إنْ صحّتْ تفسّر سر اهتمام الشيخ ميلود بضيفه..!

وكنتُ حينما ألتقي جابر وصابر ونتجاذب أطراف الحديث ونتطرق لسيرة المعلم التونسي.. نحاول أن نجد تفسيراً لاختيار الشيخ ميلود زوجةً من تونس يُقال أنها فتاةٌ تصغره بأكثر من عشرين عاماً.. ومن عائلة فقيرة جداً.. بينما هو في بحبوحة من الرزق والعيش ويملك مزرعة بها أبقارٌ وأغنامٌ وماعز وأشجارُ مثمرة وبيتٌ من طابقين كما أنّ له عمارةً صغيرة بها شققٌ ومحلات للإيجار وله سيارتان..!

ومن ناحية أخرى اكتشفنا مع مرور الأيام.. أن هناك صلةً عائليةً بين الحاج علي الجبالي صاحب الدكان المجاور للمعهد والشيخ ميلود.. وحسب المعلومات النسائية في القرية التي أتتنا من أمهاتنا. يُقال أن الحاج علي كان متزوجاً بامرأة تونسية هي قريبة من زوجة الشيخ ميلود قرابة قوية أي من نفس العائلة.. ولعل الحاج علي هو من أشار على صديقه الشيخ ميلود بأن يتزوج من تلك الفتاة التونسية بالذات. وعلمنا أيضاً بأن زوجة الحاج علي الجبالي مرضتْ فانتقلتْ إلى رحمة الله وتركت له فتاةً سرعان ما تزوجتْ بعد أن بلغت سبعة عشر عاماً نظراً لما تتمتع به من جمال فائق. وأنّ الذي تزوجها هو ابن الشيخ ميلود من زوجته الأولى المتوفاة.. واسمه **عاصم** وهو شابٌّ ضابطٌ طيارٌ في الجيش الليبي كثيرُ الانشغال بعمله في الجو.
كما اقتربنا قليلاً من سر العلاقة بين الحاج علي والمعلم التونسي.. غير أننا لم نزل نبحث عن مدى صحة تلك المعلومات التي وصلتنا.

وذات يوم ناداني الشيخ ميلود وسألني عما إن كان لديّ مانعٌ في أن أعمل في المدرسة أربعة أيام بدل اثنين.. فقلتُ له بالعكس أنا على استعداد.. وكنت أعلم أن أمي ستفرح بأن يصبح دخلي جنيْهيْن بدل جنيهٍ واحد وعلمتُ بأنّ أحدَ الطلبة يشتكي من الربو الشُعبي فاعتذر عن مناوبته.. لأنه لم يستطع تحمّل الغبار أثناء الكنس والتنظيف..!

وبدأتُ العمل بواقع يومٍ في الأسبوع أو أربعة أيامٍ في الشهر ولم أجد مشقةً في ذلك. على العكس.. إذ كنت أجد هذا العمل أفضل لي من أي عمل آخر في الشوارع أو الدكاكين أو المقاهي. خاصة وأنني أشعر برضا الشيخ ميلود عني وباكتسابي لثقته.. وكنت كلما أحرزتُ نتيجة متفوقة بالفترات السابقة يعطيني كراساتٍ وأقلاماً وألواناً كهدية. وكان يعرف ظروفي الأسرية ويعلم أن أمي تعمل بجدٍّ وكدٍّ من أجلنا.

وقال لي صديقي جابر ذات مرة أنه يعتقد بأن الشيخ ميلود اختار أن تكون زوجته من خارج البلاد حتى لا تقع بين بناته والزوجة الليبية خلافاتٌ ومشاكل تتعلق بالإرث. علاوة على أنه من الصعب أن يجد زوجةً صغيرة السن في ليبيا ترضى به زوجاً وهو يكبرها سِنًا بكثير.. بينما لو اتجه إلى تونس فسيجد العرض أكبر بكثير من الطلب علاوة على أن العائلات التونسية حتى الفقيرة منها أكثر تفتُّحاً بحيث تتاح له الفرصة في أن يرى الفتاة وجهاً لوجه ويجالسها ويتعرف عليها.. من دون حجاب. ويتأكد من أنها تصلح له أو لا تصلح قبل أن يفاجأ بها في ليلة الدخلة. وأنّ مهرها سيكون معقولاً وليس كالذين يريدون أن يبيعوا بناتهم في المزاد العلني بأغلى ثمن ممكن. وقيل أن الشيخ ميلود ظل يحلم بفتاة تكون متعلمة وتتكلم الفرنسية لكي تعلّمه هو هذه اللغة الجميلة التي يحبها من وقع صداها على أذنه..!

كما أن الشيخ ميلود يتمنّى أن يُرزق بابنٍ أو اثنيْن آخريْن إذ أن زوجته المتوفاة أنجبت له ابناً واحداً هو: عاصم ثم ولدتْ خمسَ بناتٍ: اثنتان متزوجتان وثلاث منهن لم يتزوجن بعد.. رغم بلوغهن سن الزواج لأسباب لا يعلمها إلا الله.. وهو يشعر بأن من حقه أن يكون له أكثر من ولدٍ ذكر لينعموا بما يملكه من خيرات وميراث.. أما أن يبقى أرملاً وهو بكامل قواه البدنية والعقلية.. فلن يرضى بذلك !

ونُقل عن نساء الحي أن الزوجة التونسية التي اختارها الشيخ ميلود صغيرة السن بالفعل ولكنها متواضعة الجمال والهيئة. ولعل لها من المزايا التي جذبت إليها انتباه الشيخ ميلود.. ما لا يعلمه أحدٌ غيره.. لكنها ليست بتلك الدرجة من الجمال والشخصية ولا هي ربة البيت الناضجة بل تبدو قليلة الخبرة حتى فيما تطبخه من أكل. أما زينتها وثيابها فخالية تماماً من الحشمة التي اعتاد عليها نساءُ القرية.

لكنّ الشيخ ميلود يبدو أنه سعيدٌ بزوجته الجديدة الشابة فها هو قد غدا مشرق الوجه وفي كامل حيويته ونشاطه وبمظهره الجديد إذ أنه استبدل الفرملة والجرد واللباس الليبي ببدلة افرنجية وربطة عنق زاهية الألوان حتى وإن بدتْ لافتة للنظر لكنها تؤدي الغرض. ولم يعد يأكل رغيف الخبز بالتونة أو بالجبنة في مكتبه كما كان يفعل من قبل.. بل صرّح للزملاء بأنه "يفطر في البيت".. ولكي يتحاشى أيّ صدامٍ فيما بين العروسة وبناته الثلاث.. أسكنهن في شقة من شقق عمارته وأقام هو مع العروسة في بيته الكبير ذي الطابقين.

بحجة أنه يستقبل يومياً ضيوفاً كثيرين ويحتاج للطابق الأرضي كله كصالون استقبال يليق بمختار المحلة ومدير المعهد في الحي. كما أن البيت الكبير محاطٌ بالمزرعة وبها عددٌ من الخدم.. فلا يصح أنْ تقيم البنات الثلاث هناك لوحدهن.. ثم أتضح أن بناته فضّلْنَ فكرة الشقة نظراً لقُربها من مدرسة البنات حيث يعملن فيها كمعلمات.

قال صديقي صابر ذات مساء أنّ خاله وزوجته قد جاءا لزيارتهم من تونس. ولم أكن أعلم من قبل أنّ أم صابر تونسية ولا جابر له علم بذلك. لكنّ ذلك لم يكن أمراً غريباً أو جديداً في قريتنا فكثيرٌ منا ومن جيراننا لهم جذورٌ وفروعٌ وصِلاتُ قُربى من هنا وهناك أو من مناطق أخرى من شرق وغرب ليبيا أو من وسطها. لكنّ الجديد في الأمر أن صابر قال أن خاله يقيم في نفس القرية التي تزوّج منها الحاج علي من قبل ثم الشيخ ميلود من بعده. ثم قال أن الحدود بين البلدين ظلت مفتوحة على مصراعيها منذ الحرب العالمية الأولى بلا أي ضوابط أو قيود في حركة الناس ذهاباً وإياباً سواء من حيث التواصل العائلي أو التجاري. وهو ما فتح المجال للمهرّبين بأن يتنقلوا بحرية شبه تامة بين البلدين.. ونادراً ما وقعوا في فخ الجمارك أو الأمن.

وحكا صابر لنا عن خاله أن هناك لصاً تونسياً محترفاً من الجنوب.. يُدعى **المُنْصِف بن مسعود** يجوب المناطق الحدودية.. ويجتازها بكل حرية وتمرد.. فحيّر سلطات الأمن رغم علمهم باسمه وبعض صفاته إلا أنه كان كالحرباء يتلوّن ويتبدل في مظهره وعلاماته فكان يفلت منهم بأعجوبة وراء أعجوبة.. فلم يتمكنوا من القبض عليه .

وقيل عنه أنه كان ينهب كلَّ ما يخطر على البال وما لا يخطر خاصةً في المدن الليبية الغربية من طرابلس وحتى زوارة. فكان يسطو على المنازل ليلاً فيسلب الذهب والمجوهرات وملابس الأفراح النسائية والناس بجوارها نيام.. وكان يسرق السيارات الصغيرة ثم الشاحنات ويخطف الغنم. وله في سطو الأغنام خطة جريئة وعجيبة. فبعد أن يعبر الحدود بسيارة أجرة (تاكسي) يبحث عن سيارة بأقصى الغرب فينشلها وقد اتفق مع شريكٍ محتال له ورشة مخفية.. على أن يغيّر معالم تلك السيارة ويضع لها لوحاتٍ أخرى وكتيّباً مزوّرا لينتقل بها هنا وهناك حراً طليقاً.. فيتحرك بين أماكن سرقاته في البيوت ثم الحظائر والمزارع وينقل تلك الغنائم إلى بيتٍ قديم يستأجره حتى يجمع كمية كافية من تلك الأغنام ليتفق مع صاحب شاحنة أن يعبر معه الحدود بتلك الأغنام.. ويخبيء بينها ما توفر لديه من ذهب وحقائب ملابس يدّعي بأنه اشتراها وأن له متجراً في تونس لبيعها.
ونقلاً عن خال صديقنا صابر كان **المنصف بن مسعود** هذا ينجو بما كان معه من غنيمة كالقط ينجو من القفز وكأنّ له سبعةَ أرواح.

يا له من لصٍ محتال محترف ورهيب. قيل عنه أيضاً أن رجال الأمن يعتقدون بأنّ له عدةَ أسماءٍ وألقابٍ ووجوهٍ وصفاتٍ وجوازاتِ سفرٍ وإلا لكان وقع في شر أفعاله منذ البداية. وكلُّ ما كان بوسع سلطات الأمن أن تجده منه مجرد أثر ..كأثر الأفعى حين تتركه على الرمل !

فكرّتُ في أن أسأل المعلم التونسي عن هذا المحتال لعله سمع عنه وعن مغامراته لكنّ جابر وصابر قالا لي: *فِكّك*..! أي بمعنى (*دع عنك ولا تفعل فلعل في ذلك ضرر لك*).. فعَدِلْتُ عن فكرتي. وذات مرة قال لنا صابر أنه سأل خاله عن المعلم التونسي فأجابه بأنه لا يعرفه معرفة قريبة لكنه على عِلْمٍ به وبأنه قريبُ جيرانٍ له وسمع عنه أنه طرأ له حادثٌ مرعب نجا منه بأعجوبة. إذ انفجر في وجهه محرِّك الدراجة التي كان يقودها بينما كان يحاول إصلاحه وهو يدخن.. فأصيب إصابة بليغة كادت تفقده البصر. وبقي في المستشفى لعدة أسابيع ثم قيل أنه بعد أن تماثل للشفاء سافر إلى فرنسا للعمل.

أما عن أم سعيد.. فلا يعلم خال صابر إلا أنها كانت تخيط الثياب وأنها ماهرة في تطريز فساتين الأفراح بشهادة أكثر نساء الحي.. ولم يسمع عنها أنها كانت متسوّلة أو نزيلة في المستشفى أو ما أخبره به صابر من أقاويل وحكايات.. فتعجّبنا من ذلك.. صابر وجابر وأنا.. وشعرنا بأن في الأمر سرّاً.. غير أنّ الوقتَ لم يحِنْ بعدُ - على ما يبدو لمعرفة كُنْهِ هذا السر العجيب وكشف الغطاء عنه كأسرار أخرى.

كنا في العصرية نلتقي نحن الثلاثة وبعض الزملاء الآخرين لنلعب كرة القدم أو لنتحاور في الملعب التابع لمعهدنا من الخلف.. وكنا نرى الحاج علي الذي يتابعنا أحياناً ويشجعنا على اللعب.. وقد يجالسه في بعض الأحيان المعلم التونسي ويتحدثا وقد يعينه ببعض الأعمال في الدكان كترتيب صناديق الخُضار ورش الماء عليها وعلى الفناء.. والغريب أنه كان يشق الخروف ويقطّع اللحم ويكسّر العظم بخفةٍ واتقان ونظره ضعيف.. وكأنه كان يمتهن تلك الحِرفة لسنواتٍ من قبل. أو لعله عَمِلَ لدى جزارٍ فتعلّم تلك المهارة وأتقنها من دون أن يصيب يديه بسوء.. عجيبٌ أمرُ هذا الرجل الغريب حقاً..!

كما أنني لاحظتُ عليه أنه لا يخلع نظارته السوداء أبداً حتى بعد أن يعمَّ الغروبُ ويأتي الظلام. وقلتُ في نفسي لعل حساسيةَ طاغية في عينيه قد بقيت لديه من أثر ذلك الحادث الأليم. الله أعلم..!

ومرت الأسابيع والأشهر.. وفي كل صباح نجد المعلم التونسي أمامنا في فناء المدرسة ينتظرنا أن نصطف ونقرأ الفاتحة ونتغنّى بنشيد يا بلادي ونحيّ العلم ونقوم ببعض التمرينات البدنية التنشيطية والتي يبتكرها لنا فنؤدِّيها بحماسٍ مصطنع.. بينما الشيخ ميلود ينظر إلينا بإعجابٍ لا يخلو من افتخار.. أما المعلمون فيراقبوننا بنوعٍ من الرضا النسبي أو بنقدٍ مكبوت لا يقوى إلى درجة التصريح عنه باللسان..!

تداول الناس في قريتنا بمختلف فئاتهم وأعمارهم - أيْ الرجالُ منهم والنساء والطلبة أنباء ذلك اللص المحتال المنصف بن مسعود في سهراتهم وملتقياتهم لكن من باب الطرافة والتهكّم. وليس من حيث كونه يشكّل خطراً حقيقياً على قريتنا ولعلنا تعوّدنا في حياتنا على أن ننتقد ونحتج ونحلل ونرفض أكثر من أن نفعل أي شيءٍ. فتلك هي عادتنا التي نشأنا بها وهذا هو مسلكنا الذي سرنا عليه ولعل للماضي البعيد أثرٌ في ذلك. فلقد عاش آباؤنا وأجدادنا عقوداً متتالية.. وليس بوسعهم أن يغيّروا ما كان يُفرض عليهم من ظلم وقهر وتعسف في زمن الاستعمار مخافة الانتقام بالبطش والتنكيل أو النفي والترحيل. فلم يجدوا من سبيل إلا النقد والتهكم بالقول فحسب.. وهو شأنُ كل من لا يملك الشجاعة ليتصدى بالفعل والمقاومة. ويكتفي فقط بالأسف والملاومة. ويجب أن نعترف بأننا كنا جداً طيّبين لدرجة السذاجة وسطحيين لدرجة الفجاجة ومعاندين حد اللُجاجة. وتركنا أبوابَ بيوتنا ونوافذ قلوبنا لكل من هبَّ ودبَّ مشروعة ومفتوحة.. ومنحنا ما لدينا من ثقة.. في كل من أتانا وهو يرتدي لباس الشفقة !

ولعلني لم أُصدم في حياتي.. مثلما كانت صدمتني حين سمعتُ ذات يوم حواراً من إذاعة تونسية بين مذيع وخبازٍ تونسيّين. فقال الخباز عن تجربته بالعمل في ليبيا لعديد السنوات: أنه انتقم من الليبيين بأن وضع لهم بقايا الأظفار والحبال والأوساخ والشعر والعرق في عجين الخبز وفي مئات الأرغفة. ولو لم أسمع ذلك الحوار بأذني لما صدّقتُ أن يخبرني به أحدٌ مهما كان صادقاً في القول والفعل.. لأنه خُلقٌ لا يصدر حتى من مجرم سفاح.. أو من فصيلة التمساح.

وفي صباح اليوم التالي وبينما نحن في طريقنا إلى محطة الأتوبيس ثم إلى المعهد سألتُ صديقي جابر: هل سمعت ما يقولونه.. في إذاعة تونس البارحة؟ فقال لي وهو يهز رأسه: سمعتُ ليتني ما سمعت..! أيعقل أن يعملوا فينا كل هذا ونحن نيام؟ رحّبنا بهم وآويناهم كأنهم إخوتنا؟ لعنة الله عليهم. إنهم بالفعل مجرمون وعديمو الإنسانية !

وقال جابر كذلك سمعتُ رجل قانون في الإذاعة الليبية يعلق بقوله: هذه جريمة مع سبق الإصرار والترصد. يأتون إلى بلادنا حفاةً عراة.. فيجدون الأمن والأمان ويعملون فلا يسددون ضرائب ولا تأمين. ثم نضع فيهم ثقتنا وآمالنا.. ويسلّمهم صاحب المخبز الدقيق وكل ما يملك.. فيفعلون فيه ما لا يتصوره عقل في السر والخفاء ثم يعودون إلى بلادهم فيسخرون ويقِرّون بكل ما فعلوه.. ويفضحون أنفسهم.
أمرٌ عجيب وبشرٌ غريب.. من أي صنف وطين هم؟ الله أعلم..!
قلتُ: ليس لي تفسيرٌ لما قاموا به ورسموا له.. إلا الحقد والغيرة .. يحسدوننا على اكتشاف البترول وعلى أن ظروف العيش لدينا باتت تتيسّر عن ذي قبل وبدل أن يمدوا أيديهم إلى أيدينا لنتعاون ونتآلف وننهض من جهلنا وتخلفنا. ها هم ينقضّون على أصابعنا ويحرقونها بالنار حرقاً. لكن عساه سلوك فرد واحد فكيف نتّهمُ شعباً بأكمله؟

في اليوم التالي كنت مناوباً في المعهد بعد أن خرج الطلبة.. فقُمتُ بجولة أخيرة في الممر قبيل الساعة الثانية ظهراً بقليل.. فرأيتُ باب غرفة المشرف مفتوحاً.. فمررتُ من أمامه فرأيتُ المعلم التونسي.. وقد وضع على كتفه منشفه بصور القطط وهو منحني على حوض الماء لكي يغسل وجهه.. فالتفتَ إليّ فرأيته لأول مرة في صورته تلك. فوقفتُ فجأةً وأنا مندهش.. إذ رأيتُ هالةً وأثار حروقٍ حول عينيه.. ولم يكن له أهداب. أما سوادُ عينيه فاستحال ضباباً رمادياً موحشاً.

وفي تلك الأثناء صدّقتُ تماماً بأنه ليس كفيفاً أو فاقداً لبصره كليّاً.. فهو يتحرك بلا عصا تقوده كما يفعل العميان. حتى وإن كان حذراً في مشيته وخطواته. ثم فهمت لماذا كان يضع نظارة سوداء؟! حتى في الليل ما دام بصحبة أحدٍ من الناس فقد كان وجهه مثار ذعرٍ وأسفٍ وشفقة فأراد أن يتفادى تلك النظرات المشفقة عليه. وشعر بي في تلك الأثناء وأنا واقف كالتمثال.. في دهشة وهلع مما أرى.. فقال لي *أأه. سي سالم. إيجا إيجا. إنتي ما يسالش لكن ما نحبش حد غيرك يلقاني هكّا.* فقلت له: سامحني يا أستاذ لا أقصد ازعاجك. ولكني وجدتُ باب الغرفة مفتوحاً فأردتُ أن أطمئن قبل أن أخرج. فقال لي: *عرفت توا علاش نغطي فيهم بالنظارة..!؟ الله غالب..!*

أحسستُ في تلك اللحظات بنوع من التعاطف معه. وأردتُ أن أغيّر دفة الحديث فسألته إن كانت الغرفة تحتاج لكنس وتنظيف ربما؟! فهز رأسه وهو يغسل رأسه ووجهه بالصابون ويضعه تحت تيار الماء ثم قال لي: *لالا ما يلزمش. خللي عليك.. توا ننظف بروحي..!*

أعترفُ أنني كنت في الأسابيع والأشهر الماضية ومنذ أن أتانا المعلم التونسي وأنا في شك فيه وفي شخصيته. فلقد رأيته محفوفاً بالأسرار وكأنه يُخفي أموراً غريبة وربما خطيرة كما يفعل بعض العمال الآتين إلينا من تونس. فسُمْعتُهم بالعموم ليست جيدة بل يتهمهم الناس بالسرقة والاغتصاب والسطو والاعتداء والقتل في بعض الأحيان.
وليس في الأمر مبالغة حتى وإن لم يكن هؤلاء من خيرة شعب تونس بل هم بالمؤكد من أسوأ الفئات عندهم.. ولكننا الذين ابتلينا بهم.

ولا أنسى تلك الحادثة التي أخبرني بها صديقي جابر ذات صباح. إذ قال لي أن ابن جارهم عادل وكان في الثامنة من العمر تمّ ذات مساء اختطافه واتضح أنّ الذين اختطفوه عصابةٌ تونسية حيث قادوه إلى شاطيء البحر في الليل.. فاغتصبوه وفعلوه فيه ما لا يتصوره عقل. وخلعوا له ثيابه وانتشلوها وتركوه مغشياً عليه على الشاطيء.. في وضعٍ بائسٍ للغاية عارياً وملطخاً بالدم في وجهه وما بين رجليه. حتى جاء بعض البحارة فأنقذوه وأسعفوه وأعادوه لأسرته وهو مصدوم.

ولم يجدوا تفسيراً لما فعلته تلك العصابة به.. إلا أنه صبيٌّ وسيم له جمالٌ نادر.. فطمعوا فيه ونالوا منه.. الوحوش الأوغاد المجرمون.
ولم تتوقف الأخبار والحكايات عن ذلك اللص الغريب الغامض في قريتنا: المنصف بن مسعود وقد قيل لنا أن هذا ليس اسمه الوحيد والثابت.. بل له عدة أسماء وألقاب. ولم يمرّ أسبوعٌ واحدٌ إلا وكنا نسمع عنه حكاية جديدة أقل ما يقال عنها أنها أغرب من الخيال.
وكان الناس يتعجبون ويستغربون.. من قدراته المتتالية على التستّر والتخفّي بل ومن نجاته من كل محاولة لإلقاء القبض عليه من رجال الأمن ولكن بلا جدوى.. بل إن بعض الناس أخذوا يعتبرونه ليس بشراً كبقية البشر الاعتياديين.. وإنما ينسبونه إلى جنس الجن.

"كيف راضالله"

في قريتنا تعيش أرملة في الأربعين عاماً من عمرها اسمها **زينب** ومعها ابنها **ميلاد** يقيمان في بيتٍ شعبيٍّ قديم تركه لهما المرحوم ولم يترك شيئاً غيره.. وكان يعمل في الميناء البحري كما كان يصطاد السمك كعادة الكثير من الرجال في قريتنا. لكنه في ليلة عاصفة غرق بقاربه فوجدوا جُثتَهُ تطفو بعد أسبوع بعيداً عن شاطيء القرية بعشرة كيلو مترات. وظلت السيدة زينب وميلاد يعيشان على الكفاف. وفي يوم من الأيام وقفتْ سيارةُ أحدِ أفراد الشرطة بالقرب من بيتهما. إذ أن حرارة السيارة ارتفعت إلى درجة منعتْ الشرطي من القيادة فالتفت ليجد ميلاد واقفاً أمام بيته.. فطلب منه بعض الماء لكي يبّرد محرك السيارة. فلبّى له ميلاد طلبه.. ثم أحضر له الشاي ثم أدخله البيت ليستعمل دورة المياه وينظف يديه. ثم نشأتْ بين الشرطي **عمّار** وتلك الأسرة علاقةُ تعارف وتزاور وأخذ يزورهما بين الحين والآخر. وتعرّفتْ زينب على **عمار** وشكرته. إذ أخذ يمنح ابنها الهدايا وبعض النقود كلما مر من أمام البيت وهو في طريقه إلى مديرية الشرطة.

ثم علمت زينب أن عمار فَقَدَ زوجته حين كانت تلد فماتت ومات جنينُها أيضاً. وهكذا ترمّل عمار وهو لم يزل في الأربعين من عمره ويعمل ضابطاً في الشرطة. ولكنه كما قال يقيم ويعمل بمدينةٍ بعيدة عن قريتنا وكان يأتي إلى هنا لحضور الاجتماعات الدورية في جهاز الشرطة القضائية بطرابلس مرة كل أسبوع بصورة منتظمة كما قال. ثم أبدى استعداده لأن ينتقل إلى قريتنا لو أنه وجد زوجةً عاقلة في مثل عمره لكي يبني معها عُشّ السعادة ولتعوضّه عما فاته..!

فانجذبت إليه زينب وأعجبتْ به حين سمعته يصرّح بأمنتيه لابنها. وكانت في البداية تحس نحوه بالحذر والخيفة فهي بطبعها متزنة..!

ثم شيئاً فشيئاً.. أخذتْ تهتم بمظهرها وزينتها أمامه.. وجعلت ابنها يعزمه على الغذاء.. كلما أتى إلى طرابلس لحضور اجتماعاته. وبدأت تبذل جهداً كي تعد له ما لذ وطاب. وصار إحساسها يتنامى بأنه ربما يصلح لها زوجاً ولابنها بديلاً عن أبيه. خاصةً وهي ترى أنّ العلاقة توطدتْ بينه وبين ميلاد يوماً عن يوم. وما لفت انتباه ميلاد أنه كان يأتي كل مرة بنوع آخر من السيارات ولكنّ عمار فسّر ذلك بأنها من مستودع سيارات الشرطة في تلك المدينة التي يقيم ويعمل فيها.
أما زينب فشعرت بالأمان بقُربه وبأنه كريم لبقٌ ولطيف في معاملته. فكان في كل مرة يجلب معه اللحم والسمك والبيض وكل ما تحتاجه الأسرة من زيت ودقيق ومكرونة ورز وحليب وجبن. كما كان يجلب معه الفواكه والخضار واعتاد على تناول الغذاء هنا كل أسبوع. كما لم ينس أن يحضر معه بعض الهدايا فمرة يمنح زينب زجاجة عطر أو مرآة صغيرة مستديرة لترى فيها وجهها حين تضع زينتها أو علبة أنيقة تحتفظ فيها بخواتمها أو بما لديها من مجوهرات.. كما أعطي ميلاد مراتٍ متتالية أقلاماً وقميصاً وحقيبة مدرسية. فقالت زينب لابنها لابد وأنّ لعمّار مرتباً شهرياً محترماً ما دام يأتي ومعه كل تلك الهدايا والمواد الغذائية ويعاملهما بلطفٍ كأنه مسؤول عنهما.

فاقتنعت به.. وأباحتْ لبعض جاراتها بأنه يتقرّب إليها ويودُّ الزواج منها وهي موافقة. وسيتم الزفاف في موعد قريب. وذات يوم فاتحها بنيّتِه في الزواج وقال لها أن المشكلة الوحيدة هي إيجاد مسكن؟!

فقالت له: لِمَ تبحث عن مسكن؟! وهو موجود. صحيح أنه قديم ويحتاج لصيانة لكن موقعه جيد ومساحته كبيرة وملكيته مقدسة.. فبدا في البداية كأن الأمر لا يعنيه. ولكن بعد إلحاحٍ منها قال لها أنه موافق بشرط.. أن يتم ذلك بعد عقد القران. فقالت له: معك حق.

وكيف تقوم بصيانة بيتٍ وأنت لست طرفاً فيه؟! أمّا بعد الزواج فتتصرف فيه أمام الناس لأنه مسكنك ومسكن زوجتك. فابتسم ثم أبدى إعجابه الشديد بما لها من ذكاء وفطنة ورجاحة عقل.. ولم يمض سوى أسبوعيْن إلا وقد عقد قرانه عليها.. وهي بقمة غبطتها وسعادتها وكأنها امتلكت نصف الدنيا. وأخبرت جاراتها بأنه رجلٌ وسيم وضابط حكيم وبأن يده سخيّة وأوصافه بهيّة.. ويحضر جلسات الشرطة القضائية مندوباً عن منطقته.. وقريباً سيُرقّى إلى منصبه الجديد كنائبٍ أول لمدير الشرطة نظراً لذكائه وثقتهم فيه.

ونامت زينب وهي تحلم بالميعاد ولم تكن تعلم أن لهذا الرجل وجهاً غير معتاد. وأنّ له أسرةً وعديدَ الأولاد. وأنّ له ماضياً مليئاً بالأحقاد.

حتى أفاقت لتجد أنه باع البيت وقبض ثمنه وتركها وابنها في الشارع من قبل أن يسكن إليها ويدخل بها.. وفعل ذلك معها كما فعل مثله مع غيرها من عديد الغافلات الحالمات. فقد اعتاد أن يعيش على النصب والاحتيال فيُعطي عشرة جنيهات ليكسب مئة.. ويمنح مئة ليصطاد ألفاً وقد يلوّح بألفٍ ليسحب عشرة آلاف في غضون أيامٍ وفي وضح النهار ومن دون مشقةٍ وعناء. وبلا أيّ غصب واعتداءٍ.. بل بكل امتنان ورضا.. وحب ووفاء. ألمْ يكن من الأجدر لزينب.. لو أنها سألتْ واستفسرتْ واستشارتْ من قبل أن تستسلم للأحلام؟!

ولكنْ ها قد فات الأوان.. فقد سمعتْ أن عمار البهلوان سبق وأن استغفل وسلب المجوهرات والعقارات وكلَّ ما وقع بين يديه من نعيم وميراث. وترك العرائس يتجرّعن كؤوس الندم والحظ البائس.

ليس في قريتنا فقط بل وفي قرياتٍ أخرياتٍ ساذجات بنفس أسلوب الحمل الوديع الرضيع.. فإذا به ينقلب إلى ثعبانٍ فظيع وشنيع.

كنا نُفاجأ بين الحين والآخر.. في قريتنا خلال فصل الخريف ومقتبل الشتاء بزوابع مرعبة وعواصف شديدة تأتينا من ناحية الشمال أي من شاطيء البحر حتى أنها تكاد تقتلع الأشجار والمارة في الطرقات. ولم تكن على شدتها وخطورتها.. لتمنع الصيّادين المهرة من دخول البحر في الظلام الدامس وبالرغم من شدة الرياح.. وحين سألناهم عن ذلك قالوا لنا أن الخروج للصيد أثناء العاصفة له عديد المزايا فالتيار المائي القوي يقلب قاع البحر ويجعل الديدان والقشريات والحشرات تخرج وهي تشكل الغذاء الأفضل للأسماك علاوة على أن المياه تتشبع أكثر فأكثر بالأكسجين فتزداد حيوية الأسماك وحركتها وخروجها من جحورها وتشتد رغبتها في الغذاء.. وهو ما يلبّي حاجة الصيّادين المهرة الشجعان فيكسبون من ورائه الرزق الوفير.

لكنّ العديد من أولئك الصيادين رغم خبرتهم وعلمهم بأسرار البحر. لم ينجوا من الهلاك فكنا بين الحين والحين نسمع عن الرايس فلان قد فُقد أو أنّ عمَّنا عِلاّناً وُجد طافياً فوق الماء أو أن غيره مزّقتْهُ الصخور أشلاء وكنا نأسف ونكاد ألاّ نصدِّق.. كيف أنّ فلاناً يغرق!؟ بعد أن كانوا يعودون في آخر الليل أو عند الفجر.. بصيدٍ مُبْهِر.. بسمكٍ في طول الصبيان وبوزن الحملان وله طعم كلحم السمّان.. وقد خرجوا من بين الأمواج الهائجة المتلاطمة وكأنهم من الجان. وها هم الآن قد أصبحوا في خبر كان. وما عاد لهم حِسٌّ ولا لسان.

يا للدنيا من مصير بائس.. أنموت مثل هؤلاء ويلتهمنا النسيان وكأننا لم نكن في يوم من الأيام نضحك ونصيح ونأكل ونشرب ونغضب..؟ فالحياة على ما يبدو لا ولن تتوقف في محطة من المحطات. بل هي كقطارٍ يقطع مسافات ويحمل مفاجآت لا تخلو من همٍّ ومسرّات. فهل نحن من يصنع ويتسبب في حدوثها أم هي مفروضة علينا..؟!

ذات يوم سمعنا عن المنصف بن مسعود أنه عاد من جديد ليضرب ضربةً أخرى. ومن خلال تحرّيات الشرطة وُجد أنه جاء بابتكارٍ جديد من فنون السرقة. فقبل أن يبدأ بسرقاته بات يرشُّ مادةً منومة على هيئة بخار أو رذاذ في هواء المنزل الذي ينوي القيام بالسطو عليه.. ثم يختفي ليعود بعد ربع ساعة.. وقد تأكد من أن أهل البيت صاروا في نومٍ عميق ولا يشعرون بأيِّ حركةٍ حولهم فيسرق ويختار ويدقق في اختياراته بمتسعٍ من الوقت. وهو على ما يبدو على دراية ومعرفة بظروف وأحوال كل واحدٍ من سكان قريتنا. فيفرّق بين الغني والفقير وبين الساكن الوحيد والذي يسكن مع أفراد آخرين. كما أنه يميّز الأرملة والمطلقة والعانس عن باقي النساء فهن الضحايا الأسهل اصطياداً. ولم يدّعِ أحدٌ أنه رآه بل هو كالضباب يأتي ثم ينقشع! ولا أدري كيف ولماذا لم يطرأ أيُّ ردَّ فعلٍ لما بات يقوم به هذا السارق من فعلٍ واعتداءٍ علينا.. وكأنه قدرٌ محتوم لا مفر لنا منه..!

ولا أدري لماذا خطر ببالي وانتبهتُ إلى **شعبان** ذات مساء.. شعبان الذي اعتبرناه منذ سنوات مجرد صعلوك ومتشرد كان الشارع بقريتنا أمَّه وأباه ومقرَّه ومأواه. فعرف الكلاب الضالة كلباً كلباً .. والقطط البائسة قِطاً قطاً.. ويبادلونه هم جميعاً نفس المعرفة والود.

فكانوا يأنسون إليه ويلجؤون.. ويهنؤون بالقرب منه ويسعدون.. أما سكان القرية فكانوا يتحاشونه ويتفادون قُربه ويظنون أنّ به مسّاً من الجان ولا ينبغي أن يتجرأ أحدٌ من الصغار على السخرية منه. ثم بات البعض يعطيه من وجبة ليلة "الموسم" وهي التي تسبق أيام الأعياد والمناسبات الدينية.. وبدل من *شعبان* كانت النساء في قريتنا تسميه **كيف راضالله**.. وكنتُ معجباً بهذا اللقب ولم أفهم معناه. لا أدري كيف خطر ببالي الآن وكنتُ أراه كل يوم دون أن ألمحه !

كان شعبان أو "كيف راضالله" هذا معروفاً لدى الكبير والصغير في قريتنا من دون أن نعيره أي اهتمام فكان مثل صخرة على الشاطيء أو شجرة في الطريق أو سحابة تأتي وتغيب بلا أي ملامح مميزة أو في شخصية محددة. فقد ألفناه يقوم بأي عمل أو حرفة. وكان البعض من الشباب يوشوش عنه ويصفونه بأنه **لقيط**. وكانوا يتناقلون في الخفاء أن أمه **شعلة** الزمزامة[1] وضعته أمام مسجد القرية وهربت. ثم عادت فأخذته وربّته حتى ماتت وتركته في الشارع ولم يجد أحداً يأويه لكنّ الناس كانوا يعطفون عليه ويرمون له ببعض الطعام كباقي القطط والكلاب ولا يقتربون منه إلا وقت الحاجة إليه بأن ينقل لهم القمامة أو البضاعة من السوق بالبرويطة[2] القديمة التي ينام فيها.

وكان "كيف راضالله" لا يتكلم مع أهل القرية إلا بكلمات مقتضبة أو بالإشارة حين يتعاملون معه. وكان يحمل في جيبه عدة أقلام بالرغم من أنه لا يقرأ ولا يكتب ولا أذكر أنني رأيته يوماً يتعلم في المدرسة مثلنا. وكان يلتقط بين الحين والحين بقايا السجاير الملقاة بالشارع أو في القمامة وقد تكون أحياناً لا زالت مشتعلة فينفث دخانها من فمه إلى أعلى على هيئة دوائر متلاحقة ثم سرعان ما يُلقيها خلفه.
ولا أذكر أني رأيته يوماً ما يبكي ويشكو أو يصيح ويحتج مثلما نفعل. وهو في مثل عمري أو ربما يكبرني ببضعة أعوام. فكل الأمور عنده لا قيمة لها. وقد نجده نائماً قرب الحائط أو جالساً فوق أحد الأسوار. وكان رحيماً مع الأطفال كتعامله مع القطط والكلاب لا يؤذي أحداً. وكان أحياناً يوجِّهُ نظره إلى السماء.. فيتابع حركة السحب بإصبعه بهدوء. أما في الليل فكثيراً ما رأيناه يعدُّ النجوم وهو على ظهره..!

[1] الزمزامة: هي الراقصة والمغنية في الأعراس والمناسبات الشعبية الليبية بالأجرة.
[2] البرويطة في طرابلس عربة يدوية ووسيلة لنقل أدوات البناء ومختلف الأشياء الأخرى.

وفجأة اختفى شعبان أو "كيف راض الله" ولم نعد نراه. وقيلت عنه عديد الروايات: أنه ذهب ليصطاد السمك مع بحارة أغراب فغرق بهم القارب وفُقدوا جميعاً.. وقيل عنه كذلك أنه سرق مالاً وهرب إلى تونس. كما تناقل البعض عنه حكايةَ أنّ الجِنَّ قد اختطفه ذات ليلة شتوية عاصفة وأنه سيعود من جديد عما قريب إلى القرية.

وفي نفس تلك الفترة التي غاب فيها من القرية عن الأنظار.. اختفتْ فتاةٌ ضريرة فقيرة اسمها **بصيرة** عاشت في القرية وهي يتيمة سقيمة. تعاني من عرجٍ شديد في مشيّها وألمٍ في وجهها.. فظلّت تحاول أنْ تخفيه بيديْها عن الأنظار.. وكأن بها حساسية ضد ضوء النهار. وقد عاشت مع جدتها أو خالتها في كوخ صفيح على الخبز والماء. وكانت لا تستطيع أن تعمل وإنما تتلقى الصدقات من أهل الخير في العيد.

وذات صباح من أيام الشتاء العاصفة قيل أنها فُقدتْ في نفس الفترة التي اختفى فيها "كيف راضالله" ولم يعلم الناس أنّ بينهما أيَّ صلة. كما لم يفتقْد أحدٌ من القرية أيَّ مال أو ممتلكات مهما كانت قليلة.. ولم يُعرف عن بصيرة أنها كانت تعاني من نوبات قلقٍ وبكاءٍ وشكوى بل بدتْ للناس فتاةً راضية حكيمة... وكانت تحفظ الشعر وجميل القول بالرغم من أنها لم تذهب في حياتها إلى المدرسة. بل كانت تكاد ألاّ تغادر الكوخ الذي تتقاسمه مع خالتها أو جدتها والذي ورثته عن أمها. وبالرغم من قلة ما كان لديها من زادٍ وطعامٍ.. كانت تُرحّب بالأطفال والقطط بل وتُطعمهم وتسقيهم.. وكانوا هم يألفونها ويستأنسون بها. ثم فجأة اختفت من دون سبب أو تفسير ظاهر.. لكنّ الناس في القرية سرعان ما نسوها كما نسوا "كيف راضالله" وكثيرين غيرهما. وبقيّتْ ذكراهما في وجداني.. لا أدري كيف ولماذا؟ ولم تكن لي بهما علاقة غير مشاهدتهما من باب الفضول عن بُعد.

كنتُ أسمع عن بصيرة أنها تقيم الليل تصلّي وتدعو الله جالسة أمام كوخ الصفيح الذي تقيم فيه وتستغفر ربها وتبكي وتخشع.. وعندما يحين الأذان تتوضأ من جديد وتوقظ خالتها وتناديها فتصليان معاً.. وتسجدان حتى شروق الشمس ثم تنهض وتزحف ببطء إلى الداخل لأنها في أغلب الأحيان لا تستطيع المشي.. أو تمشي خطواتٍ قليلة.. بعرجٍ شديد وألمٍ ظاهر. وتستلقي على فراش الليف ونطع الخروف.. دون أن تأكل شيئاً حتى الضحى. ثم تقوم لتتوضأ وتصلي وتأكل كسرة خبز مما أحضرتْه خالتها من السوق حيث تبيع الأعشاب الطبية مما كانت تصنّفه معها في الأيام والأسابيع الماضية وكانت قد ورثتْ مع خالتها عن أمها وجدتها معرفةً جيدة عن تجميع الأعشاب البريّة وكيفية استخدامها في معالجة العُقم وآلام النساء. أما بعدما اشتد بها المرض في السنوات الأخيرة.. فلم تعد قادرة على التجميع ثم التسويق بل اكتفتْ بعملية التصنيف وهي في الكوخ وأوكلت لخالتها مهمة الذهاب إلى السوق والتحاور مع من هنّ بحاجة للاستشارة والتوجيه واستخدام الوصفات الطبية. وهكذا اشتهرت بصيرة بأنها في شؤون النساء خبيرة بالرغم من كونها ضريرة ولم تزل صغيرة.

وكانت أميّة لكنها فصيحة تحفظ الشعر والأقوال المأثورة وتساعد الأطفال في حفظ الآيات والأبيات وتقويم النطق واللسان ولم تزُرْ في حياتها مدرسةً أو كُتّاباً.. إلاّ ما كانت تسمعه من أحاديث المذياع..! أيُّ فتاةٍ هذه؟! وكيف استطاعتْ أن تصنع من همّها وإعاقتها نوراً يهدي الناس؟ أمْ أن الله أكرمها لتخدم الناس وتُبعد عنهم البأس ؟!

كنت أسمع عنها أنها لم تستسلم للمرض الذي أعجزها عن النوم.. فلم تُبالِ بل جعلت الليل فُسحةً للإيمان والشكر والعرفان لله فيما أعطاها من رزق. ولم تعبأ بالألم.. بل قررت أن تهزأ بالهمّ والغمّ.

أما شعبان أو "كيف راضالله" فلم تكن لي به هو الآخر علاقةٌ قريبة ووطيدة كما كانت مع جابر وصابر وبعض الزملاء والأقران الآخرين. ولا أذكر أنني تحدثتُ معه بالرغم من أنه من جيلنا ومن "جيراننا" أو لعل كلمة "جيراننا" في غير مكانها هنا إذ كان يقيم في الشوارع أو على شاطيء البحر وأحياناً فوق الشجر وفي بعض الكهوف. وكنا نتفادى الاقتراب منه. أو هكذا نشأنا على تحذير أهلنا منه ومن الأفضل لنا ألا نجادله أو نسخر منه أو لعله من الخير لنا ألا نقترب منه أصلاً.

ولم يكن من جانبه يبحث عن أيِّ علاقة بنا بل لعله لم يكن يدري بنا وبعالمنا وطموحاتنا ويعتبرنا خارج نطاق اهتماماته. بل كان أقرب اتصالاً بالكبار وخدمتهم والاستجابة لمطالبهم وتوفير احتياجاتهم.. من الرجال والنساء على السواء. وكان الجميع يعاملونه بحذر وقدر. وكانوا يعطونه ما يستحق من أجرٍ ورزق. إلى أن علمتُ بأنه اختفى من القرية ولم نعد نراه. وحينذاك انتبهتُ إلى أمر عجيب. فالإنسان قد لا يأخذ باله من مخلوقٍ ظلَّ يشاركه الوجود حتى يفتقده. أليس هذا بالأمر العجيب؟ وكذلك الصحة لا ندري بها وقد اعتدنا عليها.. وهي تمضي بنا فلا نحس بها إلا حين نفتقدها بالمرض.. عجيب!؟ والمال لا نعرف قيمته إلا بعد أن يضيع من بين أيدينا. والصديق لا نشعر بخسارته إلا حين يبتعد عنا أو نبتعد عنه. وكذلك الأب والأم والزوجة والأبناء ثم الوظيفة والعمر والشباب والدهر.

هكذا كان شأننا مع شعبان أو "كيف راضالله" فلم نعلم بوجوده إلا بعد أن اختفى عن أنظارنا. فبِتْنا ننسج عنه أغرب وأعجب الحكايات والأخبار ونحيطه بوابلٍ من الأسرار. بل لعله أمسى بنظر البعض من أهل القرية بطلاً من أبطال التاريخ. فقالوا أنه الآن ينعم بثروة هائلة كُتبتْ له. ولعله الآن يعيش في البرازيل أو ربما في كونغو برازافيل..!

لم يكن قد جرى بيني وبينهما أيُّ حوارٍ أو حادثٍ يجعلني أرتبط بهما من قريب أو من بعيد.. فما سر تذكّري لهما بعد غيابهما؟ وكأنني ها قد صرتُ أفتقدهما.. أمْ أنّ تميّزَ الفرد عن بقية الناس بصفةٍ مغايرة عنهم يخلق منه شخصية مستقلة مهما كانت تلك الصفة إيجابية أو سلبية؟ ولعل الشخصية المستقلة ستفوز بقدر أكبر من الذاكرة.. حتى لو كانت تلك الشخصية منحرفة ظالمة أو تعيسة مظلومة..!!

كنتُ بطبعي أحاول بمخيّلتي ربط الأحداث فيما بينها مهما تباعدتْ وأعترف بأنني كثيراً ما انشغلُ بالمحتال المنصف بن مسعود.. ذلك اللص الذي لم يره أحدٌ منا على مر السنين. بل كان ككُتلة الضباب لا تستطيع تحديد ملامحها لكنك تراها وقد تتوقعها أن تمطر.. فكنتُ أتصوّر ملامح هذا اللص في كل شخصٍ اشتبهُ في تصرفاته أو أعلم أنه قد أدّى دوراً ما في القرية ثم اختفى.. أو أنه جاء غريباً عنا.. وحينما أكتشفُ أن العلاقة بدت وهمية أجددُ الاشتباه في شخص آخر.

فهل المنصف بن مسعود هذا هو شعبان أم أنه المعلم التونسي؟ أم عمار أم ربما هو ليس بذكرٍ بل هو فتاةٌ بقوّةٍ خارقة وقدرة ناطقة اسمها بصيرة؟ أم أنه جان كما قيل بهيئة إنسان؟ فما قام به من أفعال وأعمال يفوق كل تصوّر وخيال.. أمْ لعلّ ما يُنسب إليه مُبالَغٌ فيه ومردود عليه؟ ولكن ما بال أهل القرية لم يقوموا بأيَّ ردٍّ فعلٍ تجاه هذا المحتال الأقرب للخيال؟ بل اكتفوا بالتعليق عما ظل يأتي به من مغامرات وابتكارات وأضافوا إليها من عندهم بعض البهارات .. وكأنهم معجبون به منتظرون لما يزوّدهم به من تسلية وسهرات.
يا له من مخلوق عجيب غريب ولكنه قريب نكاد نلمسه فينا بيننا.
أعترفُ بأن تلك الأفكار المضطربة الغريبة قد شغلتني بالليل والنهار.

"لا.. قُلْ لا"

ذات ضُحى كنا في فترة الاستراحة فرأيتُ زميلي "**عمر**".. يضع ورقة صغيرة بحجم عُمْلَة العشرة قروش النقدية على صدره ومكتوب عليها: "لا".. فقط حرف لا.

فدنوتُ منه وكانت صلتي به قوية فهو جاري بالسكن وفي المقعد.. وسألته ماذا تعني "لا" تلك؟ فقال: انظرْ حولك ! فتجوّلتُ بنظري فرأيت طالبيْن آخريْن يفعلان نفس الشيء.. فرجعتُ ببصري إليه متعجباً.. فقال مبتسماً: لا للظلم والاستغلال. فقلتُ: هل هو شعار سياسي؟! فقال: إيـيـعني.. تقريباً. فقلتُ: هل أصبحتَ تنتمي لحزب؟ فقال: لا ليس حزباً سياسياً خارج المعهد.. بل هو مطلب من داخله. فلم أفهم ما يعني. فأضاف: ألم تلاحظ أن في هذا المعهد ظلماً وطغياناً واستغلالاً؟! فاندهشتُ وقلتُ: أأنت جادٌّ أم تمزح يا عمر؟ فأجاب: بل أنا جاد ومتأكد مئة في المئة. فهلا تنظمَّ إلينا..

فقلت: إليكم؟ ومن أنتم؟ فابتسم وهو يأكل رغيف الجبن وقال: إن أردت فسوف أعرفك عنهم ولكن ليس الآن في الاستراحة. وأريدك أن تعلم أننا مسالمون لا نقوم بمظاهرة أو مشاجرة وإنما فقط نحتج ونقول لا.. لا أكثر ولا أقل. يعني مثل الزعيم غاندي.. أتذكُر غاندي؟ وكيف كان يقاوم الاستعمار البريطاني في الهند فقط بالرفض السلمي وبالاحتجاج؟ فنحن كذلك لا نقول إلاّ حرفاً واحداً لا. فلتكُن معنا. وسترى كيف نصبح أقوياء ضد الاستغلال والقهر. فقلت: ولكن أين القهر والاستغلال هنا؟ فقال: بعد الدروس سنلتقي.. هه ما رأيك؟!

أمام المعهد عند الواحدة والنصف رأيته واقفاً يتحدث مع المعلم التونسي وبصحبتهما اثنان أو ثلاثة من الزملاء فاقتربت منهم فقال:

عالسلامة سالم. إيجا إيجا. نحبك تجي معانا اليوم لعشية زي العادة في الملعب. كيف ما يقولوا في الراديوو: لأمرٍ هام..! ثم ضحك وهو يرتدي نظارته السوداء كعادته فمسح من ورائها عينيه بمنديله دون أن يرفعها.. وفي تلك الأثناء تذكّرتُ ذلك الموقف حين رأيته يغسل وجهه وشعره في غرفته.. فسألتُ نفسي: أَلهُ علاقة بمسألة لا؟! هل سيكشف لي عن أمرٍ كان يغطّيه هو الآخر وراء نظارة سوداء؟!

ظللتُ في ساعة القيلولة.. وما بعد الغذاء في بيتنا.. مشغولاً أفكر في مسألة **لا** وفيما قال عنه **عمر** من ظلمٍ واستغلالٍ وقهرٍ في المعهد..! وأخذتُ أراجع معلوماتي عن المعهد ومن فيه وما يحتويه فلم أر أيَّ نوع من الظلم والاستغلال. بل على العكس تماماً.. كنتُ فخوراً بأنني أحد الطلبة المتفوقين فيه بل ربما أكثرهم حظاً في درجات النجاح.. ليس بتوفيقٍ مني وإنما بفضل الله سبحانه وتذكّرتُ كيف أنّ الشيخ ميلود يعاملنا وكأننا أولاده ويحرص على أن يوفر لنا الإفطار والمبنى النظيف والنظام والترتيب والتسابق مع المدارس الأخرى في المدينة ويعطينا منحة مقابل قيامنا بنظافة المعهد ونحن بأمسِّ الحاجة إليها.. ويراقبنا ويوفر لنا ملعباً نمرح فيه بعد العصر حتى الغروب كما يشجعنا على التفوق في الامتحانات لنلحق بالحياة الكريمة.. فماذا نريد أكثر من هذا؟ ونحن نقيم في قرية فقيرة معظم سكانها أميّون؟!

والمعلمون بالمعهد كلٌّ قائمٌ بواجبه.. وصحيحٌ أن الأستاذ صخر متشدد معنا لكنه يريد أن يجعلنا متفوقين بالرياضيات كأهم أساس لبناء العلم. حتى وإن كنا لا نفهم ما يقصده بهذا الكلام! أما الأستاذ عثمان فكان يؤكد لنا أن اللغة العربية هي التي تجعل لنا شخصية مستقلة ومحترمة بين الأمم. وهكذا أراد بقية المعلمين أن يبيّنوا لنا أهمية العلوم الأخرى والرسم والفنون في سير حياتنا اليومية.

في عصرية نفس اليوم التقينا بالملعب وكان المعلم التونسي حاضراً. وأحضر لنا إبريقاً من عصير الليمون.. قال أنه صنعه بنفسه ومعه أكواب الشاي الصغيرة لكي يكفي ما في الإبريق الحاضرين. ثم جمعنا بطرف الميدان وقال لنا: *نحب نقول.. عندنا برشة حاجات نتحدثو فيهم وتهمنا ياسر ياسر. ويلزمنا نعرف كيفاش نغيروهم بطريقة ذكية وما تعملناش مشاكل مع حد.* ثم سكت وأخذ يقلّب في أوراقٍ أحضرها معه. ثم قال: *وآش رايكم وكان نطرحوا هالمشاكل قدامنا ونشوفوا هيا بالفعل تهمنا والإ لا* ؟ فهز معظم الحاضرين رؤوسهم بالإيجاب.. فأخرج جاري **عمر** من جيبه قلماً وكراسة وبدأ يكتب.

قرأ علينا المعلم التونسي عناوين عدة من أوراقه ومنها على ما أذكر: أهمية الرياضيات - ودور الفيزياء والكيمياء في حياتنا -اللغة العربية والرسم والتصوير والفنون وأهميتها في حياة الإنسان- وكيف نطور مناهج التعليم. ثم قال ما معناه أننا لو استطعنا أن نكتب مقالات عن هذه المواضيع لكي نحررها بالصحيفة الحائطية ثم نقدمها في الإذاعة المدرسية فإننا نكون قد قمنا بعمل ممتاز.. فسألته: لماذا يضع على صدره لا؟ وهل لذلك علاقة بالمناهج؟ فقال إنّ كلمة لا ترمز للوسيلة التي نعبّر بها عن رأينا في مناهج التعليم السائدة. إذ أنّ المناهج وأساليب تقديمها يجب أن تتغير إلى الأفضل.. ولكن من دون أن يجعلنا ذلك نصطدم بأحد. أي بأن نرفض ما نراه من أخطاء بلا عنف ونقدّم البديل الأفضل في نفس الوقت. فمن السهل عليك أن ترفض وتحتج وتصرخ ولكن هل بإمكانك أن تُصلح الخلل بصورة أفضل وبكل هدوء؟! هذه هي المهمة الأصعب.. أليس كذلك؟!

وقال لو أننا وقعنا تحت سلطة تتحكم فينا وتهيننا.. فمن حقنا أن نقول على الأقل لا. وكذلك نقولها لمن يستغلّنا ولا يمنحنا حقنا..!

انتبهتُ لما قاله لي جاري عمر في الاستراحة وحين ذكّرني بالزعيم الهندي غاندي الذي أخذ على عاتقه "مقاومة الاستعمار البريطاني سلمياً" ببعض أتباعه إلى أن تضاعف عددهم فوصلوا الملايين..!
ثم قال المعلم التونسي لو أننا وضعنا حرف لا على ورقة صغيرة ثم علّقناها على صدورنا فذلك يعني أننا رفعنا شعاراً بسيطاً لكنه موحدٌ ويعطينا قوة التعاون والتآزر والشعور بأننا لسنا ضعفاء بل أننا نمثل كتلة قوية يمكنها أن تعبر عن رأيها ويمكنها التغيير إلى الأصلح..!
وقال: وحين نرى تلك الورقة الصغيرة على صدور أصحابنا وزملائنا نشعر بالقوة والاطمئنان.. وأن ما نقوم به هو لمصلحة الجميع. ثم قال لو أن أحدكم يكتب مقالة عن الرياضيات ودورها في حياة كل إنسان فسنرى هل منهجنا في الرياضيات سليم أم بحاجة لإصلاح؟

وقال يجب أن نعلم أن الرياضيات علمٌ لا يمكن الاستغناء عنه لكنْ كيف ولماذا؟ لماذا أخذت الرياضيات أهم مكانة في كافة الحضارات السابقة واللاحقة؟ بل وفي حياة كل فرد في المجتمعات المتحضرة؟ فلولا الرياضيات لما كانت هناك معاملات حسابية دقيقة بين الناس ولما كانت قيمةٌ للتجارة والميزان. ولما كان للشريعة من تطبيقٍ للزكاة وأوقات الصلاة والحج ومعرفة مصدر ونسبة الربا في الأرباح. ولكن لِمَ يتفادى الطلبة دراسة الرياضيات وأين يقع الخلل في تعليمها؟!

ولو تصورنا فقط أننا أصبحنا نتكلم عبر الهاتف وبيننا آلافُ الأميال فهل كان هذا ممكناً لولا علم الرياضيات؟ ورأينا كيف أن الاسلام قد وضع في حياة المسلم كل شيء بحساب دقيق. فهل هذا ممكن من دون رياضيات؟ ولكن ما هي الصعوبة في فهم هذا العلم؟ أليس هو الذي ينمّي في عقولنا قدرتنا على الفهم والتدبر والاستنتاج والتطبيق بدل أن نقتصر فقط في حياتنا .. على الحفظ والتذكر..؟

لكن لعل هذا ما جعل الرياضيات علماً لا يُقْبِل عليه الطلبة إذ تربّوا على الحفظ والتلقين بدل الفهم والتطبيق.. وحين لا يجد الطالب ارتباطاً بين هذا العلم والواقع الذي يعيش فيه ومحاولة فهمه من خلال مسائل تمس حياته اليومية.. فيظنه علماً من علوم الخيال.

فالطالب لا يرى في كراسته وكتابه إلا حروفاً وأرقاماً ومعادلاتٍ كلها طلاسم وألغاز وليس لها صلة بأي جانب من أجزاء حياته ومعاشه. ثم أن أغلب الطلبة يعتبرون حصة الرياضيات وجبة دسمة ثقيلة لا يسهل هضمها إن لم تكن في تقديمها شهية وممتعة.. وإن لم يكن موعد تقديمها قبل الحصص مبكراً.. وإن لم يكن الأستاذ الذي يقدِّمها مُقْنِعاً بأنه موهوبٌ وقادرٌ على تقديمها بصورة سهلة مشوقة ولها قبولٌ حسنٌ لدى السامع مهما كان استيعابه وذكاؤه محدوداً.
أما إذا فُرض تعليم هذا العلم بالتهديد والترهيب.. فإن المصيبة أعظم. ثم نظر المعلم التونسي إلى ساعة يده وقال: لقد آن الأوان أنْ أودعكم.. فلدي موعد مهم. وإن رغبتم فسألتقيكم في الغد هنا في نفس الموعد. ولا تنسوا أن تعلقوا حرف لا على صدوركم وأن تأتوا غداً ومعكم مقالاتٌ يمكننا نشرها بالصحيفة الحائطية. فقال عمر: وفي الإذاعة المدرسية كذلك يا أستاذ. فقال: نعم نعم. يا عمر..!

وتذكّرت بالفعل أن كثيراً من زملائي لا يحبون مادة الرياضيات.. كما أحبها.. ويقولون أنهم غير مقتنعين بفائدتها لهم بل ولعامة الناس. وهو ما دفعني إلى أن أكتب مقالة عن أهمية الرياضيات لكل إنسان وليس فقط لفئة معينة كفئة المهندسين والمعلمين بل لكل إنسان. كما كتبت مقالة أخرى عن أهمية الفيزياء في حياتنا وصلتها القوية بمختلف أنواع الطاقة كالطاقة الشمسية والطاقة الكهربائية ومعلوم أهمية التيار الكهربائي في حياتنا اليومية فما هو إلا طاقة فيزيائية..!

ولولا الفيزياء ما تقدمت مجالات الطب المختلفة.. سواء من حيث التشخيص أو العلاج كأجهزة التصوير بالأشعة وبالذبذبات الصوتية وأجهزة الرنين المغناطيسي وأجهزة التحاليل. ولو نظرنا في عالم المحركات والسيارات والشاحنات الرافعات مثلاً.. وجدنا أنها تعمل وفق قوانين فيزيائية. وما ينطبق عليها نجده في عالم الطيران وعالم الإرصاد الجوي والملاحة البحرية وعالم الفضاء والصواريخ.

كتبتُ مقالة ثالثة عن الفرق بين الفيزياء والكيمياء وعلاقتهما بحياة الإنسان ولماذا ندرسهما في المدارس والمعاهد ونعتبرهما من المواد الأساسية في تعليمنا. فقلتُ أن الفيزياء كأنها المظهر الخارجي لكائن ما من الكائنات وسلوكه وكيفية تواصله مع الكائنات الأخرى وكيفية تصرفه وتفاعله من غيره. أما الكيمياء فإنها تمثل ما يختص به ذلك الكائن من صفات داخلية وممّ يتكون. أي أنهما متمّمان لبعضهما.

وهما في نفس الوقت مختلفان ومتباينان. فواحدة تهتم بالتواصل الخارجي والأخرى تهتم بالتفاعل الداخلي. وكما رأينا أن علم الفيزياء هو الذي أوجد لنا المعدات والآلات بالمعامل الطبية. بينما الكيمياء هي التي حددتْ تلك الاختبارات التي تُجرى في المعامل. ومن ناحية أخرى فإن الكيمياء أول علم له صناعة متكاملة اسمها **الصناعات الكيميائية**.. فهناك صناعة الأدوية والنفط والأغذية فهي صناعات كيماوية. بينما لم تكن توجد صناعة فيزيائية. وحديثاً أصبحنا نسمع عن صناعات فيزيائية تنتج الالكترونات والتكنولوجيا الحديثة في كل المجالات الحضارية فأيُّ آلة في العالم مهما كان نوعها تعمل أساساً بقوانين الفيزياء. ولفهم وصيانة مختلف الآلات والمعدات لابد من معرفة مسبقة وكافية لعلم الفيزياء. ولهذا يجب أن يتسلح كلُّ طالبِ علمٍ بمعلومات كافية عن هذا المجال وإلاّ تخلّف عن العلم.

كما قام **عمر** بكتابة مقالة وألقاها عبر الإذاعة المدرسية بعنوان:

لو تخيّلنا يوماً في حياتنا بلا فيزياء!!

يشكو كثير من زملائنا الطلبة من "الفيزياء" ويعتبرونها مادة صعبة معقدة ولا فائدة منها لعامة الناس. فالطالب بعد التخرج سينساها ويقول آخر: ماذا يهمُّني أنّ تفاحةً سقطت من شجرة على **نيوتن** !

سأقول لكل واحدٍ من هؤلاء: *مهلكَ قليلاً لو سمحت*.. أرأيتَ كأس الماء البارد الذي تشربه ما كان ليكون بارداً لولا الفيزياء. والمصباح ما كان لينير لولا الفيزياء. وجلوسك على الكرسي لا يتحقق إلا بالفيزياء. من خلال **قانون الحركة** الذي أرشدنا إليه العالم **نيوتن**.. كما أنّ نظرك لهذه السطور يتم من خلال **قانون الإبصار** الذي فسّرَهُ العالم المسلم ابن الهيثم. والهاتف كيف يرنّ والساعة كيف تدق والدراجة كيف تدور كلها لا يمكنها أن تعمل لولا الفيزياء. ولولا البريد الحديث لبقيتَ تنتظر الحمام الزاجل. لكي ينقل منك وإليك الرسائل. ولو أن مصاباً يحتاج لصورة أشعة.. فلن يتحقق له ذلك لولا جهاز الأشعة السينية الذي يعمل بالفيزياء. وفُرنُ الخبز لا يمكنك أن تحصل منه على رغيفٍ ساخنٍ لولا الفيزياء. ولولا علم الفيزياء.. ما استطعنا أن نصل للسيارة والطيارة ولبقينا مع الحصان والجمل والحمار للسفر ونقل امتعتنا. ولولا الفيزياء ما تحصلنا على منازل وعمارات حديثة مريحة وعالية تناطح السحاب. ولولا تطوّر تقنيات ومعدات علم الفيزياء لما غدا الاقتصاد العالمي بتلك الضخامة وهذا الثراء..!

أما السر في تأثير الفيزياء بهذا التنوع وهذا العمق في حياتنا فلأنّهُ علمٌ يتعامل مع المادة والحركة والطاقة معاً. يعني بكل ما في الكون من مكونات. فحتى حركة الأرض وضوء الشمس والبرق والرعد تحدث من خلال الفيزياء. وكذلك الثلاجة والغسالة والسكين وآلات الطبخ.

وعرفنا من خلال توجيه المعلم التونسي لنا أنه يريد ان يؤكد لنا على أهمية "التعامل السلمي" في أسلوب حياتنا. فقال لنا لو رأينا مشكلة ما تواجهنا فمن الأفضل أن نتعامل معها بالسلم وبطريقة سلمية !! بمعنى أننا لو لاحظنا أنّ المنهِجَ الدراسي بمعهدنا صعب وغيرُ موفق فليس من الحكمة أن نرفضه ونتظاهر ضد من وضعه أو من يُعلّمه لنا ونحتج ونصرخ فهذا سيؤدي بنا غالباً إلى نتيجة عكسية.. وإنما الأفضل لو أننا قدمنا اقتراحاً بكيف نغيّرهُ ونحسّنهُ بأسلوب مهذب وسلمي ومتحضر.. بحيث يكون عملنا هنا عملياً ومفيداً وواضحاً.. ليس الهدف منه الإفساد والتخريب وإنما الإصلاح والتهذيب.

وقال في لقائه بنا وقت العصرية ذات يوم: لاحظوا كيف فكّر الزعيم غاندي في أن يقاوم الانجليز سلمياً بأن طالب تابعيه من الشعب الهندي بأن يعتمدوا على أنفسهم بصناعة النسيج من صوف الغنم بالمغزل اليدوي وبارتداء ما يصنعونه بأيديهم من قماش قطني لا زينة ولا بهرجة فيه وبأن يقاطعوا النسيج البريطاني المستورد. وبأن يربوا الماعز ليشربوا منها الحليب ويصنعوا الجبن والجلود. وبأن يقولوا لا. مجرد لا. وهكذا أراد المعلم التونسي بهذا المثل أن يحُثنا على ألاّ نواجه الأستاذ صخر معلّمَ الرياضيات مباشرةً. فهو أقوى منا ويمكنه أن يضرنا ويجعلنا نفشل في الامتحان ولا ننجح. ثم أننا نقرُّ بأنه متمكن من المادة الذي يعلمها لنا وهو مخلص ويريدنا أن نكون مثله فاهمين ومجتهدين ولكننا نعاني من طريقته الحادة في التعامل فهو يستعمل العنف بالضرب والإهانة والصراخ ولا يجعلنا نستمتع بالحصة كما يجب أن يكون. بل هناك منا زملاء يكرهون حصته..!

ولذا خطرت ببال المعلم التونسي فكرتين لمعالجة هذه المشكلة. أولاً: بأن نعتمد على أنفسنا. ولكن كيف نعتمد على أنفسنا..!؟

وثانياً: بأن نكتب في الصحيفة الحائطية والإذاعة المدرسية أمثلة تطبيقية عن الفيزياء والكيمياء والرياضيات لكي نفهم ويفهم زملاؤنا منهج هذه الحصص العلمية المهمة بدرجة أفضل وأسهل وأسرع.

أما كيف نعتمد على أنفسنا في فهم الرياضيات بالفعل؟ فهناك كُتُبٌ تُباع في المكتبات مصممة لمراجعة الدروس.. وهي في الغالب كتب مصرية ضخمة وميسّرة ومستوعبة لكافة الدروس.. ولكل سنوات التعليم الاعدادي والثانوي ومن إعداد أساتذة خبراء في المواد التي يكتبون عنها. ومن حسن الحظ أن المناهج المصرية قريبة جداً من مناهجنا الليبية في تلك الفترة أي في الستينات من القرن الماضي.

كما أن أسعار تلك الكتب مناسب لأغلب الطلبة حتى الفقراء.. حتى إذا لم يكن لديهم إلا دخلٌ متواضع. بالاضافة لأننا كنا نستعير تلك الكتب فيما بيننا ونتعاون على قراءتها وفهمها.. وكلٌّ واحدٍ بقدره.

بل إن الكتب أضافت لنا ميزة.. لم نكن نعرفها من قبل.. بأن نستعد للدروس القادمة بصورة مسبقة. فيأتينا شرح الأستاذ في الحصة كأنه مراجعة للدرس. فنستوعب أكثر.. كما أن الأستاذ يرضى عنا أيضاً !!

وهكذا استطعنا بالفعل أن نعتمد على أنفسنا.. بأن أضفنا لما يبذله الأستاذ لنا من شرح وجهد مصدراً آخراً لا يقل أهمية. فهو متوفرٌ لنا وموجودٌ معنا أينما نكون وفي أي مكان وزمان. بل ويمكننا مراجعته ومناقشته مع زملائنا حتى ونحن نلعب ونتسابق ونضحك ونمرح.

بالفعل "فكرة هائلة".. فهكذا نكون مسالمين فعلياً في حل مشكلة: "*كيف نستوعب المنهج*؟" ومن دون أن نصطدم بالأستاذ. ونكون قد ساعدناه كذلك في رفع جزءٍ من الحِمل المُلقى على كاهله في تلك المهنة المقدسة والصعبة ونتدرب على حمل مهام أخرى مستقبلاً.

تشجع جابر فكتب مقالة بعنوان: **من منا يحب الكيمياء**؟ فقال: عامة الطلبة لا يحبون الكيمياء بما فيها من أحرف ورموز ومعادلات معقدة للغاية. ونجد القليل منا من يُقبل عليها ويتخصص بمجالها رغم أننا نعرف جيداً أن الكيمياء علم مهم في حياتنا وأن أجسامنا لا تحيا إلا بالكيمياء. فالغذاء لكي نهضمه لابد له من أن يمر بتفاعلات كيماوية ولكي ينتقل إلى الدم ثم إلى الكبد والعضلات والدماغ وسائر أنسجة الجسم لا بد وأن يتفاعل مع ما في أجسامنا من عصارات ثم انزيمات ومواد وهرمونات في معادلات كيماوية لولاها لما استطعنا أن نبقى على قيد الحياة. ولكن السبب الأساسي الذي يجعلنا ننفر من مادة الكيمياء حسبما اتضح لي هو أن منهجها الذي ندرسه الآن معقد وغير مناسب لعقولنا. فقد قرأت أن الطلبة في أوروبا يتعلمون الكيمياء من خلال اجراء تجارب عملية بأيديهم بينما نحن نحفظ التجارب نظرياً في عقولنا وكما قرأناها من الكتب دون أن نرى شيئاً يحدث أمامنا لا باللون ولا بالرائحة بينما يكون المعلم في المدارس الأوروبية حلقة الوصل بين الطالب والمعلومة كموجّه ومعين. يقوم المعلم بفرض سلطته ورأيه وأسلوبه علينا ويقوم بتلقيننا ما سبق له هو أن حفظه كما هو وكأنه قرآن منزّل وغير قابل للمناقشة.

والمعلم ليس لديه الوقت لإعادة النظر في المنهج لسببين فأولاً لأن المنهج طويل والمدة المقررة له قصيرة. وثانياً لأن مشاغل الحياة لدى المعلم كثيرة ومرهقة فلا يكاد يجد الوقت ليتنفس ويستريح. فما بالك بأن يعيد النظر في المنهج ويقترح على الوزارة تحسينه..!

وهو يتبع الأسلوب التقليدي الذي تعلمه أي "الشدة والعقاب" على الطلبة ليضمن إنهاء المنهج في المدة المقررة بغض النظر عن مدى فهمهم له والاستفادة منه في المستقبل فتلك ليست مهمته!

فوزية وفتحية

كتب صابر مقالةً وطلب من فريق الإذاعة المدرسية تقديمها نيابةً عنه بعنوان: **حاجة العقل للترفيه**. وأذكر أن المعلم التونسي اطّلع على تلك المقالة فأعجبته وأثنى عليها فقد جاء فيها أن المناهج لم تهتم بحاجة الطلاب للموسيقى والرياضة البدنية والرسم واعتبرتها مواد إضافية زائدة وخارجة عن المجموع النهائي للطالب.

وكتب صابر في هذه المقالة: قرأت أن علماء متخصصين في وضع المناهج في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا يرون أن من أكثر أساليب التعليم نجاحاً أسلوب التعلم بالترفيه لما له من تأثير إيجابي كبير على تحصيل الطلبة في المدارس.. كوسيلة تجعل التعلّم أكثر متعة وتزيد من قدرة الطالب على الفهم والاستيعاب مما لو ظلّت المعلومات جافة وجادة كما في التعليم التقليدي سابقاً. فأدى هذا الأسلوب الترفيهي إلى رفع مستوى التفوق لدى الطلبة بقدر كبير..! خصوصاً في المواد التي تتطلب درجةً عالية لدى الطالب من التركيز كمادة الرياضيات واللغات والفيزياء والكيمياء. والمقصود بالتعلم من خلال الترفيه هو أن تكون المواد مزوّدة بالطرائف والفكاهة أي بأن تكون المسائل في الحصة مقترنة بأمثلة طريفة وغير مملة من حيث محتواها وطرق حلها أي على هيئة مسابقات وألغاز سهلة. كما يجب أن تكون الدروس تطبيقية وليست نظرية فقط. ولا يعني ذلك أن تكون الدروس فرصة للعبث والفوضى والمهازل وإنما أن تُقدم بطريقة مشوّقة وهادفة وممتعة في نفس الوقت. فمثلا يمكن البحث عن الكلمة الضائعة أو اكتشاف الخطأ في المسألة أو التمثيل الصامت بالإشارة فقط أو استعمال الألغاز لمعرفة أهداف الدرس.. بغض النظر عن المادة أي من حيث تخصصها ومجالها..!

ومن أساليب التعلم بالترفيه والتشويق: الزيارات التعليمية التي تتاح للطلبة بأن يقوموا بها كزيارة المستشفى للاطلاع على عمل الطبيب والممرضة عن قرب. وزيارة المزارع لكي يتعرف الطلبة على مباديء علم الأحياء أي النبات والحيوان على الطبيعة. ثم زيارة السوق لكي يعرف الطالب عملية البيع والشراء والوزن والحساب والتفاوض..!
وكذلك زيارة المخبز والمطعم والجزار والنجار ثم شرطة المرور. والاطلاع على القوانين التي يجب احترامها ولماذا وُضعت. ليكون التعليم بالفعل عملية ممتعة نابعة من الواقع ومهمة في حياة المرء.

لا أن تكون أقوال وأرقام ومعادلات يحفظها الطالب عن ظهر قلب لأداء الامتحان ثم لا يلبث.. وأن ينساها بعد خروجه منه. إذ لا يجد لها قيمة في حياته لأنه لم يستوعب معناها. فما يراه في يومه بعيدٌ عن كل ما قرأه في الكتب.. أو لأن ما في المنهج علوم معقدة جافة لا يمكنه أن يطبقها أو يراها أمامه. فماذا يفيده أن يحفظ: *الماء يتألف من ذرتين أكسجين وذرة هيدروجين*. فالأولى أن يعرف طالب العلم كيف يثبت أن الماء هو فعلاً من مقومات الحياة الأساسية.. وليس بالنظرية وحفظ المعلومة فحسب.. كما يجب أن يعرف معنى الآية القرآنية التي تقول [*وجعلنا من الماء كل شيء حي*]. ثم لماذا لا يعتبر العلماء الماء عنصراً وإنما هو مركبٌ؟ وما الفرق بين صفات العنصر والمركب؟ ولماذا يحظى الماء بهذه الأهمية بين سائر المركبات؟!

قال صابر أنه قرأ في بعض المجلات أن المنهج التعليمي يُلزم المعلم بإلقاء معلومات كثيرة على طلابه ويكلفهم بحفظها.. على أساس أنها غاية في حد ذاتها وليست وسيلة. بينما هي وسيلة ينتقل بها الطالب إلى تحقيق عدة أهداف تهمه قبل أن يصل إلى الغاية وهي أن يصبح إنساناً واعياً مثقفاً في مجتمعه لا أن يكون مجرد ببغاء.

أما جابر فقرأ بنفسه عبر الإذاعة المدرسية مقالة كان قد وجدها في إحدى الصحف بعنوان: **الطريق إلى التعليم الناجح**. وجاء فيها:

التعليم الناجح ينتبه إلى فروق الفهم بين الطلبة.. ومدى قدرة كلٍّ واحدٍ منهم على استيعاب الدرس. فهناك من هو سريع الاستيعاب ومن هو غير ذلك. أي بأن يراعي استعداد كل طالب على حدة. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى. يجب ألا يكون النجاح في الامتحان هو الهدف.. وإنما الاستفادة من المنهج وكيفية تطبيقه هي الهدف. كما يجب ألا يبقى الطالب سلبياً بل أن تتولد فيه روح الابتكار. والسبب في عدم استفادة الطالب من المنهج وتطبيقه فعلياً في حياته: عزل المدرسة عن مؤسسات المجتمع ومشاكله كلياً. كما أن لجوء المعلم للعقاب بالإهانة والضرب جعل الطالب يكره المنهج والمدرسة بدل أن يتفاعل مع المجتمع ويحرص على أن يصبح مواطناً صالحاً فيه.

وأضاف جابر وهو يتحدث عبر الإذاعة المدرسية: وقرأتُ في المقال الذي وجدتُهُ بإحدى الصحف أيضاً أن تلقين الدرس من قبل المعلم لا يكفي لجعل الطالب ناجحاً ومتفوقاً بالفعل.. بل أن يقوم المعلم بتطوير وتشكيل المادة وتقريبها من أذهان الطلبة ثم جعلها ملائمة للواقع المعاش. وهي عملية ليست سهلة على المعلم ولكنها ممكنة بل هي التي تحدد الفرق بين معلم مهتم وآخر غير مهتم. وقد يكون المعلم غيرَ مُلامٍ بسبب حرمانه من فرص تنمية قدراته المهنية. كما أن مسؤولية تطوير وتبسيط المنهج لا تقع على المعلم وحده.. بل تقع كذلك على واضعي المنهج في وزارة التربية والتعليم. بأن يراعوا علاقة التعليم بالتربية والمنهج بظروف الحياة. حتى يكون التعليم بالفعل فرصةً للطالب كي يكتسب خبرته في الحياة. ويقوم المعلم هنا بدور الموجِّه والمرشد لا بدور الملقن. وينشأ التفاعل المرغوب.

وأخذ المعلم التونسي يحثنا على أن نهتم ونركز اهتمامنا بالبحث في كتب التربية وفي المجلات المتاحة لنا بالمكتبة العمومية في ميدان الشهداء وفي المراكز الثقافية بأن نختار تلك المواضيع التي تهتم بالتعليم وكيفية الاستفادة منه في مستقبلنا.. وبأن نقوم بتلخيص المواضيع المهمة ونعيد صياغتها لننشرها في صحيفتنا الحائطية (الشروق) أو نذيعها عبر الإذاعة المدرسية في معهدنا. وبالفعل بدأنا نخصص وقتاً يوماً كل أسبوع لنزور تلك المكتبات المجانية في أنحاء المدينة ونتسابق في أن ننقل منها مقالات مفيدة.. بدل أن نظل في ملعب الكرة فقط لتنمية وتقوية عضلاتنا ولا نهتم ببناء عقولنا !

وكان الفضل في ذلك الترغيب عائداً إلى المعلم التونسي. مع تشجيعٍ واضح وجدناه أيضاً لدى الأستاذ **عثمان** معلم اللغة العربية والدين السوداني والذي ساعدنا كثيراً في تصحيح المقالات لغوياً وتعبيرياً.

وبدأنا نهتم كذلك بدراسة ظروف قريتنا المعيشية حيث أنها قرية يعتمد أهلها على صيد السمك وبعض الزراعة ولا يوجد فيها مكتبة ولا صالة ثقافية ولا مسرح ولا قاعة سينمائية. وهي بطبيعتها قرية قاحلة لا توجد فيها حديقة عامة أو مكان للعب الأطفال وليس فيها صالة للرياضات البدنية ولا أخرى للرياضات الفكرية والمسابقات الذهنية فيما عدا مكان للعب كرة القدم. واتضح لنا كيف أنها تتيح المجال لتسلل اللصوص إليها بداخلها ومن خارجها. حيث ينقصها مركز للأمن ولا تتوفر فيها وسائل للرفع من قيمة الإنسان. بل ترى فيها الأطفال والشباب حفاة رعاة يتسكعون في الطرقات لا يشغلهم شيء له قيمة. ويتفوّهون بالألفاظ القبيحة فيما بينهم ويستهزؤون بالمارة ويعاكسونهم. وقال لنا الأستاذ عثمان أن مشكلة المناهج في بلادنا أنها غير مترابطة وغير مبنية بمراحل متتالية بل هي مفككة.

فهي غير مراعية لتدرُّج وعي الطالب عبر سنوات تعليمه.. بل يجب أن تكون في هذا مثل لاعب الكرة.. يبدأ ممارسته للعبة بأن يتدرب على استقبال الكرة والتحكم فيها وفي كيفية تمريرها قبل أن يشارك في مباراة مع فريق. أي عليه أن يكتسب خبرته في اللعب بالتدريج وبصورة تراكمية ومرحلية خطوة بخطوة. فما يتعلمه اليوم من مهارة يبني عليه خبرة جديدة في يوم الغد وهكذا. أما أن يتعلّم شيئاً اليوم وينساه ويبدأ غداً في تعلم جديدٍ لا صلة له فهذا مضيعة للجهد.

إذا تصورنا كيف يصبح اللاعب ماهراً في رياضته ببناء الخبرة فكذلك المتعلم يصبح مثله واثقاً متفوقاً ببناء معلوماته وترابطها فيما بينها.

ومن الأمور التي لا تتوفر في مناهجنا العمل الجماعي بين الطلبة بأن ينجح الفرد بمجهود شخصي ولكن الفريق يبقى مفككاً ولا ينجح كمجموعة مترابطة قوية. ويؤدي هذا إلى نشوء الأنانية..!

ومن الأمور التي ساهمت في إضعاف جودة التعليم وفي قلة مستوى المتعلمين عدم درايتهم بما يجري في المجتمع وعدم قيامهم بإيجاد أي صلة بين ما تعلموه وبين ظروف مجتمعهم والمشاكل الحياتية التي تواجهه وكيف يمكنهم تسخير معلوماتهم لخدمته. بل ينشأ الطالب فلا ينظر إلا لمصلحته الشخصية ولا يهمه إلا كيف يمكنه أن يكسب ويعيش هو وأسرته حتى ولو على حساب غيره بالمجتمع.

في حين أن الغاية من التعليم ليست هي بناء الأفراد فقط وإنما هي الرفع من مكانة المجتمع البشري. بينما الأفراد هم أهداف مرحلية :

الوسيلة ثم الهدف ثم الغاية.

قال الأستاذ عثمان وهو يوجِّهنا في كتابة المقالات: عليكم أن تعلموا أن المناهج التعليمية مهما كان تخصصها أي سواء أدبية علمية أو دينية أو اقتصادية وسياسية مثلاً: أن تكون مراعية لحاجات الأفراد والمجتمع ومراعية لثقافته وتطلعاته وأن تراعي نفسية الفرد وميوله واهتماماته وأن تبعث فيه حب العلم والابتكار والابداع. وأن تعمل على ترسيخ بناء شخصية مستقلة ومتميزة في المجتمع على قاعدة صحيحة متنورة وليست متزمتة ومتخلفة. ومراعية كذلك لثقافة المجتمع ودينه وتراثه والمحافظة عليها من الضياع والتفكك بسبب التقليد الأعمى لنظم الحياة بالمجتمعات الأخرى من حيث المظهر واللباس واللغة والأخلاق والمعاملات الشكلية السيئة والسلبية.

واقترحتُ على مجموعتنا التي كانت تقوم بالنشاط الثقافي في المعهد - أي بالصحيفة الحائطية الشروق والإذاعة المدرسية- أن نشرع في بناء "مسرحاً" مدرسياً بسيطاً.. ونقدم من خلاله عروضاً فنية عن نظرتنا للمجتمع ومشاكله بلوحات فكاهية نقدية.. وكيف يمكننا كطلبة المساهمة في حل تلك المشاكل - أو على الأقل التنبيه إليها.

وافق زملائي وأخذنا الإذن من الشيخ ميلود بأن نبني حائطاً بما كان لدينا من مواد بناء بسيطة فالطوب الأبيض كان متوفراً لأن المنطقة مشهورة بمقاطع ذلك الطوب الجيري. وتحصلنا على الاسمنت من بعض التجار الذي تبرعوا لنا به. وبنينا الحائط بأيدينا ثم طلبنا من أ. **إسماعيل** معلم الرسم أن يرسم لنا نافذة فأبدع فيها كل الإبداع. ثم قدمنا لوحاتٍ من تأليفنا وتمثيلنا أُعجب بها الحاضرون من طلبة ومعلمين وأولياء أمور وزوّار. ونلنا عنها جوائز من الشيخ ميلود.

كان الأستاذ الراحل **صالح** -والد الأستاذ خالد معلم مادة الأحياء- قد عمل موظفاً بهيئة الضمان الاجتماعي وقد تعلّم الإيطالية بالمراسلة كزميله وصديقه الشيخ ميلود. ثم عيّنه معه في معهدنا مُشرفاً عاماً.

وبعد وفاته ترك الأستاذ صالح ابنته **فوزية** فتاةً في الثالثة أو الرابعة عشر أي في مثل عمرنا تعيش مع والدتها في بيت متواضع بالقرية..

أما ابنه خالد فبعد أن أتمّ معهد المعلمين وقُبل كمعلم لمادة الأحياء بمعهدنا تزوّج وسكن في بيت مستقل لا يبعد كثيراً عن مقر المعهد. وكان شاباً وسيماً يهتم بلباسه وقيافته ومظهره فيبدو كأنه ابن عائلة ثرية بيد أنه لم يكن كذلك بل ذوّاقاً في اختيار الثياب التي تناسبه.. كما كان حريصاً على ممارسة رياضة كمال الأجسام.. فجعلتْ من هيئته وقوامه وطلعته ما يُعطي الانطباع بأنه منعّماً وميسورَ الحال. وكان يهتم كل الاهتمام بمادته العلمية التي قام بتعليمها لنا. كما كان خلوقاً متواضعاً معنا كل التواضع وحبّبنا في مادة الأحياء إذ جعل حصته من أقرب الحصص إلى قلوبنا فسحةً للمتعة والتأمل.

غير أنه كان يبدو لي شخصياً وكأنّ في أعماقه لوعةً وحُزناً وأسفاً. غير أنها كانت أحاسيساً دفينةً مختبئة وراء يدِ فنان وعينِ مصور وفكرِ شابٍ متعلم نابض بالحياة رغم الحزن. وهو ما شدّني إليه وجعلني أتأثر به فصرتُ أقلّده في تسريحة شعره واختيار ألوان ثيابه ومظهره ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. وأخذتُ أحاكيه في إجادته لعمله وحبه للنظام واحترامه للوقت والمواعيد فلم يتأخر عن موعد الحصة ولو دقيقة واحدة. كما أعجبني فيه حرصه على كبح جماح نفسه والتي تتوق لأنْ ترفض ما ألمّ بها من حظ عاثر ومصير حائر وزمن مستهتر لكنه استطاع بما أوتي من صبرٍ وقوة وحكمة أن يتحكّم في انفعالاته وثورته ولا يجعلها تغلبه وتنفلت منه بل أمسك لجام غضبه..!
ثم توصّلْتُ من خلال ما توفر لي من معلومات إلى أنه يعاني من قلة التوافق بينه وبين زوجته وكأن الظروف السائدة قد فرضتها عليه.. فاتضح له أنه لم يُحسن الاختبار ولم يدقق في الاختيار..!

وأنهما منذ الأيام الأولى لزواجهما غريبان جمع القدرُ بينهما في قاربٍ واحد من قوارب الدنيا يخوضان في بحر الحياة الهائج.. فقال له الملاّحون الرفاق: اصبر عليها لعلها لم تتعود على الإبحار أو لعل الزمن سوف يعلّمها كيف تتأقلم وتهدأ. فترى معها السعادة كما يراها طائر النورس وهو يرفرف بجانحيه الممتدين مستمتعاً بزُرقة البحر واتساع السماء ونسيم الهواء. ولكن شيئاً من ذلك تأخر..!

وكان خالد قد تعرف على أسرة **فتحية** وهو طالب بمعهد المعلمين عن طريق أخيها زميله في المعهد الذي بادله الإعجاب ثم تطوّرتْ العلاقة بينهما.. فصارا يذاكران معاً فزاره خالد في بيته حيث عرّفه بأبيه وجده شيخاً وقوراً يعلّم الأطفال القرآن في الكُتّاب.. فأُعجب خالد به وبنظام أسرته أيّما إعجاب. وشعر بأنه سيجد في هذا البيت شريكة حياته التي يبني معها مستقبله وهو لم يرها بعد.
ولم تمض إلا فترةٌ وجيزةٌ من الزمن حتى خطب خالد إحدى بناتِ الشيخ التي جاء عليها الدورُ في الزواج بين أخواتها. وهي **فتحية** بعد أنْ تمكن فيما أتى من الأيام أن يراها على بُعدِ مسافةِ عدة أمتار وهي تمشي في الشارع عائدة إلى بيتها مع أختها الصغرى.. فتزوّجها إثر تخرُّجه وانتقلت لتعيش معه في القرية بعد أن كانت تقيم بوسط المدينة. فبدا لها كأنها انتقلت لعالم عتيق غريب فلم تسعد به ولا هو سعد بها وبدأت المأساة.. تخيّل أن تعيش في حيّزٍ واحدٍ ضيّقٍ مع كائنٍ لا تربطك به صلة. فلا هو يطيقك ولا أنت تشعر بالسكينة حين تدنو منه.. ولكنّ خالد آثر ألا يبوح بذلك لأحدٍ مهما كان..!
أما أخت خالد **فوزية** فهي فتاةٌ حسناء ذات عيْنيْن عسليّتيْن وشعر أصهب كثيف يميل للحُمرة ووجه مشرق مبتسم مقبل على الحياة. ولم يكن مسموحاً لها بالذهاب إلى المدرسة إلا لثلاث سنوات.

وأذكر أنها كانت في مثل عمرنا لكنها لم تختلط بأحدٍ منا ولم تكن تلعب في الشارع وحين بلغتْ المراهقة حجبوها عن مغادرة البيت. فصارت ترتدي "البيشّة" وهو غطاء أسود رقيق شبه شفاف يغطي الرأس والوجه.. فلم يكن مسموحاً لها بالخروج إلا به رفقة أمها أو زوجة أخيها فتحية التي رفضت أن ترتديه.. إذ أنها لم تألفه.

فأصر زوجها على أن ترتديه.. فنشبَ بينهما خصامٌ فتدخل الأستاذ صالح لصالحها.. وسمح لها بأن تخرج من دونه مخافة أن تتأزم العلاقة بينها وبين ابنه. إذ كان الأستاذ صالح مسالماً لا يقوى على إيذاء أحدٍ أو أن يمسه بأي سوء. بل طلب من ابنه أن يسايرها ويستجيب لرغبتها ولا يرغمها على أي أمر لا توافقه عليه..!

فرضخ ابنه للأمر الواقع على مضض إرضاءً لأبيه. لكنه بدأ في داخله يسحب مما تبقى لها في قلبه من رصيد يوماً عن يوم. فقد نشأ على أن القارب لا يمضي بسلام بين الأمواج الهادرة إلا إذا قاده ربانٌ واحدٌ وهو الرجل بما أودع الله فيه من عقل وعزيمة وقدرة على التحمل. فشأنه شأن قائد الفريق في لعبة كرة القدم أو قائد الفرقة الموسيقية فما وصل إلى هذا الموقع إلا لأنه قد مر بتجاربٍ أكثر ورؤى أفضل.. وهو الذي يتحمل مسؤولية نجاح أو فشل هذا العمل الذي يشرف عليه ويخطط له.. ولهذا فإنه يحتاج للاستجابة والطاعة ليس لأنه متحكم ومسيطر على من معه.. وإنما لأنه أكثر دراية وخبرة بالأمور. لكن خالد اكتشف ورأى الحقيقة المُرّة.. بأن فتحية لم تستجب له بالسِلم والاقتناع وكأنها نشأتْ وتربّتْ على الرفض والتمرد بعكس ما كان يتوقع قبل أن يقترن بها وعلى النقيض مما رأى في سلوك الشيخ والدها من وقار واحترام وهدوء يحيط بكيان الأسرة بينما هي على ما يبدو كانت تغلي بالداخل كما يغلي القدر الكاتم.

وكأنها وقعت تحت ضغط فادح وظلت ترزح تحت سلطة قاهرة إلى أن حانت الفرصة وشعرت بأنها تحررت فآن لها أن تفعل ما تريد أن تفعله بكل حريتها. كالقدر الكاتم حين يُسمح له بأن يتنفس فينفجر.

ولم تتخيّر العريس الذي تتمناه بل أمسكت بيد أول من مر في طريقها فاعتبرته طوق نجاة.. لتُطلق العنان لرغباتها المكبوتة.. ولم تعترف بأن يلجمها أحدٌ عن رغباتها بعد الآن ولو كان زوجها.

في تلك الأثناء نشأت **فوزية** فتاةً صغيرة ذكية ومطيعة لم تخرج عن طوع أسرتها وما يُملى عليها من أوامر أخذتها كما هي بحذافيرها على أنها **قانون** يجب التمسك به في كل حياتها المقبلة دونما تردد ونقاش. ولا حتى تعجب واندهاش إلى أن جاءت فتحية.

ففتحت فوزية عيْنيْها من خلال احتكاكها بها. واسترعت انتباهها إلى أنه يحق لها هي الأخرى أن ترفض كما رفضت فتحية وأن تلبس كما تلبس وتتكلم بطريقة فتحية. فما ينطبق على فتحية لِمَ لا ينطبق عليها؟.. فإن قارنت نفسها وجمالها بها فهي أجمل.. وإن قابلتها من حيث المعرفة والثقافة فهي أفضل من فتحية معتمدة على نفسها.

حتى أنها تفوقت في الشهادة الابتدائية.. كطالبة منتسبة وليست منتظمة فأحرزت موقعاً متقدماً بالامتحان. وإن كانت بالنَسَب فإن أباها الأستاذ صالح لا يقلُّ علماً.. فهو يتقن اللغة الإيطالية.. وحائزٌ على شهادة بالمراسلة ويتمتع بوظيفة في الضمان الاجتماعي.

العكارية والعقرب

قال الأستاذ **عثمان** السوداني معلم اللغة العربية والدين.. في إحدى لقاءاته بالفريق الاعلامي بالمعهد القائم بتحرير الصحيفة الحائطية (الشروق) وبتقديم فقرات الإذاعة المدرسية.. أن **مصادر المعرفة** للطالب خمسة هي: 1)الحواس 2)العقل 3)الإدراك 4) التقاليد.. و5)العمل أي (الخبرة في الحياة). فإذا أراد الطالب أن يستقي معرفةً جيدة واطلاعاً متفتحاً وصحيحاً فعليه بأن ينهل من هذه المصادر.

وشرح حديثه قائلاً: **فالحواس** هي المرشد المهم للطالب منذ نشأته بمرحلة الطفولة فهو يرى ويسمع ويتذوق المعرفة تماماً كما يتذوق الطعام والشراب.. ويسمع الكلمات والأحاديث ويتأثر بها ويقلدها أو يغرسها في ذاكرته وكذلك يلمس المعرفة والمعلومات بحواسه تماماً كما يلمس الناعم والخشن والبارد والساخن من الأشياء. أمّا **العقل** فهو المصدر الثاني للاطلاع والمعرفة وهو منبع التفكير في الطالب.

ثم يأتي دور **الادراك** المباشر.. وهو أعلى درجةً من العقل.. كشكلٍ مستقل من أشكال التعليم الذاتي للطالب. حيث يبدأ في استنباط ما لم يعلمه من قبل واستنتاجه واستخراجه من العلم الأسبق. ثم تأتي **التقاليد** التي خلّفها الأجداد من تراث ثقافي كاللغة والدين والأخلاق. فهي مصدر آخر ومهم من مصادر المعرفة للطالب. وبعد هذا كله يأتي دور **العمل** المتمثل في الخبرة التي يكتسبها الإنسان بالممارسة.

وقال الأستاذ عثمان: عليكم بأن تكون المواضيع التي تقدمونها عبر الإذاعة المدرسية والصحيفة الحائطية لها صلة قوية بحياة الطالب العلمية والمستقبلية بحيث ينشأ نشأة صحيحة كما تنشأ النبتة وقد تحصلت على تربة جيدة وهواء نقي وسماد مناسب وماء صافي. فلا تكثروا من فقرات الهزل واللهو واللغو وإنما أن تكون كالبهارات..!

وقال الأستاذ عثمان علينا أن ننتقل شيئاً فشيئاً من التعليم بالتلقين والحفظ إلى التعليم بالدراسة والبحث.. فما يجري بمدارسنا ليس هو "**دراسة**" بل تلقين وتحفيظ. فالدراسة تعني أن يبحث الطالب عن المعلومة **بنفسه** وبفكرِهِ لا أن يجدها في الكتاب جاهزة كأنها أكلة مطبوخة محفوظة في الثلاجة أو الدولاب. فالأفضل له أن يقوم بإعداد الوجبة بنفسه وبدرايته.. على أن تتوفر له المواد والعناصر والآلات اللازمة لتجهيز وتحضير تلك الوجبة. وهو أمرٌ ليس من عالم الوهم والخيال .. وإنما هو واقع ملموس في مدارس الغرب..!

وهكذا يتعلم الطالب كيف يعتمد على نفسه ويثق بقدراته وكيف ينمّيها ويجعلها مدركةً واعيةً ومستقبِلةً للمزيد من العلم والمعرفة.

ويصبح دور المعلم حينها مرشداً موجِّهاً ومشجِّعاً أو كأنه المستشار الذي يستعين به الطالب في أي مسار يمضي فيه ويستمر. كما يجب على الطالب أن يعلم أن لكل ما يريد أن يتعلمه أهدافاً وتكويناً وطرقاً ووسائل ومحتوى. فالهدف من أي شيء هو ما يُرجى تحقيقه.. فإذا أردت أن ترحل بالسيارة لكي تصل إلى مقر عملك. فعملك بهذه الرحلة هو هدفك. والتعليم ليس هدف في حد ذاته وإنما هو وسيلة للوصول إلى أهداف ومنها الحصول على معلومات مفيدة ومهمة في حياتنا ومن الأهداف أيضاً (وليس الغاية) النجاح في الامتحان والرقي إلى درجة أفضل مما كنا سابقاً. وحين يواجهنا سؤالٌ في الامتحان عن أمرٍ أو شيء ما.. فهدفنا هنا أن نراجع معلوماتنا مما درسناه ومما فهمناه واحتفظنا به في الذاكرة.. لكي نصل إلى هذا الهدف المرحلي المؤقت ولا نقف عنده وكفى. بل ومنه ننتقل إلى أهداف أخرى أهم وأكبر تفيدنا في المستقبل. أهداف مبنية على بعضها البعض وبينها صلة تربطها. فنحدد لكل هدف خطة ومدة زمنية لتحقيقها.

حدث تقارب بين الأستاذ عثمان والمعلم التونسي.. إذ جمعهما أكثر من لقاء معاً ومع الفريق الثقافي من طلبة المعهد ولاحظنا أن بينهما توافقاً واضحاً في الرأي والتوجه يرقى إلى درجة الاعجاب المتبادل..! وبدا لنا أن عجلة التعليم ومستواه في السودان وتونس متقدمة عنا وعما هو متوفر لدينا من اهتمام من قبل وزارة التعليم أو من واضعي المناهج. فلا علم لنا بمسألة الدراسة والبحث بل تعودنا فقط على التلقين والحفظ. لإحراز أفضل الدرجات في الامتحان لكن سرعان ما ننسى ما تعلمناه ولا نجد أي مجالٍ لتطبيقه في حياتنا اليومية.

ولاحظتُ أن الأستاذ **خالد** - معلم الأحياء - يختلف في مادته عن أي أستاذ آخر. فهو يضع لنا الحصة في قالبٍ قصصيٍّ أو بصيغةِ حكاية. لكي يشدنا إليه وإلى الموضوع وأهميته. فمثلاً ينبِّهُنا إلى أننا يجب ألا نكتفي بأنّ النحلة تنتج العسل فحسب. وإنما لكي نكتشف ما لديها من دقة وجهد وإتقان في عملها رغم كونها حشرة. وما تبذله من صبر وعزيمة ومثابرة حتى تتمكن من إفراز وإنتاج مادة رائعة وفريدة من نوعها في الطبيعة أي "العسل".. والذي لا مثيل له في صفاته. بل أن ننظر إلى ما هو أبعد من ذلك.. أي إلى كيفية تنسيق وتنظيم العمل داخل الخلية وكيف يقوم سكانها بأعمالهم دون رقيب وحسيب.

بل كل فرد له دوره ووظيفته فلا يتدخل بشأن غيره ولا حاجة لغيره بأن يراجعه أو يراقبه أو يعاقبه ويستبدله. ولكي يوجه تفكيرنا إلى أنّ العمل بالخلية مهمة جماعية لا تتوقف على فرد واحد.. وإنما تحتاج لتعاونٍ جماعيٍّ مستمر ومخلص وتنسيقٍ دقيقٍ للفريق.. عنوانه الدقة والإخلاص والثقة والاختصاص. حتى ينجح العمل.. وتتحقق المهمة وتعطي أفضل النتائج. فهي **قدوة حسنة** لمن يريد أن يتقن عمله ويتفوّق بجهده.. ولا يعترف بالغش أو بالكسل.

تلك **الرؤية التربوية** في طريقة الأستاذ **خالد** لم أجدها لدى بقية الأساتذة بنفس القدر والقيمة. رغم علمي في سري بأنه كان يعاني من خللٍ في أسرته وزواجه. لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون متفوقاً في عمله ومهنته. فكان في بعض الأحيان يصوّر لنا كيف أن الطائر رغم حزنه وألمه ورغم قسوة الطقس يخرج باحثاً عن رزقه ورزق فراخه. فلا يتوقف عن البحث حتى يجده ويعود إلى العش بذلك الصيد - وهو جائع - لكي يُطعم أطفاله ويطمئن عليهم أولاً.. ولا يضع في جوفه شيئاً مما اصطاد حتى يتأكد من أنهم شبعوا بالفعل. هكذا تكون التضحية من أجل الأهل والأولاد. وهكذا يكون الإيثار عن النفس وهكذا يكون كبح رغباتها.. وهكذا يكون التعامل الراقي..!
هذه هي طريقة الأستاذ خالد في شرح مواضيع مادة الأحياء وربطها بواقع الحياة وأخْذِ دروسٍ وعِبرٍ منها تفيد الطالب وتجعله يفهم ما في المنهج من أهداف وأفكار ولا يقتصر فقط على حفظ المعلومات السطحية كما هي.. دونما تدبّر واستنتاج وإدراك لمحتواها العميق.

ولهذا السبب شدنا الأستاذ خالد إليه طوال الحصة وشعرنا كأننا في قاعة سينما نتابع فيلماً مشوّقاً وممتعاً للغاية ثم أنه زيادةً في الحرص اعتاد على رسْمِ موضوع حصته بالطباشير الملون على السبورة.. في لوحةٍ فنيّةٍ رائعة كنا نتمنّى ألا نمسحها من على السبورة. وكنا نحس فعلاً بأنه يبذل معنا جهداً صادقاً ومثمراً للغاية على عكس الحصص الأخرى التي كنا نجدها جافة ركيكة وكأن عليك أن تبتلع حفناتٍ من الشعير والحبوب كما هي من دون طحنٍ أو تحميص شئت أم أبيت.

أما الأستاذ خالد فكان ينقّي الشعير وينظّفه من الشوائب ويطحنه ويحمّصه ويعجنه ويُعِدُّ منه أكلةً شهية سهلة الهضم زاهية المنظر عبقة الرائحة تأكلها وأنت تشتهيها برغبة.. وتودّ لو أنّ منها المزيد.

هكذا كان الأستاذ خالد يفكّر ويحضّر قبل أن يقف أمامنا بالفصل.. وكنت في قرارة نفسي أحسُّ بأنه ظل يسعى من وراء ذلك الجهد إلى أن يُرضي الله أولاً.. ثم لكي يسهّل علينا مشقة الدروس وما تتطلّبه منا من استيعاب واستنتاج وتدبّر وتمعّن لأن العلم لو أخذته كما هو فستجد فيه مشقة وعناء وكأنك تُجبر على أن تأكل قطعةَ لحمٍ نِيِّء. أما حين يُقدِّمُ لك ليّناً في قالبٍ شهيٍّ فستُقبل عليه وستجد نفسك مشدوداً إليه وإلى أسراره. وتلك مهمّة صعبة.. لا يقدر عليها إلا من أوتي حظاً كبيراً من الذكاء والخبرة وبُعد النظر والقدرة على التبسيط والتطويع والتشكيل. أي بأن يكون **فناناً** يُحْسِنُ تشغيل أدواته.. و**عالماً** يغوص في أعماق علمه ومعلوماته.. ثم **طبّاخاً** يتقن وضع المقادير وكيفية طبخها لكي يصبح **معلماً** ماهراً يكسب العقول.

ولا أعتقد أن تلك الخاصية التي تميّز بها الأستاذ خالد جاءت هكذا في سياقِ إعداده كمعلم في معهد المعلمين وإنما تستند على موهبة متأصلة فيه ورغبة قوية وإرادة عميقة في أن يؤدي رسالته أداءَ لا يقتصر على القشور بل "يبحث" عن المحتوى العميق ليستخرجه.. ويتمعن فيه ويتدبر ويعدُّ منه لوحة فنية معبرة على السبورة سواء أكانت زهرة أم حيواناً أم جهازاً من أجهزة الجسم بألوان وخطوط بها ذوقٌ وفنٌ وتقريبٌ للواقع. ثم ينظر في فلسفة ذلك المحتوى ولماذا أوجده الله الخالق الباري بتلك الصورة وذلك الكيان. فالله سبحانه لا يخلق شيئاً عبثاً وإنما لحكمة وقصد. فقد قال لنا الأستاذ خالد أن الله خلق الثعبان والعقرب ليس لتسميمنا وقتلنا وإنما لأن لهما مهام ووظائف في الطبيعة فلا غنىً عنهما. كأي مخلوق آخر. وكذلك حين خلق سبحانه البكتريا والفيروسات والحيوانات المفترسة لحكمة !!

بهذا جعل الأستاذ خالد لنا من مادة الأحياء مجالاً فسيحاً للتدبر..!

وفي لقاءٍ آخر للفريق الثقافي مع المعلم التونسي.. قال لنا ما معناه.. أنه معجبٌ بطريقة الأستاذ خالد في شرح وتبسيط مادة "الأحياء". وهو يعتقد بأن ما رآه في نظام التعليم الفرنسي لا يدل على أن أهل الغرب عباقرة ونحن هنا قرودٌ أغبياء.. غير أنّ الفارق بيننا وبينهم: أنهم يدعمون الطالب الفاشل ويساندونه ويشجعونه حتى ينجح .. بينما نحن نحارب الطالب أو المواطن الناجح حتى يفشل. هذا هو الفارق بين سياستنا وسياستهم. فتُخلق لديهم العقليةُ المتفتحة.. المبتكرة المتطلعة للبناء. في حين ننتج نحن عقليةً بائسةً هدامة !

وكان المعلم التونسي في تلك الأثناء وهو يحاورنا - من شدة انفعاله وحسرته وآلامه- وهو يقول هذا الرأي.. يعرق بشدة ويحمرُّ وجهُهُ ويزيح نظارته عن عيْنيْه المتورمتين المرعبتين - وهو ما لا يفعله إلا نادراً ولكن لبرُهة قصيرة ولكي يمسح عنهما العرق ثم يغطّيهما. وقال أيضاً أن المواطن الغربي هو "ابن الدولة" قبل أن يكون ابن أبويه.

إذ يضع الخبراء المتخصصون له خططاً واستراتيجياتٍ قبل أن يولد ليجدها جاهزة له قبل أن ترضعه أمه أو يحميه أبوه ويطعمه.. على أساس أنه لبِنَةٌ جديدة ومهمة في المجتمع. ولذا وجب أن تتم عملية نموه وتطوره بصورة رقابية دقيقة وصارمة ليغدو فرداً متمكناً واعياً لكلِّ حقوقه الشخصية وواجباته تجاه مجتمعه لا أن يُترك للظروف المحيطة تشكِّلُهُ كيفما يشاءُ الحظ في مهبِّ الريح.
أما لدينا فإن الظروف تنحت جبين الطفل بالشقاء والبلاء والعناء.. دونما أي خطة تحتضنه أو منهجٍ يوجههُ أو مستقبل ينتظره.. فلا يجد سوى فراغاً وطلاسم وأحداثٍ مفاجئة وأبواباً مغلقة وحرماناً.. فيُصاب باليأس ويبحث عن البديل. فلا يجد من سبيلٍ إلا أن يهرب من حضن ذلك الشوك المؤلم إلى حضن الغرب البارد المنكر.

نشأتُ مع **فوزية** بقريتنا فكنا متقاربيْن بالسن ومتجاوريْن بالسكن. ومنذ أنْ عرفتُها ونحن طفليْن صغيريْن لم تغب عن ناظريْ.. إن لم تكن في الحقيقة ففي الوجدان. فكنا نلعب معاً ونتشارك الحلويات معاً ولا يستمتع الواحد منا بلعبةٍ إلا إذا فرحنا بها معاً.. أو بقطعةِ حلوى إلاّ إذا اقتسمناها. وكان أهلنا لا يرون في ذلك أيَّ حرجٍ أو خطأ بل كانت أمي كلما أرادت أن تطعمني شيئاً مما تطهو. تقول لي: *اعطِ منها لفوزية*. وكأن فوزية ابنتها الغالية عليها. وعِشتُ مع أمي وحيداً إلى أن أنجبتْ أخي **سامي** وبعد وفاة الوالد فقدتْ أمي بصرها فنشأتُ وسامي لنكون عينيْها اللتيْن تُبصر بهما كما ظلت تقول. وكانت فوزية قريبة منها فلا يمر يومٌ إلا وتحضُنُها فيه.. وتعطف عليها وتحبها وتفرح بقدومها. وكانت فوزية في نظري كالغزال أو الملاك خفةً ورقةً وجمالاً ونعومةً. وكان صوتها جميلاً ليس فيه بحّةٌ ولا خشونة ولا نشازٌ أو صراخ. فلا هو بالخافت ولا هو بالمفزع.. وكانت من الذكاء والفطنة بحيث أنها أتمت الشهادة الابتدائية كمنتسبة.. فلم يُسمح لها بالذهاب إلى المدرسة إلا في يوم الامتحان فنجحتْ بتفوق. ولم يكن لها أخٌّ أو أختٌ إلا **خالد** الذي أصبح أستاذي فيما بعد.. وكان خالد أكبر منا بنحو ست سنوات. وقد اعتاد أن يراني أدخلُ بيتهم لألعب مع أخته أو لكي أناديها أو لتوصيل "البريد" بين أمي وأمه.

ولهذا السبب كنتُ أقرب زملائي من خالد حتى بعد أن تخرّج وصِرتُ أعرفُ عن وضع حياته تفاصيلَ كثيرة لا يعلمها أحدٌ بمثل ما أفعل.

وفي عمر المراهقة لم أعد أقابل فوزية كما كنتُ في الماضي فحُجبتْ عن الخروج سافرة. وصارت حين تفتح لي باب البيت تغطي شعرها بحجاب. وظلت تكلمني وتبادلني الأحاديث والأخبار المقتضبة بعلم أهلها. وحينما كانت تخرج.. ترتدي البيشّة السوداء على وجهها.

ولم يجد عمي صالح ولا زوجته **سكينة** أو خالد أي حرجٍ أو مانع في أن أزورهم في أي وقت من النهار ما دامت هناك ضرورة لذلك. فهم يعرفون أنني كنت أختلف عن بقية الصبيان بالحي في الأخلاق. وكان عمي صالح يعتبرني بمثابة ابنه الأصغر ويفتخر بي لأدبي واستقامتي. كما كان يطلب مني أن أساعد ابنته فوزية في مذاكرة الدروس لأنه لم يسمح لها بزيارة المدرسة.. ولكنه لم يمنعها من أن تتعلم في البيت.

وكانت ظروفهم المادية قريبة من ظروفنا فقد مات أبي ولم يترك لنا ثروة من الأموال وإنما ترك بيتاً شعبياً ومعاشاً ضمانياً وأسرةً سعيدةً متضامنةً.. ليس عليها ديون ولا في أخلاقها وسمعتها شكٌّ وريبة.

ونشأ بيني وبين فوزية ما يشبه الوعد أو الأمل.. بأن يبقى الواحدُ منا مخلصاً للآخر وربما يحالفنا الحظ فنتزوج ونعيش سعداء.. كما كنا نحلم.. فنلعب لعبة العروس وهي تُزفُّ لعريسها الذي ينتظرها على ظهر حصانٍ عملاق أبيض ليطير وينطلق بهما بين السحب.. حيث تنتظرهما جنةٌ من جنان السعادة الأبدية يقضيان هنالك وقتاً ممتعاً ثم يعودان بعد حينٍ إلى الأرض ليعيشا بين الأهل والأحباب. ثم بعد أن وصلنا سن المراهقة وقلّت زياراتي لهم ولم أعد أرى فوزية إلا في لحظات قصيرة بِتُّ أسمع من أخي سامي بعضاً من أخبارهم خاصةً بعد أن تزوج خالد فعرفتُ كيف أنه صار يعاني من مشاكلَ بينه وبين زوجته وكنتُ أتعجّبُ شديدَ التعجب كيف كان الأستاذ خالد يبدو لي في المدرسة غير خالد الذي أعرفه في بيته.. وكأن له شخصيتيْن..! فاستطاع أن يفصل بين حياته المهنية في المدرسة وحياته الأسرية في البيت بقدرة غير عادية وكفاءة نادرة ولا أحدٌ يصدّق أنه في أزمة أسرية وهو يراه يقوم بأداء واجبه في الحصة أفضل أداء.. فلم يقصّر في هذا الواجب أبداً بل قام به على أفضل وجه ممكن..!

وكأنه خُلق لكي يكون معلماً لمادة "الأحياء" بالذات. وكان يحثنا على أن نحذو حذوه في رسم وتلوين مواضيع حصة الأحياء.. وتلخيصها في قالب قصصي مشوق لترسخ في أذهاننا - كما كان يقول. ولكننا لم نكن نملك الموهبة لذلك كالتي يتمتع بها هو. فإلى جانب الإتقان في الرسم كان سريعاً بصورة لافتة للنظر. فهو رسّام موهوب بالفطرة..! وكان السائد بيننا في جيلنا أن الرسام الموهوب أقلُّ ذكاءً من غيره في العلوم والمعارف والمجالات الأخرى.. ولكنّ خالد لم يكن كذلك..!

نشأتُ وأنا أحمل -بداخلي- الإعجاب بخالد والإشفاق عليه في نفس الوقت. فبقدر ما كان موفقاً ومتميزاً في عمله ومهنته وسُمعته كمعلم كان تعيساً مهموماً بحياته الأسرية والنفسية.. وكان لا يبوح بمشاعره تلك وبما لديه من صراع نفسي متفاقم لأحدٍ من الناس. لكنني بحكم علاقتي بأسرته أي بوالده ووالدته وأخته وزياراتي شبه اليومية لهم.

كنت أعلم ربما أكثر مما يعلمه بقية الجيران عن خالد. فعمّي صالح اعتاد أن يطلب مني أن أساعد فوزية في مراجعة المسائل والنصوص التي كانت تُقبل عليها بجدٍ وإخلاصٍ ومثابرة. حتى وإن كانت بعدي في المنهج بعامين. كما كانت خالتي **سكينة** تُرسل معي ما أنجزتْهُ من خبز وحلويات وطاجين سمك إلى الفرن. ولا تنسى أبداً أن تستقطع جزءً مما صنعتْ لأحضره لوالدتي التي لم تعد تقوى على ذلك.. بعد أن فقدتْ البصر. بل إن خالتي سكينة كانت تصر إصراراً على أن تكلّف ابنتها فوزية بأن تقوم مرةً في الأسبوع على الأقل بمساعدة أمي في تنظيف وترتيب بيتنا.. بالرغم من أنني كنت أقوم بهذه الشؤون بالتعاون مع أخي الصغير سامي.. لكنهم كانوا يقولون" ليست الأنثى كالذكر في هذه المسائل". لكي يقنعونني أنني مهما حاولتُ فلن أفلح كالمرأة في التنظيف والترتيب. وكنت بداخلي أرحب بذلك..!

لم يكن عمي صالح يملك سيارةً.. ومنْ يملك سيارة في ذلك العهد؟! ولكنه كان بالإضافة إلى عمله بالضمان الاجتماعي وفي المعهد كنت أراه يقود سيارةً شاحنةً صغيرة نوع بيجو 404 تُسمّى *العكّارية*. ولا أعلم من أتى ذاك الاسم؟ لكنّ عمي صالح كان ينطلق بها كما ينطلق الصاروخ بصوتها الهادر ودخانها الكثيف واضطراب جناحيها بصورة كانت تدعوني إلى الضحك.. فلم أر آنذاك سيارةً مثلها. وعرفتُ فيما بعد من فوزية أن عمي صالح يعمل سوّاقاً على العكارية.. ليوصل الخضار لدكان علي الجبالي وأكياس الدقيق للفرن وصناديق السمك إلى السوق في الصباح الباكر. كما كانت خالتي سكينة تقوم بتجهيز الحلويات للعائلات القريبة في المناسبات المختلفة. وقد كانت تتقن فن الطهو الحلو والمالح -كما كان يُقال- بكل أنواعه وبقدرةٍ فائقة.

وكنت أرى خالد في طريقة مشيّه ولباسه واعتنائه بمظهره في قريتنا. كالغزال الذي يعيش في بيئة صحراوية قاحلة موحشة. إذ كان طريق القرية الرئيس ترابياً لم يحظ بالترصيف بعد.. كما لم تكن فيه أو في تفرعاته أيُّ شجرة سوى الهندي "التين الشوكي" الذي ينمو "بعلي" -كما كان يقال- عشوائياً وبلا أيّ اهتمام يُذكر. بينما كانت الأشجار المثمرة تحف القرية هنا وهناك في مزارع محيطة بأسوار الهندي.

وكانت قريتنا مشهورة بالعقارب حتى أنني نلتُ حظي منها وأنا طفلً صغير ألعب في الطريق بعربة صنعتها بنفسي تتألف من سلكٍ قويٍّ من الحديد متبّثُ في نهايته علبة طماطم فارغة من الصفيح. وكنت فخوراً بما صنعت فصرت أستعرض في الطريق إلى أن دخلتْ قدمي تحت ورق مقوى كان الجزار يستخدمه لبيع اللحم. فشعرت بوخزة ثم رأيت كائناً له مخالب صغيرة وعرفت فيما بعد أنه **العقرب** وأنه يهدي سُمَّهُ لكل من يسلّم عليه ويقترب منه فما عدت أقترب منه!

الفجيعة الخديعة

لم أصدِّقْ ما رأيت.. أيُعقل أن يحدث هذا؟ كيف ولماذا!؟ لم أعُدْ أفهم شيئاً. تمّ القبض على **خالد**. وقفتْ سيارةُ شرطة يقودها سائق ومعه ضابط ورجلان آخران مسلّحان. بصباح يوم الجمعة بالقرب من بيتنا وكنتُ كعادتي أكنس أمامه.. فسألني أحدهم: *وين حوش عمك صالح*؟ فأشرتُ خائفاً بإصبعي إليه.. ولم أقل شيئاً.. فطرقوا الباب بقوة ثم دخلوا بعنف حينما فتحت فوزية. وبعد حين خرجوا ومعهم خالد مقيّدَ اليديْن مُطأطيء الرأس.. فأدخلوه في تلك السيارة وانطلقوا به كالريح لم أفهم شيئاً فاقتربتُ من الباب فوجدتُ الأسرة يبكون: عمي صالح جالساً على الأرض بدا في شبه إغماءة.. وخالتي سكينة تبكي وتضرب بيديْها على وجهها وكتفيها ورجليها. أما فوزية فقد انزوتْ في ركنٍ من الصالة وغمرتْ رأسها بكفيها تبكي. ولما رأتني اقتربتْ مني وقالت: *إنهم ألقوا القبض على خالد وكانت معه حقيبة ففتحوها أمامنا وإذا بها مخدرات.. يا للهول. أيُعقل أن تكون لخالد أي علاقة بالمخدرات*. واقتربْتُ من عمي صالح فأشار عليّ أن أقفل باب البيت وأبقى بجانبه. ثم انتبهتُ لخالتي سكينة فوجدتها تُولْول وتقول: *يا ويلي.. وليدي مظلوم. شن جابله هال بلي..*!؟ لم أفهم شيئاً مما أرى. أسرةٌ طيّبة تقيّة مكافحة. كيف يتبدل حالها هكذا؟

وخرجتُ فبلّغتُ أمّي بما رأيتُ وسمعتُ. وبأنني سأمكثُ بجوار عمي صالح فلعله يحتاجني بجواره. وحين طلبتُ منه أن يذهب معي إلى صلاة الجمعة كالعادة. قال لي أنه لا يستطيع فذهبتُ بمفردي وبعد عودتي أعطتني أمي الغذاء لكي أنقله لأسرة عمي صالح.. فتلقّفتْهُ مني فوزية ولم تعلّق بشيء.. وهي تعلم أن أمي كانت تستطيع أن تطبخ بمساعدة أخي سامي.. بكفاءة جيدة رغم أنها عمياء.

أعربتْ خالتي سكينة أمامي عن دهشتها واستغرابها الشديد كيف أنّ ابنها يتاجر بالمخدرات. ابنها المعلم المشهور بالسمعة الطيبة ليس فقط في قريتنا بل وفي أنحاء المدينة وبين كافة المعلمين بالمدارس والمعاهد الأخرى هو في الحقيقة تاجر مخدرات؟!.. أما زال الناس سيثقون به كمعلم لأولادهم؟ ويثق المعهد في توظيفه فيه؟! وماذا جرّه لأولاد الحرام وجعله يتاجر بالممنوعات مثلهم؟ فلا هي بصنعة أبيه ولا أجداده. يا لها من خيبة أمل ! ويا له من حظ تعيس في هذه الدنيا! كيف ستُلاقي النساء في القرية؟ كيف سيثقون بأنها سوف لن تضع لهم من تلك المخدرات في الحلويات التي يكلفونها بصنعها في المناسبات والأعياد؟ أما تزال تملك قدراً من صحة الوجه لتقابلهم؟

يا ليتها ماتت قبل أن ترى هذا اليوم وتشهد ابنها مقيداً بالسلاسل.

هكذا ظلت خالتي سكينة تلوم وتتعذب.. وهي تُفرغ ما بصدرها من همٍّ وغمٍّ وفجيعة. ولم تكن تستطيع أن تسكت وبجوارها زوجها وقد ألمَّ به الحزن ولم يعد يعرف كيف يتصرف وماذا يقول.. عمي صالح ذلك الرجل الحكيم الوقور المكافح صار كالجثة الهامدة يكاد لا يتنفس ولا ينطق بكلمة.. فمن المؤكد أنه يشعر بالصدمة في ابنه الذي ربّاه أحسن تربية وأشرف على تعليمه وتأهيله فغدا من أشهر وأنجح المعلمين لمادة الأحياء في مدارس ومعاهد طرابلس.
فكيف لا يُصدم عمي صالح وهو يرى ابنه المتفوّق وهو يُقادُ من قِبَلِ الشرطة بيديْن مُقيّدتيْن للتحقيق وربما إلى السجن؟ فما مصير زوجته وما مصير مهنته وكيف سيستأنف حياته؟! إن كان له نصيبٌ في حياةٍ جديدة غير هذه التي عاشها؟ هل سيكون ذليلاً مُحتَقراً بين الناس وقد خُدِعوا فيه وظهر على حقيقته بأنه تاجر مخدرات؟ يا له من مصير.. ويا لها من خيبة أمل. و لم أكن أصدّقُ ما حدث..!

جلستُ عدة مرات بجوار عمي صالح وهو مُسْتلْقٍ في فراشه لا ينام ولا يفيق من هول الصدمة. ولم يعد يريد أن يأكل أو يشرب مهما كنا نحاول معه أنا وفوزية وخالتي سكينة.. بل كان فقط يكتفي بقطرات الماء يبلّلُ بها شفتيْه ولسانه والذي بدا متشققاً كأنه قطعةُ الخشب الجاف المطلي بطبقةٍ من الجير. فحاولتُ أن أقنعه بأن يخرج معي.. إلى شاطيء البحر الذي كان يحبه ويستريح بالجلوس إليه. فرفض.

وقالت لي فوزية أنها قد زارت خالد في الحبس مع عمِّها. فبدا صامتاً لا يريد أن ينطق بكلمة ومن المرجّح أنه سيُحال للنيابة بالغد وقال المحامي أن الأدلة واضحة بأنهم وجدوا عنده كميةً من المخدرات.

بل وأن هناك شخصاً شوهد من قبل الجيران.. وهو يأتي ويروح منذ أيام بتلك الحقيبة الرمادية التي وجدوها عند خالد.. حينما قبضتْ عليه الشرطة متلبِّساً بها في بيت أبيه حيث كان يخبؤوها كما اعترف. في غرفة تخزين المواد الغذائية من دون علم أبيه وأمه وأخته.

وقالت فوزية أن زوجته قد ذهبت إلى بيت أبيها ولم تشأ أن تعيش معنا كما أن الوضع ينبيء بأن خالد سيتلقى حكماً بالسجن - كما قال المحامي. وأن مدة السجن تتراوح من عامين إلى خمسة أعوام. نظراً لتخزينه للمخدرات منذ مدة غير محددة. وقد ألقي القبض في نفس تلك الفترة على شخص مشبوه من الجيران يقال أنه أبله أو متخلف عقلياً ويُسمّى "**كيف راضالله**". وكان يتاجر بالمخدرات منذ أعوام.

ولم أصدق ما سمعت حين أبلغتني فوزية بذلك.. لأنني كنت أعرف هذا الشخص وإن لم تكن لي به علاقة.. ومن لا يعرفه في قريتنا؟! ولكنني لم أتوقع في يوم من الأيام أن تكون له دراية أو صلة بمسألة المخدرات أبداً.. ثم سألتُ عنه فقيل لي أنه اختفى فجأة.

لا أحد يدري إلى أين مضى "كيف راضالله".. وكيف اختفى بعد أن كان يعيش في الشوارع والأزقة والطرقات بقريتنا أو بالقرى الصغيرة المجاورة لا يؤذي أحداً ولا أحد يؤذيه.. بل الجميع يرأفون بحاله ويتصدقون عليه ويطعمونه ويتحاشونه قدر الامكان إلا إذا احتاجوا له في خدمة أو معونة أو صيانة.. فلم يكن يتأخر ولا يتجبّر..!

وسمعتُ أنه خلال التحقيق معه وقبل أن يختفي نُقل عنه أنه ظل يعتقد أن ما كان يبيعه وينقله "*أدوية وأعشاب طبية*" يُعالج بها أهلُ القرية والقرى المجاورة عن: الصداع والعُقم والفقر وقلة الرزق ولم يعلم أنها ممنوعة ولكن كان يظن أنها ممنوعة على الأطفال فقط.

وذات يوم حدث معي أمرٌ عجيبٌ لم أتوقعه.. إذا طلبني عمي صالح عن طريق ابنته فوزية. فلما دخلتُ عليه في غرفة نومه -وهو بالسرير طلب مني أن أدنو منه بعد قفل الباب بالمفتاح فاستغربتُ وفعلتُ ما طلبه مني وجلستُ بجواره. فأشار عليّ أن أقترب بأذني من فمه فبلل شفتيه بلسانه وهمس قائلاً بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع:
اسمع يا سالم.. نبي نقولك كلام ما تقوله لحد إلا بعد ما نموت..
ففزعتُ وكنت متردداً فشدّ على يدي.. وهو يرتجف وقال هامساً:
خالد بريء.. أني كنت نخزّن فالحشيش أني مش هوّا. ثم أغميَّ عليه ففتحتُ الباب وناديتُ خالتي سكينة وفوزية ونقلناه إلى المستشفى الكبير بعد أن جاء عمُّ فوزية.. فأدخلوه بقسم العناية.. ووجدوا أنّ لديه هبوطاً في السكر وارتفاعاً في ضغط الدم ثم علمنا بأن المحكمة بالنسبة لخالد ستكون في الغد. وفي الغد.. وبينما كنا حاضرين حُكم عليه بألفيْ جنيه غرامة وسنتيْ سجن مع النفاذ. وفهمتُ ألاّ تأجيل! وبعد أيامٍ خرج عمي صالح من المستشفى وقد تحسنت حالته قليلاً فقرر أن يباشر العمل في المعهد والعمل بالسيارة العكارية أيضاً.

واندهشتُ لقراره هذا فبَدَلَ أن يستريح ولو لعدة أيام ها هو يريد أنْ يستأنف العمل ليس فقط في المعهد كمشرف. وإنما أيضاً كسوّاق في ذلك الحر الشديد.. وصحته لا تناسب كل ذلك المجهود.. وهو لم يُشْفَ بعد كما قال لنا الأطباء.. فرجوناه أن يستريح ويأخذ بنصيحة الأطباء ويؤجل العمل على الأقل لأسبوع آخر. فقال لي:

يا ولدي يا سالم عليّ دين. منين بنخلّص الغرامة متع المحكمة؟.. راهو ألفين جنيه مش لعب. خلوني ما تزيدونيش همّ علي همّ..!

وباشر عمي صالح عمله بالفعل في المعهد وعلى العكّارية معاً.. فبدا وجهه شاحباً مصفرّاً كأنه خارجٌ لتوّه من القبر.. وأخذ يمشي مترنحاً متقطع الخُطى هزيلاً منحني الظهر.. ولو اقتربتَ منه لسمعتَه يئنُّ ويتوجّع.. لكنه ظل يكتم آلامه.. ويداه ترتعشان وفمه جافٌّ كما أنّ عينيْه غائرتان. وفي يده منديلٌ يمسح به على جبهته ووجهه والعرق يتصبب منه بلا توقف. فكنتُ كلما أردتُ أن أقترب منه لكي أساعده يقول لي: *حالي باهي يا سالم حالي باهي.. شويّتْ إتعبْ وتوا يمشي* !

وكنت أحسُّ بالقلق والشفقة عليه.. وأتصور كم هو يعاني من تأنيب الضمير ومن السر الذي خصني به وطلب مني ألا أبوح به لأحد إلا بعد أن (...) فصرت أشعر وكأنّ بين ضلوعي صخرةً ثقيلة كالجبل.

وذات مرة سألتُ فوزية عن ذلك اليوم الذي أتت فيه الشرطة لتلقي القبض على خالد. فقالت لي أنّ خالد اعتاد على أن يزورهم صباح كل يوم جمعة فيُحضر معه اللحم أو السمك والخضار والفاكهة.

ويطلب من أمي أن تطهو له *العصيدة بالرُبّ* التي يحبها.. ولم تكن زوجته تحب أن تحضّرها له. وكان يذهب أحياناً مع أبيه لأداء صلاة الجمعة وقد يتغذى معنا أو قد يعود إلى بيته ليتغذى مع زوجته.

في ذلك اليوم حضر خالد على غير عادته مبكراً وكانت فوزية -كما قالت- مشغولة في المطبخ مع أمها ففتح باب البيت بالمفتاح الذي بحوزته فأطلت فوزية من المطبخ حين سمعته يدخل وتوقعت أنّه قد أحضر بعض المؤونة كالعادة لكنْ لم يكن معه شيء. بل بدا جادّاً مهموماً وقالت أنه لم يحيّها حتى بصباح الخير بل سألها عن أبيها فقط ودخل إليه مباشرةً وهو في غرفة النوم مستلقياً بالفراش.
ورجعتْ فوزية إلى المطبخ لتتم شؤونها وأخبرتْ أمها أن خالد حضر لكنه لم يجلب شيئاً معه. وفجأةً سمعت فوزية حينذاك -كما قالت لي- نقاشاً حاداً بين خالد وأبيه فخرجتْ لتستطلع الأمر.. فوجدتهما واقفيْن يتناقشان وبيد خالد حقيبة. وفي تلك الأثناء سمعتْ دقاتٍ عنيفة على الباب.. ففتحتْهُ فأزاحها أحدُ رجال الشرطة جانباً واندفع بقوة وتبعه آخران وراءه فوجدوا أباها وخالد واقفيْن وبيده الحقيبة الرمادية ففتحوها وفتّشوها أمامنا.. فأخرجوا منها أكياساً بلاستيكية سميكة بحجم اليد ففتحوا إحداها على الفور.. ونظروا إلى بعضهم البعض ثم سرعان ما ألقوا القبض على خالد وقيّدوه وخرجوا به ولم يُبدِ خالد أي مقاومة.. كما ظل والدُها مصدوماً مبهوتاً واقفاً..!

هكذا حكت لي فوزية قصة ما رأته في ذلك اليوم. ثم أضافت أنها لم ترَ خالد خائفاً وغاضباً - في نفس الوقت- كمثل ذلك اليوم أبداً. وكان يرتعش من الغضب والخوف وكأنه يتوقع حدوث كارثة. وبالفعل إذا بالشرطة تدخل بتلك الطريقة العنيفة. وتُلقي القبض عليه فوراً. ولم اكتفِ بتلك المعلومات بل أردتُ أن أعرف المزيد عما حدث.

وتمنيتُ أن أُقنِع عمي صالح بأن يستريح ويترك العمل. ولكن بلا أي جدوى. فقد أصر أن يعمل ليسويّ ما عليه من ديون.. وذات يوم طلب مني أن اصطحبه لزيارة خالد في السجن مساء اليوم التالي.

فذهبتُ معه بعد العصر وهو يقود العكارية. وفي الطريق خطر ببالي فسألته بصوت خافت - وكأني أردت ألاّ يسمعنا أحدٌ بالرغم من أننا كنا في السيارة لوحدنا- عما أجبره بأن يقوم بتخزين تلك الأكياس في بيته؟ وهو يعلم بأنها ممنوعة في البلاد. فقال لي أن الدنيا قد ضاقتْ به بعد زفاف خالد وكثرتْ عليه الديون. فذهب إلى تاجر أسماكٍ في المدينة كان يعرفه ويعرف أنه من الأغنياء.. ويوصل إليه أغلى أنواع السمك. فسأله أن يُقرضه بعض المال. فتردد التاجر قليلاً ثم اقترح عليه حلاً أفضل من قرض المال وما في ذلك من التزام وتقيُّد..!

اقتراحاً يضمن له دخلاً مالياً لا تعب من وراءه أبداً. فاستغرب عمي صالح.. وقال له: وما هو هذا العمل الذي لا يعرفه بعد انقضاء هذا العمر كله. يضمن له دخلاً من دون أي تعب ولا مجهود؟ فضحك التاجر وقال له: عمل بسيط.. يأتيك شخصٌ من طرفي عند الغروب في بيتك. ليسلّمك حقيبةَ يد صغيرة تحتفظ بها عندك إلى أن يأتيك الشخص نفسه.. فيأخذها منك في اليوم التالي.. ويقول لك أنّ بها أعشاب طبية لعلاج العقم والصداع وقلة الرزق وسوء البخت.. هذا كلُّ ما في الأمر. فنظر إليه عمي صالح وقال مندهشاً: هذا كلُّ ما في الأمر؟ فأعاد التاجر قوله: هذا كلُّ ما في الأمر. فخرج منه عمي صالح لا يصدّق ما سمعه من كلامٍ عجيب وعاد من حيث أتى. لكنه ظل يعاني من ثقل الدَيْن.. ومرت الأيام فأخذ يرى ذلك التاجر.. وهو يضحك له ويقول: هذا كلُّ ما في الأمر. فرجع إليه ومد إليه بيديْه وقال له: أين صاحبُنا؟ وأين الحقيبة؟! فضحك التاجر.

وأصبح "كيف راضالله" يأتيه يوماً بعد يوم أو بعد يومين ويسلّمه أو يستلم منه الحقيبة.. ولم يكن عمي صالح - كما قال من الشجاعة والجرأة بحيث يفتحها ويتفحصها ليرى ما فيها من أسرار..!

بل كلّ ما كان عمي صالح يفعله أن يُدخلها خلسةً من دون أن تراه زوجته ولا ابنته ولا أيُّ أحد إلى غرفة تخزين المواد الغذائية في بيته. ويبقيها هناك إلى غروب اليوم التالي ويقبض من وقتٍ لآخر خمسين أو سبعين جنيهاً من تاجر الأسماك فتمكّن من خلالها أن يسدد جزءً كبيراً من ديونه وأن يشتري ما كانت أسرته تحتاج إليه من لوازم. لكنّ الشك والظن والخوف ظلوا ملازمين لعمي صالح كلما أراد أن ينام أو يستريح. فلم يهنأ في حياته اليومية. وتوقع أن تهبَّ عليه الشرطة في أيِّ وقتٍ وحين. بالرغم من أن ظروفه المعيشية تحسّنت كثيراً عن ذي قبل ولكن – كما قال- على حساب ضميره وراحته النفسية. بل أكتشف بأن مرض السكر والضغط قد اشتدا عليه أكثر فأكثر.. في الأشهر الأخيرة واجتاحته الكوابيس.. كلما أخذته سِنَةٌ من نوم.

ثم حكى لي عمي صالح عما حدث في يوم القبض على خالد. فقال ما معناه أنه بينما كان مستلقياً في فراشه بعد أن صلى الصبح.. وتناول إفطاره دخل عليه خالد عجولاً مضطرباً على غير عادته فأقفل باب الغرفة من ورائه وقال له وهو يرتعش أن أحداً من أصحابه يعمل شرطياً في قسم التحري أبلغه بعد أن صلى معه الصبح في المسجد. أنّ الشرطة تراقب والده منذ أيام بصورة مستمرة بالليل والنهار.

حتى وصلت إلى الشك بأنّ له علاقةً بتهريب وتخزين وربما تجارة المخدرات وخاصة الحشيش.. وسيُرسل إليه في صباح يوم الجمعة فريقٌ من الشرطة ليفاجئه في بيته ويُلقي عليه القبض إن صحّ الشكُّ فاعترف عمي صالح لابنه على الفور بأنه يقوم بتخزين حقيبة فيها ما لم يره ولكنه يعتقد جازماً أنه من الممنوعات وأنه يتقاضى على ذلك بعض المال. وبينما كان خالد ينوي انتزاع الحقيبة من بيت أبيه ليخبأها بعيداً عنه هجم عليهما فريقُ الشرطة في تلك الأثناء..!

فقال لهم خالد أنه هو من قام بتخزينها والتعامل مع الوسيط الذي لا يعرف شخصاً آخر غيره وهو المسمى :"كيف راضالله". وأن أباه لا علم له بأيِّ شيء عن موضوع الحشيش. وسلّم نفسه للفريق بلا أي مقاومة أو نقاش. ولم يقم عمي صالح بعد هذا بأي إجراء فصدر الحكم ضد ابنه بالغرامة والسجن وبقي هو في سجن العذاب.

ثم اتصل صهر خالد بعمي صالح.. وطلب منه أن يزوره لأمرٍ مهم.. فذهب إلى الشيخ الذي سأله عن خالد وما حدث له ليتأكد. فأكّد له عمي صالح بأنهم حكموا بالفعل على ابنه بالسجن لعامين.. ولم يذكر له أي تفاصيل أخرى عما حدث.. ولم يصارحه بالحقيقة.

فقال له الشيخ أن ابنته تطلب الطلاق الفوري.. وتريده أن يعطيها حقها في الصداق المؤخر.. ومن حسن الحظ أنها ليست حاملاً لأنّه لا يشرفها أن يكون والد ابنها تاجرَ مخدرات.. فتألّم عمي صالح وهو يودّع الشيخ ويعِدُهُ بالإيفاء بكل ما طلب منه.. في أقرب فرصة.

وأثناء زيارة خالد في السجن أُعجبتُ بموقفه تجاه أبيه.. وبأنه ضحّى من أجل سمعة أبيه.. فعرف أنني علمت بالحقيقة من أبيه.. فطلب مني ألاّ أخبر أحداً بها حتى يخرج من السجن.. فوعدته بذلك.

ولم يبدُ عليه أيّ حزن أو غضب.. بل كان مبتسماً هادئاً راضياً بما كتب له القدر من امتحانٍ عسير. وسلّم عليّ بحرارة وشكرني كثيراً على وقوفي إلى جانب أبيه وأسرته.. فقلتُ له أنني أعتبر نفسي أخاه الأصغر في غيابه وحضوره على السواء. فقال لي أنه يكرر شكره لي.

وطلب مني أن أبقى بجوار والده وأكّد لي بأنه هو الآخر يعُزّني كثيراً ويعتبرني كابنِهِ. ثم قال لنا أنّ السنتيْن ستمضيان سريعاً وسيعود إلى سابق عمله إنْ قَبِلَ الشيخ ميلود برجوعه بعد كل الذي حدث..!

فلم أشأ أن أبيّن له بأنّ الأصوات تعالتْ في المعهد وخارج المعهد لتنال منه في غيابه. هل من باب الغيرة أو التشفّي والحقد والحسد.. الله أعلم. وبدا في تلك الأثناء كأنه لاحظ صمتي على وجهي فلم يشأ أن يحرجني أكثر فسكت هو الآخر.. واغرورقتْ عيناه بدمعٍ عزيز..!

خرجتُ وعمي صالح والبسمة مرسومة على وجه خالد وهو يحسُّ بالرضا تجاه أبيه. وبأن رضا الوالديْن أهم وأهون من سنتين بالسجن حتى وإن كان المستقبل بعد خروجه.. لن يكون واضحاً ومشرقاً.
ومرت السنتان ولم أعرف كيف مرّتا بتلك السرعة. إذ فجأةً قالت لي فوزية أن خالد سيخرج غداً. ورأيتُ خالتي سكينة تنتعش من جديد وكأنها نبتة أوشكت أن تذبل وتيبس وقد حُرمت من الماء والشمس والهواء وحين مُنحت الفرصة من جديد دبّتْ فيها مقومات الحياة. فها هي تعدُّ الحلويات والأكلات وتزغرد وتغني بصوتها الخافت ومن وراء عينيها المتورمتين الذابلتين اللتيْن لم تذوقا طعم الراحة والنوم منذ عامين تامين. أما عمي صالح فلم يزده الزمن إلا ذبولاً وتعاسةً. وكيف لا وهو يصارع تأنيب الضمير وألمه المرير وحظه العسير!؟
وفرحتْ أمي لفرح خالتي سكينة وفوزية فرأيتُها تُعِدُّ أكلاتٍ اشتهرتْ بها وأمرتني بأن أوصلها إليهم لتشاركهم فرحتهم بالإفراج عن خالد.. قبل انقضاء المدة المقررة نظراً لحسن السيرة والسلوك. وأحسستُ في داخلي بالسرور يغمر بيتهم وهو يستقبل العزيز الغائب.. فشملني ذلك السرور معهم.. إلا عمي صالح فغالَبَهُ الحزنُ وقلبه يعتصر بأنه كان سبباً في إضاعة عامين من عمر ابنه الفتيّ وإفساد سمعته وربما مستقبله فكيف له بأن يسامح نفسه على ما ارتكب من ذنب..؟!

وفي ذلك اليوم كان عمي صالح على موعد مع عمي **الصادق** البواب الذي يود مشاركته فرحة الإفراج عن خالد وإحضاره من السجن..!

الجنة والنعيم

ركب عمي صالح السيارة العكّارية في ذلك اليوم الممطر وودّعتُه من أمام البيت بإشارة من يدي وأنا في طريقي إلى المعهد بينما النساءُ في البيت يزغردن: أمي خالتي سكينة فوزية ثم لفيف من الجارات جئن يشاركن الأسرة فرحتها بالإفراج عن ابنها.. بعد عامَيْن طويلَيْن كطول الدهر ولم أكن أتصوّر أن ذلك الوداع كان الأخير من عمي صالح وأنّ تلكمُ الزغاريد التي ملأتْ البيت وزيّنته وغمرته بالفرحة كانت الأخيرة في تاريخه.. فلم تمض ساعة بعدها حتى وصلني الخبر الأليم وأنا في المعهد بأن عمي صالح أصيب في حادث سيارة ومات على الفور. ثم سمعتُ أن عمي الصادق هو الآخر قد فارق الحياة في ذلك الحادث.

وما أن اقْتربْتُ من بيتنا.. حتى وجدتُ شارعنا غارقاً في مياه الأمطار.. كأنها دموع الحزن على الفقيديْن. وانطفأت تلك الزغاريد التي تركتُها في الصباح. كما تنطفيءُ الشمعةُ ليتصاعد منها الدخانُ بدل الإشراقة والنور بل هو دخانٌ أسودٌ ثقيلٌ كريهُ الرائحة واللون.. لا فائدة منه.

فلا هو سيعزّينا فيمن فقدناهما. ولا هو يخفف عنا من ألم الفجيعة بل هو يزيدنا ضيقاً واختناقاً وصعوبة بالتنفس. ووجدتُ أمام بيتنا خالد جالساً على كرسي يستظل بمظلة بيتنا عن المطر الغزير.. وهو يرتدي نظارةً سوداء ليحجب بها احمرار عيْنيْه وحزنه العميق.. فما أن رآني حتى وقف وأشار إليَّ بيديه.. فأسرعتُ إليه فضمّني إليه بقوة وبكى بكاءً ما سبق لي وأن أحسست به مرارةً وأسفاً وغزارةً.. بكاءٌ لا يقلُّ عنفواناً عن ذلك المطر الذي لم تشهد له قريتنا مثيلاً من قبل.

وأخرستني الفجيعة فلم أستطع في تلك الأثناء أن أقول شيئاً إلا "ربنا يرحمهم.. ربنا يرحمهم.." وخالد يهتز ويهتز وأنا أشاطره الحزن.

حتى شعرتُ باقتراب أحدٍ ما منا.. فإذا به الشيخ ميلود ومن ورائه كلُّ أساتذة المعهد ورجالٌ آخرون من أهل القرية ففتحتُ بيتنا الذي كنا اتفقنا على تخصيصه لاستقبال الرجال المهنئين بالإفراج عن خالد.. منذ الأمس كما قالتْ أمي واتفقتْ مع خالتي سكينة على ذلك.. بينما بيتها مخصصٌ لاستقبال النساء.. ولكن ها هو القدر يشاء غير ذلك.

ودخل الرجال ليحتموا من المطر الغزير ووجوههم حزينة على فراق الزميليْن. يتبادلون عبارات التعزية والأسف ويشدّون على يديْ خالد أن "اصبر" ففي ذلك أجرٌ عظيم ولكنّ لوعة خالد لوعتان ومصيبته مصيبتان.. بل أكثر من هذا.. غير أن أغلب الحاضرين لا يعلمون عن ذلك قدراً كافياً من الشعور بالابتلاء. فهو يفتقد والده وقبله قد فقد زواجه وفقد من عمره عاميْن مريريْن.. كما أنه لا يعلم كيف سيكون مستقبله بل يرى سحابةً مظلمةً في سماء المستقبل المجهول.

فهل سيقبله الشيخ ميلود ليواصل العمل بالمعهد ويبرر له أنه كان في السجن بسبب حيازته للمخدرات حتى ولو كانت حشيشاً؟! أمْ أنّ هيئة الضمان ستُعارض استئنافَه للعمل كمعلم للأجيال..!؟ وإن أراد أن يجرب حظه في مدرسة أخرى فهل سيجد من يقبله؟ وماذا لديه أن يعمل غير مهنة التعليم.. وفي مادة الأحياء بالذات؟ ولعل بعض أولئك الحاضرين يتصورون قدراً مما يعانيه خالد من عناءٍ وابتلاءٍ وشقاء ولكنهم مهما تصوروا فلن يلِجوا إلى أعماق نفسه المعذبة.. خاصةً وأنه في الظروف الاعتيادية حريصٌ على الكتمان. لكنّ القدور الكاتمة حين تُفتح فجأة فحتماً ستنفجر لتُفرغ ما فيها بلمح البصر. وتلك اللحظة في حياة خالد - على ما يبدو- لم تحِنْ بعد. بل إنه لم يزل يغلي ويغلي.. ويتماسك من الخارج ولعله يظل يتنفس باقتدار وببطء إلى حين.. ثم سوف لن يقدر على الصبر فينفجر..!

الدنيا مليئة بالمفاجآت.. هذا ما خطر ببالي وأنا أسمع بعض الأمور التي لم أتوقعها.. أو من الممكن أن أتوقعها ولكن ليس بتلك الصورة التي سمعتها عنها أو شاهدتها.. فمثلاً سمعتُ لأول مرة بما أدهشني من فوزية أنهم "توانسة" وليسوا ليبيين. فقالت أن والدها أتي إلى ليبيا وهو صبي صغير عبر الحدود في سيارة شاحنة. إذ فرَّ من امرأة أبيه التي كانت تسيء معاملته.. حين كانوا يعيشون في فقر بمدينة **عقارب** قرب صفاقس إذ كان أبوه عاملاً بالأجرة في مصنع **الخزف** وأجبر ابنه ذا الثمانية أعوام على أن يجمع التين الشوكي - الهندي. فأخذ يلتقطه كل صباح ليبيعه في السوق كمورد رزقٍ إضافيٍّ للأسرة. وكانت امرأة أبيه لا تصدّقه بأنه لا يسرق شيئاً مما يتحصّل عليه من فرنكات ببيع التين الشوكي فتضربه وتحرمه من الغذاء في غياب أبيه إلى أن يُخرج ما لديه من فرنكات.. ولم يكن معه شيء ليخرجه.

وأخيراً تمكّن من الهروب فوجد شاحنة تتنقل بين الحدود.. فاختبأ فيها واستطاع أن يعبر الحدود في الظلام من دون علم حتى السائق.

وفي ليبيا لم يكن معه شيء لا طعام ولا لباس ولا أوراق ثبوتية.. ولم يدرِ كيف سيعيش وماذا سيصنع؟ فهو لا يعرف أحداً هنا ولا يعرف صنعة يتقنها ويقوم بها إلا تجميع "الهندي" التين الشوكي. فجاع ثم نام في الشوارع وتعلم التسول ثمَّ قال في نفسه لِمَ لا أقوم بالصنعة التي تعلمتها: أن أجمع الهندي فهو متوفر هنا في كل مكان وتذكّر أنه متوفر في الصيف والخريف. وهكذا بدأ بالفعل يتنقّلُ بين الطرقات الزراعية في كل صباح باكر لكي لا تؤذيه الأشواك الحادة والرفيعة.

غير أنه كان يُفاجأُ أحياناً بكلب حراسة ينبح أو بمزارع يصيح فيهرب ولا يجمع منه إلا القليل وأحياناً يأكله بدل أن يبيعه بسبب الجوع.

وبعد أن قاسى الصبي صالح لأشهر متتالية من الحرمان والخوف.. ومن الجوع والندم وهو تائه في الشوارع وعلى أسوار المزارع.. وقُرب السوق وعلى شاطيء البحر. وجد من يعطف عليه من أهالي المزارع في قرية صغيرة فأخذه عنده وشغّله في تجميع محصول الزيتون تارة وتارة في رعي الغنم والعناية بها وتارة أخرى في ري الحقول الزراعية.

ولم يكن من القوة والخبرة بحيث يستقر في مزرعة واحدة ولا عند مالكٍ واحد.. علاوة على وفرة العمال الأكثر جَلَداً وصلابةً منه.

فعاد إلى الشارع والتشرد وأصبح يرحل من قرية إلى قرية ويقترب من العاصمة التي كان يسمع عنها أنها مدينة كبيرة فيها الطليان والعرب الأغنياء والشوارع الفسيحة والطعام المتوفر في كل مكان. ثم أنه في قرارة نفسه كان يتمنى الانضمام إلى المدرسة كبقية الأطفال.. لكنه لم يستطع.. فالمدرسة ليست للمشردين الحفاة العراة أمثاله. ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً إلا أن يصبر فلعل الفرجَ قريب.. وأخذ يمنّي نفسه بأن يصل إلى تلك المدينة الموعودة الباهرة طرابلس.

وبالفعل تمكن بعد عديد الأشهر من الوصول إلى طرابلس.. فأحبها وفرح بها. إذ لم ير مدينةً في مثل بهائها وضخامتها وجمالها من قبل.

ويذكر صالح وهو طفل متشرد محطّم في تلك الأثناء أنه سمع مطربة اسمها **أم كلثوم** تغني (*صُعُبْ عليّ أنام. أحسن أشوف في المنام.. غير اللي يتمناه قلبي..*) فحفِظ ذلك المقطع الذي أعجبه وحُفر في ذاكرته وظلّ يردده طوال عمره.. بنفس النغمة الشجية..!

وتشرّد الصبي ,***صالح التونسي***, ولم يجد ما يجعله يعيش مستقراً.. ولم يعرف عملاً إلا وقام به.. مهما كان حقيراً. ككنس الشوارع بل وتنظيف المراحيض وفرز القمامة وتقشير الأسماك ذات الأشواك.

وذات صباح سعيد مشرق رأى الصبي **صالح التونسي** رجلاً إيطالياً.. فبدا له أنه مقتدرٌ ومن عليّةِ القوم. حضر إلى شاطيء البحر يريد أن يشتري سمكاً. وكان صالح يساعد أحد صيادي السمك هناك ويرتزق من ورائه بتنظيف السمك وتقشيره وترتيب المكان كما ينبغي.

فرأى أن يعرض خدمته على "**السنيور**" الإيطالي فقال له بالإيطالية: *بوليشي إل بيشي بلفافوري* Pulisci il pesce, per favore وكما تعلمّ تلك العبارة من عرفه[3]: *تنظيف السمك من فضلك*. فأُعجب ذلك السنيور به وبأنّه كلّمه بلغته. وصار يتردد على نفس ذلك المكان بين الحين والحين.. فيجد الصبي صالح مبتسماً نشطاً يعرض خدمته.. فبات يفضّله على غيره من الصبيان.. إذ وجده رغم بؤسه.. بشوشاً مطيعاً خدوماً ويريد أن يتعلم اللغة الإيطالية ويجتهد في خدمته التي يقوم بها فيسارع إلى الشاطيء لكي يُحضر المزيد من الماء المتجدد.. وينظّف السمكات بالماء جيداً بعد إزالة القشور والأشواك والأحشاء لا أن يعطيها للزبون كما هي. ويقول وهو يبتسم بوجهٍ مشرق وبعد أن يتم التنظيف: (*بيشي بوونو إ بوليتو*): إنه سمكٌ جميل نظيف: Pesce buono e pulito فأخذ السنيور يبادله الابتسام ويُعجب به.. وبفطنته وبأنه لا يدقق فيما يعطيه الزبون من مقابل. وليس كبقية الصبيان المشاكسين المجادلين. بل كان كلُّ همِّهِ رضا الزبون وكسبُهُ في أن يعود مجدداً. وهكذا تولّدتْ بين السنيور والصبي صالح صلة. وبات السنيور **ألبيرتو** -كما عرف اسمه لاحقاً- لا يشتري السمك إلاّ منه ومن عَرْفِهِ. وتدريجياً رقّ قلبه له ورأف بحاله.. وانزوى به ذات مرة جانباً. وقال أنه يريده أن يعمل عنده في منزله وحديقته.. فلم يصدّق صالح ما سمعه. حتى أعاد له الاقتراح لأكثر من مرة..!

[3] عَرْفي (بفتح العين وسكون الراء): شائعة في طرابلس بمعنى المشرف على عملي !!

فوافق صالح وأشرق وجهه وهو يهز رأسه في فرح وسرور.. ولعلها المرة الأولى في حياته التي يفرح فيها بذلك القدر.. وقال: *كواندو*؟.. *متى*؟ فضحك السنيور ألبرتو وقال: Subito *حالاً*. فطلب صالح منه أن يعود إليه بعد ساعة ريثما ينظف المكان ويُنهي عمله ويسلَم على عرفه ويودّعه فوافق السنيور ألبيرتو. وبعد ساعة حضر ليأخذه. ولم يكن معه إلا كيسٌ من الخيش يُستعمل لعلف الحيوان.. فطلب منه السنيور أن يريه محتواه فوجد فيه بعضَ الثياب المرقّعة المُهترئة.. وقليلاً من الخبز اليابس ولا شيء غير ذلك. فطلب منه أن يرميها في القمامة.. فاستغرب صالح. فقال له: عندي لك ملابس أفضل..!

هكذا انطلق الصبي صالح التونسي إلى مغامرة جديدة ولم يكن يعلم أنها سوف تُغيّر مجرى حياته كلها.. فجلس بجوار السنيور ألبيرتو في المقعد الأمامي بتلك السيارة الجميلة النظيفة.. والتي لم يجلس في مثلها من قبل في حياته.. رائحتها كأطيب العطور والزهور.. وحِسُّها رقيق هادىء هامس وليس مرعباً مزمجراً كتلك الشاحنة اللعينة.. وأما مقعدها فناعمٌ مريح.. وليس كتلك المجنونة كأنها طاحونة.

واكتشف صالح أنه يرى طرابلس لأول مرة على حقيقتها.. فهي حقاً من نافذة هذه السيارة الأنيقة أجمل وأبهى.. مما رآها من قبل على ظهر شاحنات كانت تقلّه هنا وهناك وهو قابعٌ بصناديقها الخلفية مع بقية العمال.. لكنه كان يقول في سرِّهِ أنها أرحم من السير على الأقدام لعدة أميال. أما في هذه السفينة الهادئة فالفُسحة أروع من خلال الزجاج الشفاف والحركة أنعم وأكرم وكأننا نسْبحُ فوق الماء. يا لها من حياة مرفهة وممتعة ومريحة.. لم يحلم بها صالح من قبل. لكن يبدو أن ليلة القدر ها قد فَتحتْ أبوابها لينعم بها.. عما قريب.. أليس من حقه أن يعيش ويهنأ؟ يكفيه ما ذاقه في تونس من بؤس !

دخل صالح العالم الجديد الذي لم يره ولا حلم به من قبل. حديقة كلها اخضرار وازدهار وأزهار وأنوار ومنزل أرضيته فسيفساء وسقفه مرصّع بالأضواء وجدرانه بيضاء زرقاء وحمراء وبه نقوشٌ وتحف..!
ونظر صالح إلى قدميه فرأى حذاءه المتهالك.. وقد انكشفت بعضُ أصابعه منه. فغمره الخجل حين سألته نفسه: كيف تجرؤ على أن تطأ هذه الجنة بذلك الحذاء الأجرب..؟! فلم يقل شيئاً. أما ذلك السنيور ألبيرتو فأنقذه بقوله: سوف تتعرف على زوجتي وابنتي بعد قليل؟ ولكن سأريك الحمام كي تغتسل وتجد فيه ملابس وحذاء..!

ولا يذكر صالح أن استحمّ قبل اليوم بماء دافيء ونقيٍّ كهذا ولا وَضَعَ في يده قطعةَ صابونٍ منعشٍ كتلك.. كما لم يحظَ في حياته من قبل بمنشفٍ ناعمٍ كثيفٍ ونظيف كهذا الذي بين يديه.. وأحسَّ بالنشاط والحيوية ثم بالغبطة والسرور.. وهو يرتدي تلك الملابس والحذاء.. وكأنه في يوم عيد ولم يعرف العيد إلا عبر الحكايات والمسلسلات.
خرج فرأى أمامه بوسط الصالة الفسيحة المرتبة سيدة أنيقة الهيئة معتدلة القوام بعينيْن عسليّتيْن وشعرٍ أحمر وبجوارها فتاةٌ صغيرة مبتسمة كأنها أميرة تلبس فستاناً أزرقاً وحذاءً أبيضاً وتتمايل بشعرها الأحمر يُمنة ويُسرة وكأنها ترقص وتتمتم بأغنية خفيفة بشفتيْها.

أما السنيور ألبيرتو فجاء مازحاً وقال لأسرته: هذا سنيور ***ساليه***..!
فابتسم صالح خجولاً وانحنى برأسه قليلاً إلى الأمام.. وهو يحييهم.
ثم مد يده مصافحاً لهم. فقال له السنيور ألبرتو: هذه سنيورا **روتانا** زوجتي وهذه ابنتنا الجميلة **سارينا**.. عمرها 4 سنوات. وأنت كم عمرك يا ساليه؟ فقال صالح: *ديّشي آني* عشر سنوات. فقال: أوو!
وضحكت السيدة روتانا وقالت: برافوو.. هل تذهب إلى المدرسة؟
فتدخل ألبيرتو قائلاً: سيدخل المدرسة الإيطالية عما قريب.

وأشار لصالح بيده بأن يتبعه وقال له وهما يدخلان غرفة صغيرة أنه يتقن اللغة العربية حيث تعلّمها في المدرسة منذ الصغر وهو مولود بطرابلس وكذلك زوجته والسيدة **ماريا** تتكلمان اللغة العربية. ولكنه سيكلمه بين الحين والآخر بالإيطالية لكي يتعلمها. ثم قال أنه سيقيم في هذه الغرفة مع السيدة **ماريا** الخادمة الطباخة.. وسيتعرّف عليها بعد قليل وطمأنه بأنها سيدة طيبة هادئة ونشطة سوف تهتم به..
وأشار في الغرفة إلى دولابٍ لملابسه وأشياءه وسريرٍ ومكتبٍ ليتعلم عليه الكتابة والقراءة. ثم سأله عن شهادة ميلاده لكي يقوم بتسجيله في المدرسة. فرفع صالح يديه وكتفيه وقال أنه متأسف لا يملك أي شهادة ميلاد أو مستند. فاستغرب ألبيرتو. فحكى له صالح أنه مولود بمدينة عقارب في تونس.. وأنه فرّ منذ عامين من هناك بسبب سوء معاملة امرأة أبيه.. وأنه يعيش وحيداً في الشوارع منذ ذلك الحين.

فابتسم ألبيرتو ابتسامة أسفٍ ومواساة وقال أنه على علم بذلك فقد تتبعه لعدة أيام.. وعَرَف بأنه يعيش وحيداً.. وما أعجبه فيه أنه لا يصادق الأشرار ولا يضيّع أي وقتٍ في اللهو والتسكع أمام السينما أو المحلات. ولهذا كله قرّر أن يأخذه عنده ويربّيه ويعتني به ويعامله كأنه ابنه وهو ليس له ابن إلا **سارينا**. ويتمنى أن يصبح لها أخاً حنوناً يحميها. فدمعتْ عينا صالح وارتعشت شفتاه وأخذ يمسح بيديه القطرات التي انسابت على خدّيْه.. ولم يستطع أن ينطق بأي كلمة.. فاقترب منه ألبيرتو واحتضنه ورَبَتَ على كتفيه وطبطب.. ليهدِّئَهُ. فاستند صالح برأسه على صدر ألبيرتو وقال له بصوتٍ متقطِّع وفيه حشرجة: قراتسي سنيور ألبيرتو.. قراتسي..! فقال ألبيرتو: بريقو..!

وفي تلك الأثناء حضرت **ماريا** وهي سيدة ممتلئة البدن قصيرة القوام ترتدي لباساً أسوداً وشعرها يميل للون الفضي مربوط بالخلف.

فتعرف عليها صالح بعد أن مسح عينيه واعتدل وابتسم لها فبادلته الابتسام وقالت لها بالعربية: أهلا وسهلاً سنَكونُ جارتْين في الغرفة..! ثم دخلت لتتأكد من أنّ السريرَ موَّضَبٌ. وقالت للسيد ألبيرتو سوف أحضر له منشفاً وشراشف نظيفة.. وأجهّز الغذاء. فقال ألبيرتو: سنيورة ماريا فنّانة في إعداد السمك يا ساليه.. وسوف ترى..!

هكذا دخل صالح فصلاً جديداً من حياته وأحسّ في قرارة نفسه بأنه ودّع حياة الفقر والتشرد والبؤس - حتى وإن كان بين الحين والآخر يشعر بالحنين إلى مدينته *أم العقارب*. لكنه حين يتذكر امرأة أبيه ما يلبث أن يجفل وينتفض كأن عقرباً لَسَعَهُ.. فإلى هذا الحد يخشاها ويكرهها ويتمنّى ألا يراها. ثم أخذ ألبيرتو وهو جالسٌ على كرسيٍّ.. وصالح على طرف السرير- يشرح له بأنه سوف يُريهِ الحديقة لكي يعرف كيف يعتني بالأشجار. ففيها من كلِّ صنفٍ شجرةٌ كالبرتقال والليمون والتفاح والكمثرى واللوز والخوخ.. كما أن فيها أنواعاً كثيرة من الزهور والورود.. وقال له هناك فرقٌ بين الوردة والزهرة.

وهناك أعشاب تجمعُها زوجته للاستعمال كالمعدنوس والحبق والكسبر والشبت والكرافس والزعتر. كلها في الحديقة تحتاج لعناية وتروية وسوف يعلمه بنفسه كيف يقوم بكل ذلك.. فالحديقة هي جهاز التنفس بالنسبة للأسرة والبيت. وقال له أنهم يتناولون الطعام أحياناً كثيرة في الحديقة إذا سمح لهم الطقسُ بذلك.

وحدّثهُ عن عمله موظفاً بهيئة الضمان الاجتماعي والتي تهتم بعدة فئات من المجتمع كالفقراء والعاطلين عن العمل والمتقاعدين. وقال أنه يملك مطبعةً تقوم بطباعة الفواتير والملفات التي تحتاجها الشركات والمكاتب لتتعامل مع الجمهور. ووعده بالعمل فيها.

جلستْ الأسرة مع صالح لتناول الغذاء على الطاولة الجميلة الشهية فشعر كأنه يحلم إذ أنه لأول مرة يتناول الطعام بتلك الطريقة. وكأنه في مطعم فاخر نظيف.. ويسمع بالخلف موسيقى هادئة لم يسمعها من قبل قامت **سارينا** ذات الأربعة أعوام بتشغيلها بنفسها من دون أن يطلب منها أحدٌ ذلك وعادتْ لمقعدها المرتفع.. لكي تجلس أمام صحنها وكوبها هادئة تنتظر توزيع الطعام وتنظر للضيف الغريب وتبتسم وهمست لأمها في أذنها فابتسمت السيدة روتانا.
وقالت لصالح: إن سارينا تريد أن تسألك.. هل تحب أكل السمك؟ فابتسم وتشجع وقال: *مولتو* Molto كثيراً! فضحكت سارينا وقالت *أنكي إيو* Anche io.. وحتى أنا كذلك..! وشعر صالح بأنه يحلم.

وبعد الغذاء تناولوا "الجيلاتي" والفاكهة. ثم خرج ألبيرتو وصالح لكي يريه الحديقة وما فيها من أشجار وأزهار وأعشاب فوجدها صالح.. مرتبة منسقة وقال له ألبيرتو هكذا أحبها أن تكون دائماً.. والترتيب يجب أن يكون كل يوم لمدة ساعة لكي تبقى هكذا. وأشار بيديه إلى الثمار الناضجة وكيف يقطفها بسهولة بالمقص وأين يضع الأغصان الزائدة والأوراق وكيف يسقيها بالماء من دون زيادة ولا نقصان.. لكي تبقى منتعشة وسليمة. ثم أراه أين يضع القمامة لعمّال الشارع.

وأحسّ صالح بأن بمقدوره القيام بتلك الأعمال فهي خفيفة ونظيفة إذا قارنها بتلك التي قام بها من قبل. من التقاط التين الشوكي وكنس الشوارع وتنظيف المراحيض وإزالة أحشاء السمك وقشوره. أما هنا ففيها متعة وفن وتسلية. ثم سأل نفسه في تلك الأثناء هل ابتسمتْ ليَّ الحياة الآن ورضتْ عني بعد أن حرمتني كثيراً. الحمد والشكر لله. لابد أن أصلّي وأتذكر نعمة الله وأعود إليه. فالدنيا شغلتني بما فيها من بؤس وحرمان عن أن أدعو الله واستغفره وأعبده..!

إيتالو بالبو

هكذا بصورة مفاجئة ومن غير علمٍ مسبق.. جاءني المعلم التونسي- الأستاذ سعيد- لأول مرة إلى بيتنا في إحدى الأمسيات. وتحديداً بعد صلاة المغرب بقليل فاندهشتُ حين رأيتُه أمام الباب ورحّبْتُ به.. فقال أريدك يا سالم أن تسافر معي غداً في الصباح الباكر إلى تونس. فاستغربتُ وقلت له: ولكن كيف؟ ولماذا؟ قال لي: فقط ليوم واحد وسنعود بنفس اليوم وفي الليل سنكون هنا. فقلتُ: ليس بإمكاني أن أفعل ذلك يا أستاذ. أولاً أمي سوف لن تسمح لي ثم لأنني لا أملك جواز سفر وليس لديّ إلا بطاقة شخصية.. وعمري أربعة عشر عاماً كما أنني لم أستأذن من الشيخ ميلود. و.. وما سبب السفر.!؟

فقال لي إنه ظرف طاريء ولابد أن ترافقني فيه. وسأحكي لك عنه في الصباح الباكر حينما آتيك لنذهب إلى محطة التاكسيات.. ولا تخبر بذلك أحداَ.. وطلبتُ الإذن من الشيخ ميلود ورجوته بأن يسمح لك بأن ترافقني.. فلم يرَ في ذلك مانعاً شريطة أن نرجع في نفس اليوم. وقال لا لزوم أن نُعلم أحداً بذلك. حتى أمُّك لا تخبرها لكي لا تنشغل وحكيت له عن هذا الظرف الطاريء فوافقني على إجازة عارضة..!

وبالصباح الباكر بعد صلاة الفجر بقليل كنتُ في انتظاره أمام الباب. ولم آخذ معي شيئاً سوى بطاقتي الشخصية وبعض النقود في جيبي. ولم أخبر أمي ولا سامي ولا أي أحد.. كما طلب مني المعلم التونسي..

وانطلقتْ بنا التاكسي مع بقية الركاب غرباً إلى الحدود التونسية ولم تتوقف إلا مرة واحدة بمحطة البنزين. وفي الشروق اقتربنا من حدود رأس جدير. فقال لي المعلم التونسي: سننزل هنا ولا لزوم لأن نعبر الحدود. فنزلنا فقال أنّ له أحداً يعمل بالجوازات سنلقاه هنا.

لاحظتُ عليه طوال الرحلة أنه صامتٌ ومهمومٌ وشاردٌ يفكّر. فهناك حتماً أمرٌ ما يشغله.. أمرٌ ليس بالبسيط -على ما يبدو- حتى أنه لم ينطق بكلمة واحدة طوال ساعة ونصف أو يزيد ربما لأنه لا يريد أن يسمعه بقية الركاب معنا. فما هو السر الذي لم يبح به طوال الرحلة وما أن وطأنا الأرض بمنطقة الحدود قرب مقر الجوازات والجمرك حتى مسكني من ذراعي وقال: *اسمع يا سالم. نحبّك تمثّل معاي دور كيف اللي فالسينيما.. اعتبرني أنا أعمى وأنت تقودني.. وآهو معاي عصا باش نتحسس بيها اطريق*. فانتبهتُ إلى أنه كان يصطحب معه بالفعل عصا لم أنتبه إليها قبل ذلك. فأحسستُ عندها بشيء من الإثارة والخوف. وقلت: ما الحكاية يا أستاذ..؟ فقال: لا تخف..!

ثم شرح لي أننا سنلتقي شاباً بقسم الجوازات ومعه مستندات يريده أن يوقّع عليها تتعلق ببيع أرض له في قريته بعد وفاة أمه.. والأستاذ يعتقد اعتقاداً جازماً أن الأطماع كثرتْ فيها. فقال للشاري أنه مقيم بطرابلس. وأنه مريض لا يتحمّل مشقة السفر إلى تونس.. فقال الشاري أنه يعلم أنه مريض وعرض عليه أن يحضر معه الأوراق إلى مقر جوازات الحدود حيث يعمل. فحاول الأستاذ أن يمتنع عن مسألة البيع بحجة أنه يريد أن يحتفظ بالأرض إلى أن يعود من ليبيا وينظر في أمرها بعد ذلك. لكنَ الشاري ظل يلح عليه بالهاتف تلو الهاتف وأعطاه مبلغاً كبيراً.. يرى الأستاذ أنه مبالغٌ فيه.

ثم قال له لكي يتوقف عن مضايقته وإلحاحه- أنه سيتصل بمحامي لكي يتولّى المسألة.. غير أن الشاري قال لا لزوم لمحامي وما عليه إلا أن يأخذ تاكسي ويوقّع على الأوراق خلال دقائق ويستلم المبلغ في الحين ويرجع إلى طرابلس في نفس الساعة. فلم يجد الأستاذ سبيلاً للتخلص منه وقرر أن يلاقيه في الحدود ولكن بحذر شديد..!

ولهذا أراد أن يختبر الشاري والأوراق التي سيُحضِرها معه.. ويقارنها بما عنده من مستندات ملكية كان قد أحتفظ بها معه بحقيبته حين قدِمَ إلى طرابلس.. خوفاً من أن تضيع أو تُسرقْ. خاصةً وأنه يعلم أن هناك كثيرين ممن يطمعون في تلك الأرض بعد وفاة أمه وهو الوارث الوحيد لها ويتربصّون بها نظراً لموقعها التجاري الفريد من نوعه في القرية. ولذا خطر بباله أن يمثِّل الدور بأنه أعمى فلا يرى ما سيوقّع عليه.. ولهذا السبب استعان بي وكأني سوف أقوده إلى هناك..!

واقتربنا من مبنى الجوازات فظهر شابٌّ نحيلٌ واتجه نحونا لأنه يبدو أنه عرف الأستاذ من نظارته السوداء ومن عكّازه بأنه أعمى.. فابتسم لنا وقال: *عالسّلاما.. سي سعيد مش هكّا*؟ فقال الأستاذ: *انعم.. السي بشير*..؟ فردّ الشاب بالإيجاب وصافحنا.. ثم سار بنا إلى مقهى صغير بالحدود.. ولم أرَ فيه ما يدل على أنه شرطيٌّ أو نحو ذلك..!

وطلبنا بعض المشارب.. ثم أخرج الشاب من حقيبته اليدوية أوراقاً عدة فوضعها على الطاولة بين الأكواب وفردها.. ثم تناول من جيب سترته قلماً جافاً وقال أن الأوراق جاهزة وما على الأستاذ إلا التوقيع بالمبلغ الذي اتفقا عليه في الهاتف. فقال له الأستاذ: على مهلك..! هل كتبت حدود الأرض بدقة. فقال الشاب: *إكساكتيمو*. بالضبط!! فقال الأستاذ: وهل ذكرت المبلغ؟ فقال: *بيان سوور*. طبعاً. فقال الأستاذ يبقى الشهود. فقال الشاب: لو تحب معاي شهود توا يجو .

فقال الأستاذ: *إيه هيا خليهُم يجيو وينهم*؟ فنهض الشاب. فأمسك الأستاذ بالأوراق. فذهب الشاب ليُحضر الشهود. وفي تلك الأثناء قرأ الأستاذ ورقة المبايعة.. فوجدها غير رسمية وبلا عنوان ولم يُذكر فيها سعر الأرض. فجلس صامتاً.. وضغط على يدي برفق..! وبعد قليل حضر الشاب بمفرده.. وقال أن الشهود سيأتون..!

وفي تلك الأثناء قام الأستاذ بحركة لم أتوقعها منه على الإطلاق. فما أنْ التفت الشاب صوب مبنى الجوازات يترقّب الشهود بإلحاحٍ حتى سكب الأستاذ بخفة ورشاقة كوب مشروبه وبحركة سريعة على تلك الأوراق التي أمامه وأخذ يصيح ويعتذر عما فعله. يا لها من حيلة..!
وأخذ يبحث عن مناديل ورقية ويتلمّسُها فوق المنضدة ليجفف بها الشراب البُنّي المسكوب وهو يعبرّ عن أسفه.. بينما وقف الشاب لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يصنع. ثم قال: *سي دوماج* خسارة! فقلتُ: ما فيش نصيب.. فقال الشاب: صحيح. ما فيش نصيب..!

وانتهت المقابلة عند هذا الحد وتوقفتْ المهزلة. ثم قال الأستاذ أنه سيعود إلى تونس في العطلة الصيفية القادمة وسوف يحدد موعداً آخراً فيما بعد.. وبعد أن يجري عملية جراحية على عينيه.
وحين اقتربنا من محطة التاكسيات التفت لي الأستاذ وقال: *زعما أنا غبيّ لهالدرجة يا سالم..*؟ فقلتُ: *حاشاك يا أستاذ هوا الغبي*. قال *ما أظن أني غبي لهالدرجة. كيف يجيب عقد مزور ويحبُّ يزلبحني في حق الأرض.. ويتصور أن المسألة اتّم هكا بسهولة لا شهود ولا هم يحزنون. يا أنا غبي يا هوا*. فأكدتُ له مجدداً. *هو الغبي ما فيها شك*.

عدنا بنفس الطريقة. السيارة تلتهم الطريق الأسود الطويل ونحن في صمت تام ومن حولنا ركاب لا نعرفهم ولا أظن أنهم يعرفوننا.. وكل واحد قابعٌ في صمته وأفكاره. توقفنا في محطة بنزين ثم واصلنا الرحلة فأحسسنا بأن السيارة ترتجف وتتمايل فقال أحد الركاب أن إحدى الإطارات تحتاج لتغيير نزلنا جميعنا من السيارة واستغرقت العملية نحو نصف ساعة. وما أن وصلنا طرابلس حتى أُذِّنَ لصلاة العصر. فتذكرتُ أن فوزية وعدتني بأن تكمل لي قصة والدها في بيت الأسرة الإيطالية: سنيور **ألبيرتو** وسنيورة **روتانا**.. قصة مثيرة..!

جلستْ فوزية تُعِدُّ لنا الشاي قرب أمها وأمي. ولم يلاحظوا غيابي في النهار في رحلتي مع المعلم التونسي.. وظنتْ أمي أنني كنت معزوماً على الغذاء في إحدى المناسبات الاجتماعية ولم أخبرها بالرحلة..!

وقالت خالتي سكينة أنّ خالد مشغول بالبحث عن فرصة عمل. إذ لم يُسمح له بمواصلة إعطاء الدروس في معهدنا بالرغم من توسط الشيخ ميلود إلا أن الهيئة امتنعت عن ذاك وكذلك عديد المدارس الإعدادية الأخرى في أنحاء طرابلس. وقالت فوزية أنه ربما يضطر أن يزور مدارس أخرى في الخُمس زليتن ترهونة سرت سبها. وقالت أنه لا يأكل ولا يشرب وقد نقص وزنه وساءت صحته بعد أن خرج من السجن بصورة أشد.. لأنه يفكر طول الوقت في مصيره..!

أخذتْ أمي تدعو الله له بأن يرزقه المكان الذي يستحقه ويبعد عنه الهم.. فيكفيه ما قاسى في العامين الماضيين أما خالتي سكينة فتبكي وتردد آمين آمين. وكانت فوزية قد علمت بحقيقة قصة المخدرات. وأخبرتْ أمها وأمي بذلك فتأسفوا لحال خالد حين علموا بأنه مظلوم وقد ضحّى بسمعته وبسنتين من عمره من أجل أبيه. وأرادت فوزية أن تستأنف روايتها لقصة أبيها.. فقالت خالتي سكينة هل سالم لم يسمع بهذه القصة من قبل؟ فقلتُ لم أسمعها كاملة وعرفتُ كيف أن عمي صالح جاء من تونس كصبي ليعيش في طرابلس.. فتنهّدتْ خالتي سكينة وقالت: *الله يرحمه.. شاف هلبة تعب ومشاكل.*
في تلك الأثناء تنهّدتْ أمي كذلك. وقالت: *الله يرحمه ويرحم جميع المسلمين زي صالح زي بوك يا سالم. إييه ما شافو من ويل وعذاب الله يرحمهم.* وبعد أن وزّعتْ فوزية علينا الأكواب ابتسمت قائلة: "*بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد.. بلغني أن الطفل صالح استقر عند تلك الأسرة الإيطالية وصار كفردٍ منهم وتعلم الإيطالية.*

وقام السنيور ألبيرتو بتسجيله في السجل المدني على أنه *يتيم ساقط القيد* لكي يُمنح الهوية الليبية- الإيطالية واستخرج له شهادة ميلاد وصار اسمه **صالح مختار علي التونسي** ثم دخل المدرسة الإيطالية إذ أن التعليم آنذاك كان بالإيطالية ووفق النظام التعليمي في إيطاليا. وكان في طرابلس حينذاك 7 مدارس إيطالية. جميع المعلمين بها من الإيطاليين فقط. وعرف صالح فيما بعد أن التعليم بتلك الطريقة بالنسبة لليبيين كانت ميزة لم يحظ بها كلُّ ليبيٍّ. وذكر صالح أن أغلب التلاميذ معه في المدرسة كانوا إيطاليين وقليلاً منهم من أبناء الليبيين. كما كان لباس التلاميذ في المدارس الإيطالية موحداً:

حظيَّ صالح بالانضمام إلى إحدى المدارس الإيطالية السبع في طرابلس.

عرف صالح اسم أول والي إيطالي لطرابلس **إيتالو بالبو** وهو أول من أسس المدينة معمارياً. وأول من سعى مع الليبيين لاستقرارهم بعدم خوفهم من الإيطاليين المعمِّرين. فكان المعلمون يذْكُرون ما له من مزايا ومشاريع عملاقة ليس فقط بطرابلس. وقالت فوزية أن أباها أخبرها بأن **بالبو** جعل مكتَبَهُ بالسرايا الحمراء وأخذ يستقبل الأعيان والوجهاء الليبيين.. لكي يحل مشاكلهم ويأخذ بمشورتهم. كما أهتمّ بالصحافة والثقافة والمكتبات وبمعارض الفنون والحفلات.

وبدأت أوضاع الليبيين الحياتية والاقتصادية تنتعش وارتدوا الثياب الأوروبية والطرابيش الحمراء وحكا صالح أنه في حين كان **بالبو** يحكم طرابلس باللين والحِكمة والسلم.. كان **غراتسياني** في شرق ليبيا يبسط نفوذه بالنار والحديد والرعب. فتضايق منه *بالبو* بل وطلب منه أن يغادر ليبيا.. لأنه يُفسد عليه طريقته السلمية في الحكم. بل وأمر بإزالة أثاره الدموية في ليبيا والتي كان المُراد منها أن تُخلّد حكم غراتسياني وعهد سلطته في ليبيا. كما أمر بإزالة اسم زوجته من على مصيف جليانة ببنغازي لكي لا يبقى له أي أثر. وشكّل لجنةَ تحقيقٍ فيما ارتكبه غراتسياني من مجازر ومظالم لا تُشرّف إيطاليا. فاكتسبَ بالبو بذلك تعاطف الليبيين معه. وقال صالح أنه يكره غراتسياني.. بينما كان يحب بالبو وما قام به من انجازات في طرابلس بأن أصلح الشوارع والطرق والفنادق والعمارات وأهتم بواجهاتها.. وبالحدائق الجميلة وبالمدارس وبوجبات الطعام للتلاميذ. كما اهتم بالخدمات الصحية وأقام حملات ضد التراكوما (رمد العيون) والسل الرئوي.. إذ كانا من أخطر الأمراض التي أصابت الليبيين بالعدوى والموت.

وقال صالح أن الوالي بالبو اهتم بالثقافة وفتح دور السينما والمسرح ورمّم مسرح صبراتة الروماني فعُرضت فيه مسرحيات وحفلات من إيطاليا.. وأقام مسابقة دولية بطرابلس لسباق السيارات والدرّاجات بمنطقة الملاّحة كما أهتم بالمتاحف والآثار (السرايا الحمراء) وشجّع 20 ألف إيطالياً للهجرة إلى ليبيا وأقنع الحاكم **موسوليني** بزيارة ليبيا.

ثم استطاع أن يجعل عدد المستوطنين الإيطاليين يصل إلى نصف مليون ويعادل عدد الليبيين الأصليين. فأضحتْ *ليبيا الضفة الرابعة* لإيطاليا فزاد نفوذها. وعلم صالح أن بالبو كان يسعى لأن يعوّض إيطاليا عما فقدته خلال الحروب في ليبيا لمدة 20 عاماً..!

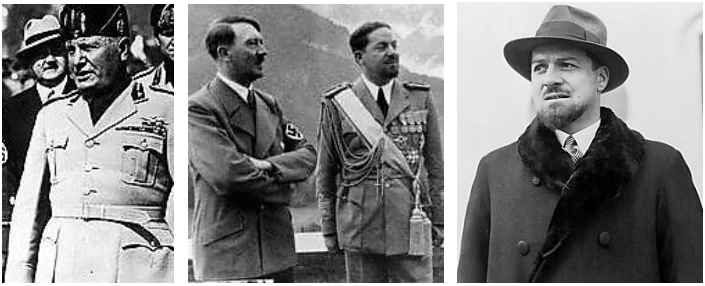

من اليمين: إيتالو بالبو ثم مع هتلر ثم موسوليني.

طريق الشط والسراي الحمراء. وترحيل آلاف المستوطنين إليها.

شاطيء السراي الحمراء والكورنيش.

تجميع الآلاف في ميدان الشهداء وأمام السراي لاستقبال موسوليني.

جانب من مباني المدينة القديمة والحديثة في طرابلس.

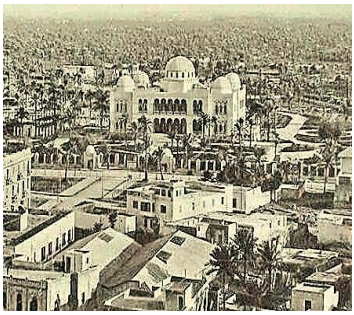

موقع قصر بالبو- قصر الملك فيما بعد في طرابلس.

المارشال الحاكم العام بالبو يستقبله أعيان طرابلس أمام القصر.

وذكر صالح بأن ألبيرتو أخبره بأن روما كانت تُنْفِق على المعمِّرين في ليبيا وتشجعهم على البقاء والاستقرار في ليبيا بأن منحتهم الأراضي والأدوات الزراعية والسكن الريفي الحديث والحيوانات لتربيتها ثم الراتب الشهري والذي يفوق ما يتقاضونه في إيطاليا.. وخاصة في جزيرة **صقلية**(سيشيليا الفقيرة). وتصبح المزرعة من حقوق الفلاح الإيطالي بعد أن يستوطنها ويعتني بها فعلياً لمدة 20 عاماً.

وحكى ألبيرتو لصالح بعد أن تبنّاه وصار ابنه.. أنّ *بالبو* استقبل آلاف الإيطاليين وهم قادمون في 17 سفينة في رحلة واحدة من نابولي في نوفمبر عام 1938 فنزلوا وتجمّعوا في ميدان السرايا الحمراء وركعوا وسجدوا وقبّلوا الأرض التي سوف تصبح عما قريب وطنهم الجديد .. بينما كان بالبو يبكي من شدة الفرح وهو واقف في استقبالهم.

وأخذ بالبو يُطمْئِنُ أصحابه الليبيين.. عن قدوم أولئك الأُلوف من المعمّرين القادمين فأعلمهم بأن أراضي الجبل الأخضر قد خُصِّصتْ بالكامل لهؤلاء القادمين بينما خُصص المنحدر الجنوبي منه للقبائل الليبية. لكنّ بعضَ الحاضرين احتج على ذلك التقسيم لأن المنحدر لا تتوفر به المراعي والأمطار إلا موسمياً. وبدأ القتال بين الفريقين.

وبعد 3 سنوات فقط انسحب أولئك الإيطاليون وعادوا إلى بلادهم بعد أن قُتل بعضُهم في المعارك. وفي تلك الأثناء أصرّ بالبو على أن يُقنع الزعيم **موسوليني** بزيارة ليبيا ليرى ما تحقق فيها من إنجازات ضخمة. فشجّع الشعراء الليبيين على نضم قصائد تمجّد **موسوليني** وحكمه الرشيد ونفوذه على ليبيا وأثيوبيا وأفريقيا.. كما زاد بالبو من التوسع في الإعمار ومدِّ الطرق والحدائق ورغّب كلّ فئات الشعب في استقبال الحدث التاريخي المهم والاحتفاء بمقدم الزعيم.

كما أمر بتوزيع الزينة بالشوارع وبتدريب التلاميذ على القاء الأناشيد وكلمات الترحيب وتقديم العروض. ثم أمر بحشد البدو الرُحّل على جانبي الطريق للترحيب بالضيف الكبير والقادمين معه. وبدأ الزعيم موسوليني من طبرق ثم رحل غرباً بالبر إلى درنة وبنغازي ثم مصراتة وزليتن. وكان يوزِّع السكر والشاي والأرز على المستقبلين كهدايا لها قيمتها آنذاك وحيثما أحلوا. حتى وصل طرابلس العاصمة فأطلقت المدافع وأشعلت الأنوار ورفرفت الأعلام وارتفعت الهتافات وركب الزعيم على جواد أُعِدَّ له مسبقاً وسار على رأس جحفل من 2000 فارساً ليبياً إلى ميدان القصر فوجد سرادقاً مخصصاً ل5000 مدعواً. وكلَّ ذلك من تنظيم وترتيب بالبو.. ثم قدّم إليه يوسف خريبيش سيفاً وقال "*باسم عساكر ومسلمي ليبيا الفخورين بأنهم أبناء إيطاليا الفاشستية أقدّمُ إليك - أيها الزعيم - سيف الإسلام القاطع*"..!!

فاستلم موسوليني منه السيف واستلّه من غمده ورفعه إلى الأعلى ثم صاح بأعلى صوته قائلاً: "*يا أولاد.. نداء الحرب الليبي*!". وانطلق موسوليني فوق حصانه ومن ورائه الفرسان فمرّوا بشوارع طرابلس. وألقى خطاباً في ميدان السراي الحمراء لكنه كان مجرد *خطابِ وعودٍ* لم يتحقق منها شيء. وقطع موسوليني زيارته وعاد إلى روما بسبب وصول الأخبار بهزيمة جيشه المرسل إلى إسبانيا لمساعدة فرانكو.

وحكى صالح لابنته أيضاً أن بالبو ظلّ يتقرّب أكثر فأكثر.. من رجال الدين في طرابلس وفي المدن الأخرى وأبدى إعجابه بالإسلام. لكي يكسب قلوب الليبيين. وأصبح له أصدقاء منهم ومن القضاة ورجال الأعمال وأخذ يزور الأضرحة والزوايا وأطلق سراح المساجين. وأنشأ مدرسة إسلامية عليا لكي يحدّ من ذهاب الطلبة إلى الأزهر للدراسة أو إلى جامعة الزيتونة بتونس كأقدم جامعة إسلامية في العالم.

وقال ألبيرتو لصالح الذي أخبر بدوره فوزية ابنته أن بالبو منح موسوليني لقب **حامي الإسلام**. وكان بالبو بنفس الوقت يخطط أن يصبح الرجل الثاني بعد الزعيم في إيطاليا وكان يرغب في احتلال الإسكندرية. ثم التقى بالملك فاروق في القاهرة وطمْئنهُ عن وجود القوات الإيطالية المتواجدة على الحدود المصرية المشتركة بأنهم لا يمثلون أي خطر على مملكة مصر. وفي تلك الأثناء مات بالبو في حادث انفجار بالطائرة التي كان يركبها من طبرق. وقبل أن يموت طلب من الحكومة الإيطالية إنشاء مسجدٍ في العاصمة روما.. أسوة بمقر البابا الكاثوليكي رمز المسيحية. فغضب الفاتيكان.. لذلك الطلب واندهش المسؤولون بالحكومة الإيطالية. وبعد مرور نصف قرن وافقت الحكومة وبُني المسجد في روما بالفعل علم 1940.

أما صالح - وكما استمرت فوزية تحكي عنه- فقد نشأ وترعرع في بيت متبنّيه السنيور **ألبيرتو** ومع زوجته الجميلة **روتانا** وابنتهما **سارينا**. وتعلّم صالح في المدرسة الإيطالية لمدة ثلاث سنوات.. كحد أقصى للتعليم الابتدائي المعمول به آنذاك في طرابلس. ثم انتقل إلى **معهد مهني** تابعٍ لهيئة الضمان الاجتماعي حديثة العهد آنذاك.. والتي كان السنيور ألبيرتو أحد كبار موظفيها ومؤسسيها في طرابلس.

وإلى جانب ذلك.. تعلّم الصبي صالح كيف يهتم بأشجار الحديقة وأزهارها وكيف يقطف الثمار ويروي الأشجار والأعشاب ويغرسها.. ثم تعرّف على **مطبعة** السنيور ألبيرتو الخاصة.. وتعلّم كيفية إعداد الفواتير والملفات وتجهيزها للزبائن من الشركات والمكاتب. وأعجب به السنيور ألبيرتو وبحسن معاملته للناس. وبدأ يعتمد عليه في عدة أعمال ومشاغل مع الضرائب والسوق ومرت الأعوام.. وتمكّن خلال فترة وجيزة من أن يحتل مكانة مهمة وطيبة في حضن تلك الأسرة .

لازم فيه أماليا

في اللحظة التي وصلتُ فيها عند الفناء الخارجي للمعهد عند تمام السابعة والنصف صباحاً - أي قبل موعد الطابور الصباحي بنصف ساعة- لاحظتُ أنّ أحداً ما وعلى بُعْدِ أمتارٍ قليلة مكوّرٌ على الأرض بنهاية عتبات باب المعهد وسمعته ينادي بصوته المميز: *ايجا يا سالم إيجا يعيشك..*! فعرفتُ قبل أن أصِلُهُ أنه المعلم التونسي..!

يا ساتر يا ساتر ! قلتُ بصوتٍ مسموع وأنا أسرعُ ناحيته فمدَّ لي يده لكي أساعده لكنه ما أنْ حاول أن ينهض حتى صاح وبقيّ في مكانه من شدة الألم. ولم أكن من القوة بحيث أحمله وأنهضه.. وإذا بأحدٍ من زملائي يقترب فتعاونّا على رفعه إلى أن وقف لكنه بدأ يعرج.

وجاء الشيخ ميلود في تلك اللحظة فاستفسر عما حدث.. فقال له المعلم التونسي أنه عثر في العتبة الأخيرة وهو يحاول أن يذهب إلى الدكان. فساعدناه حتى وصلنا به إلى سيارة الشيخ ميلود فانطلق به إلى مركز الإسعاف. وبعد أن أنهينا طابور الصباح عاد الشيخ ميلود ومعه المصاب وحول كاحله رباطٌ ضاغط وقال الشيخ ميلود*الحمد لله ليس به كسر*. وإنما كدمة قوية ويحتاج للراحة.. لكنّ الأهم من ذلك أنه يحتاج لفحص دقيق عن عينيْه.. وقال أنه سمع بأن هناك طبيبَ عيونٍ أجنبياً زائراً وأنه سيحاول أن يأخذ له معه موعداً.

ولاحظتُ على الأستاذ أنه حينما يمشي يستعمل عصا طويلة مدببة. يتلمّس بها العوائق في طريقه. كما رأيتُهُ يتحسس الأرض بنعله وكأنه يجرُّهُ جرّاً لتفادي التعثر والوقوع في حفرة وما أكثر الحُفر في بلادنا..! وذات مرة قال لي أنه لم يعد يرى إلا الظل والضباب ولا يتعرّف على الأشخاص إلا من خلال أصواتهم أو رائحتهم وهيئاتهم.

وضحك وهو يقول لي ذلك.. وعلّق قائلاً بأن: *الشاب متع الحدود بيان عليه مرابط*. فمنذ ذلك اليوم حين مثّل دورَ الأعمى وهو أعمى بالفعل وليس بالتمثيل فقط. وقال أنه يعرف أحد أقاربه أصيب في تونس بالتهاب شديد في قرنية العين بعد أن تعرض لحريق وهذا هو ما حدث له بالضبط.. وإن لم يسْرِع بالعلاج فسيصبح أعمى مثله..!

وبعد أيام قليلة رأيته يذهب صحبة الشيخ ميلود والاستاذ السوداني عثمان إلى موعد الطبيب الزائر.. وقابلته بعد عودته.. يتلمّس الممر بعصاه الرفيعة مطأطيء الرأس بطيء الخُطى يزحف بحذائه زحفاً.. كأنه يزحف على الجليد فاقتربتُ منه وحييته فقال: *عالسلاما سالم إيجا نحكيلك.. علي خرّافة أم بسيسي.. تعرفها خرّافة أم بسيسي*؟! فقلت له: *أم بسيسي وبو بسيسي كمان*..! فضحك ضحكة قصيرة. ثم خربش المفتاح في الباب حتى استقر.. فدخلنا. وارتمى بكل ثِقلهُ على السرير وقال ذهبتُ إلى الطبيب الزائر ولم أقابله حتى قاربتْ روحي أن تخرج من كثرة الزحام والخصام وفحصني بيديْن خشنتيْن وكأنه يبحث عن إبرة في كومٍ من القش.. ثم زفر زفرة قوية وقال: *إنتا لازم فيه أماليا*.. فالتفتُّ للشيخ ميلود وسألتُه: شنوّا معناها *أماليا* ؟ فضحك وقال: ع. عملية؟! فقلتُ: وع. علاش ما يقول ع. عملية؟! فهزني بيده وقال *هيّا بلاش فضايح*! وهو يكاد ينفجر من الضحك.

خرجنا فوجدنا *الفيرميري الخاص متعو*.. فسألناه: متى العملية؟! فقال بعد 3 اشْهُرْ.. فقلتُ له الأخ تونسي؟ فقال وكيف عرفت؟! فقلت لأنك قلت زي ما نقول عندنا في تونس: ثلاث اشْهُرْ. فقال لي لا أنا ليبي وعجيلي.. ونحن نقول كما تقولون في تونس: 3 شهُرْ ! ولا ننطق الثاء تاء كما في طرابلس وإنما نقول مثلكم ثاء ثلاثة ثمانية..! فضحكنا وخرجنا والشيخ ميلود يجرني جراً وأنا لا أرى أمامي شيئاً.

تغيّرتْ سلوكُيات المعلم التونسي وتبدّلتْ عما عرفناه.. منذ أن تأزمّ بصرُهُ ومنذ أن زادت العتامة لديه.. بشكل مضطرد سريع.. والغريب في هذا الشأن.. أنه لم يصبح حزيناً أو يائساً من الحياة كما كنا نتوقع.. بل على العكس من ذلك إذ صار أكثرَ طرافةً وسخريةً وحدةَ لسانٍ. وكأنه من البشر الذين يقابلون المرض بالتهكم والأزمة بالضحك والخسارة بالصراخ والزغاريد فكان يقول على سبيل المثال أن الدكتور وعده بأن يركّب له عينين زرقاوين ورموش ذهبية.. بدلاً من عينيْه مُنتهيّتيْ الصلاحية.. وأنه في المستقبل بعد الع.ع. عملية سوف يرى البكتريا بلا مِجْهَر. وسوف يلضم الإبرة من 10 أمتار. بل يستطيع أن ينظر من خلال الحيطان مثل: "*بسم الله العظيم*"!

وصارتْ عصاهُ المدببة الطويلة ترافِقَهُ أينما حلَّ وارتحل.. وقصُرتْ خطاه وقلّت وصار من يعرفه يتعرّف على مشيته وهو يحك الأرض بنعليْه بوشوشته المميزة وزحفه المنتظم. وذات مرة قال لي بصورة مفاجئة أنه سيطلب من طبيب العيون الزائر أن يزرع له عيْنيْ قِطٍّ فسألته لماذا قِطٌّ وليس كلب أو خروف؟ فقال لي أولاً لأن القط له عينان أجمل وثانياً لأنه يرى بهما في الظلام وثالثاً لأنّ القط أرخص!! فضحكنا فقال لي: أنا قُلتُ قطّ وليس قطّة.. لأنني لو طلبت قطةً.. فربما أتزوج وأذهب مع زوجي وأنساكم. أما الذكر فيبقى مع الذكور.

وأصبحنا ننتظر يوم الع.عملية بفارغ الصبر غير أن الطبيب الإسباني الزائر لم يحضر. فقال الأستاذ التونسي لعله مات أو أصيب بالعمى. أو ربما ضبطوه وهو يسرق عيون الموتى من مقبرة مدريد ليحضرها معه إلى ليبيا في المستقبل.. بعد أن كثر الطلب عليها لأنها رخيصة. وصار المعلم لا يخرج من غرفته إلا قليلاً في الصباح لتفتيش الطلبة بالطابور أو لوخز من تنبعث منه رائحة نتنة قائلاً له: *يا شفشة*!

فلم يكن أحدٌ يجرؤ على أن يأتي إلى المعهد وهو لم يفرش أسنانه أو يستحم ولو بالماء البارد أو بسطل المسجد لكي لا تُطلق عليه صفة "***الشفشة***" كونها تُنسب لأبشع الحيوانات رائحةً على الإطلاق..!

أما إذا اشتم رائحة طيبة من أحد الطلبة في طابور الصباح.. طرق بالعصا طرقاً خفيفاً على كتفه وقال له: *عرجون الفلّ*.. !! وكان غير ذلك لا يقول شيئاً إلا وجعلنا نضحك ونستغرب.. فمن أين يأتي بتلك الأفكار والأوصاف والكلمات؟.. كما كان يسمّي زميله السوداني معلم اللغة العربية "الزول عصمان جعفر" الذي يُعِزُّهُ كثيراً ويعزمه على الشاي في غرفته أو في الدكان.. حينما يكون الحاج علي الجبالي غائباً.. فيقول المعلم التونسي: *سي علي اخرجْ في* ***مهمة تفقُّديّة*** !!
ولا أحد يعلم ما المقصود بالمهمة التفقدية غيرهما.. وكأنها "شفرة" سرية لزيارةِ مكانٍ معيّنٍ.. حتى عرفنا نحن -الشُلّة- بطريقتنا الخاصة أنه يزور.. *أرملة تونسية* اسمها **عُليّة** في بيتها.. ولم تفتحه إلا لكي تستقبل *سي علي* وما يحضره معه من فاكهة ومكسّرات وشوكولا!!

كان الحاج علي يثق بالمعلم التونسي ويترك له الدكان بكل أقسامه: قسم اللحوم وقسم الفاكهة والخُضر وقسم الفحم والجاز والتبغ ثم قسم المواد الغذائية بكلِّ أنواعها. وكان المعلم التونسي رغم ضعف البصر يعرف كل سلعة في مكانها المخصص لها ويعلم سعرها بلا أي تفكير أو تردد ويقوم بتقطيع اللحم وتكسير العظام ورأس الخروف.
بل ويتعامل بالديْن مع الزبائن.. ويسجِّل ما عليهم من مبالغ في دفتر الديون. أما ما يتم بينه وبين الحاج علي من اتفاق مقابل خدماته فلا أحد يعلم عن ذلك شيئاً إلا الله. وبمرور الزمن علمنا أن للحاج علي صلة قرابة بالمعلم التونسي.. لكننا لم نعلم التفاصيل. فالحاج علي ليس له إلا علاقات محدودة جداً بالناس المحيطين به..!

كنا ندري أن له ابنةً من زوجته التونسية المتوفاة.. ولكننا لم نعلم الكثير عن علاقاته في القرية إلى أن جاء المعلم التونسي وقال ذات يوم: *تعرف يا سالم عمّك* **علي** *وين يمشي؟ هاديكا "الهجّاله" اللي يزرو فيها ويرفعلها في كلّ ما لذ وطاب.. هي في الحقيقا أختو. ريت يا سالم كيفاش "إنّ بعضَ الظنِّ إثمٌ"* ..؟! كانت تلك المعلومة جديدة بالنسبة لي.. فأسرعتُ بنشرها في الشُلّة لكي لا يلحقنا الذَنْبُ والإثم.

وأصبحنا ننظر لعمنا **علي** بمنظارٍ آخر.. حالما علمنا بالحقيقة.. بل ونُقبِل على دكّانه أكثر لنشتري احتياجاتنا.. وذات يوم تجرأ صديقي جابر فقال له أنه على استعداد لأن يوصل أي شيء للخالة **عُليّة**.. فضحك العم **علي** وقال له أنه إذا احتاج لذلك فسوف يُخبره..!

وبعد التحرّي والتنقيب.. عرف جابر أن الخالة **عُليّة** فاقدة لحاسة السمع وكذلك القدرة على النطق منذ أن مات زوجها الذي تحبه كثيراً.. وهو الشرطي المعروف والمشهور في قريتنا **بهلول الزرقاني** والذي مات مقتولاً في الشارع في ليلة ظلماء من قِبَلِ مجرمٍ مسلّح كان يحاول إلقاء القبض عليه وهو يسرق لكنّ المجرم طعنه بخنجرٍ.. وهرب للأسف ولم يُعرف عنه شيئاً إلا أنه ترك غطاءً أسوداً للرأس والوجه. وظلّ غير هذا بلا أثرٍ في حكم المجهول. ويُقال أن زوجة القتيل وهي الخالة **عُليّة** حين سمعتْ الصراخ قُرب بيْتها.. خرجتْ في الظلام مسرعة تستطلع فوجدتْ زوجها يسبح في بركة من الدم فأصيبتْ بصدمة لم تعد تستطيع بعدها أن تسمع أو أن تتكلم..!

ولم نكن نعلم بأنها أخت علي الجبالي أو بالأحرى **مراد التونسي**. فقلتُ: ما دامت **عُليّة** تونسية.. فهذا يعني أنه تونسي أيضاً..!

فقال لي جابر: *آآآه.. صحيح.. تحليل منطقي يستحق التنقيب..* فبدأ على الفور كعادته. فمن هو علي الجبالي؟ أو بالأحرى **مراد** التونسي؟ لكنّ لهجته ليبية خالصة من أي مفردات أو **قفشات**[4] تونسية. فهل وُلد في تونس وعاش منذ الصغر هنا في ليبيا موطنه وأصله؟! وأخذ جابر على عاتقه مسألة الاستقراء والتتبع والوصول إلى الدليل. وهي مهمة لا يتقنها أحدٌ كلَّ الإتقان كصديقي جابر وكأنه وُلد ليكون لها.

ذات يوم جاء صديقي جابر لزيارتي ثم لنذهب معاً لتحرير الصحيفة الحائطية فقال لي أن الحاج علي طلب منه أن يوصّل بعض أكياس المواد الغذائية والخضار واللحم إلى خالتي **عُليّة**. وحين طرق الباب عدة مرات فتحتْ ولكنها أغلقتْ الباب على الفور فأعاد الطرق فلم تفتح إلا بعد محاولات عدة.. فوضع لها الأكياس قرب الباب وابتعد ينتظر. فأحسّها تفتح الباب.. ثم انحنتْ لتأخذها فرآها جابر بصورة خاطفة وأصابته الدهشة إذ كان وجهُها ملطخاً بالدم.. ثم أخرجتْ يدها وأشارت إليه بأن يقترب.. فتردد قليلاً ثم فعل.. فمدتْ له برُبع جنيه وأصرت بإلحاح بيدها أن يأخذه من دون أن تنطق بكلمة.

وفي تلك الأثناء تمكّن جابر من أن يراها بصورة أوضح واكتشف كما أخبرني بأن في وجهها آثار خدوش كعلامة التعبير عن الحزن واللطم والحداد.. واعترف لي جابر بأن فيها ملامح جمالٍ غير عادي لكنه جمال مخفيٌّ. فقلتُ له أنني قرأتُ أنّ تلك من عادة اليهود. فقال لي جابر لعلها يهودية أو أن أهلها متأثرين بعادات وطقوس اليهود.

وبدأ الفضول ينمو لدينا لنعرف عنها المزيد وأخذنا جابر وأنا نتبادل مهمة الذهاب إلى الخالة **عُليّة** لتوصيل ما تحتاجه من مؤونة..!

---

[4] قفشات: بمعنى نُكت أو مداعبات أو تعليقات يضحك عليها المستمعون.

وبدا كأنها اعتادتْ على قدومنا.. فأخذتْ تفتح الباب لنا دون سوانا- على ما يبدو.. لكنني فكرّتُ.. ثم سألتُ جابر: كيف تشعر بطرقات الباب وهي "لا تسمع"؟! فقال لي: أنا كذلك سألتُ نفسي مثل هذا السؤال.. لكنني لَمَحْتُ حين امتد بصري وأنا أختلس النظر في داخل البيت وجودَ امرأةٍ عجوز نحيلة وضعيفة يبدو أنها مُقْعَدة تستعمل كرسيّاً متحرّكا.. فلعلها هي من تسمع وتشير إليها بيديْها.. بأنّ هناك من يطرق الباب. ووجدتُ تحليل جابر منطقياً. ولكنّ الفضول لدينا لم يتوقف عند هذا الحد. وقلنا من هي تلك العجوز؟ ولماذا حكمتْ عُليّة على نفسها بألاّ تخرج من بيتها وألاّ تخالط أحداً من الجيران؟

وذات يومٍ تجرّأتُ وسألتُ المعلم التونسي: هل لك قرابة بعمي علي فقال: قرابة بعيدة نوعاً وأهله كانوا جيراننا في **قابس**. فقلتُ: إذاً فهو تونسي. فقال أمُّهُ تونسية وأبوه ليبي وهو مولود في قابس ثم جاء إلى طرابلس وهو صغير ليعمل وظل يتنقّلُ بين فرنسا وطرابلس لأنّ أمَّهُ بقيتْ في قابس مع ابنتها بعد أن مات الأب.. فهل تعلم مَنْ هي أمُّ الحاج علي؟ إنها تلك العجوز التي رأيتها. فبعد أن تزوّجتْ ابنتُها من الشرطي **بهلول** أحضرها إلى هنا فجاءت أمها أيضاً لتعيش معها.

وفي يوم من الأيام.. وكان دوري.. في توصيل المؤونة إلى بيت خالتي عُليّة ففتحتْ ليَّ البابَ وابتسمتْ ابتسامةً خفيفة ولكنها لأوّلِ مرة وأشارتْ لي بأن أنتظر قليلاً وغابتْ.. وفي تلك الأثناء لمَحْتُ **شادية** ولم أصدّق عينيَّ.. حين أشارتْ بيديْها أنْ *تعال وأقْبِل*.. فتشجّعتُ وخطوْتُ للداخل بحذرٍ وكنت بطبعي أحبُّ المغامرة.. فاقتربتُ من **شادية** وهي في كرسيِّها المتحرك وأومأتُ برأسي.. فقالتْ: *إيجا سلّم ولدي.. عليك لامان.. إيجي ما تخاف*. فتشجّعتُ أكثر وأقبلتُ عليها فقالت: *أنا أم عمك علي.. وهادي عُليّة بنتي.. وإنتي شنوا اسمك*؟

فقلتُ لها: *سالم*. فقالت: *هكا سالم وخلاص. واسم بوك وجِدّك*؟؟ فابتسمتُ وقلتُ لها: ***سالم عمر منصور***. فقالتْ: *هكا صح. إيجا.. أيعيْشك. قوللي: شنو اسمها أمك*. فقلت: *زهرة. أأأ.. زهرة محمد علي*. فقالت: *عايشة*؟ فقلت *نعم الحمد لله ربي يحفظها*. *وعندي خوي أسمه سامي عمره خمس سنين*. فقالْت: *تعرف راجل بنتي بهلول*؟ *الله يرحمو. محسوب كإنو ولدي*.. فقلتُ لها أني لم أتشرّف بمعرفته شخصياً لكنْ كنتُ أعلم أنه شرطيٌّ شجاع ومخلص لعمله رحمة الله عليه. فقالت: *تعيش وترحّم.. سلّم ولدي.. أصلك طيب*. وفي تلك الأثناء وجدتُ خالتي عُليّة خلفي واقفة وبيدها كيس ملفوف. قالت شادية أنّ به "دقلة تونسية" لأمي فشكرتُها وخرجتُ مسروراً.

لم أتوقع أن أجد تلك السيدة الطاعنة في السن والتي تبدو متهالكة بتلك الشخصية القوية والثابتة. وعرفتُ في تلك اللحظة.. أن حُكْمَنا على الشخص يجب ألا يكون بالمظهر وإنما بعد التحاور معه.. فقد يأتي اللسان بما لا تستقبله العين.. فتلك امرأة عجوز ضعيفة مقوسة الظهر مُقعدة لا تتحرك إلا بالكرسي الدوّار. شعرها كحفْنةِ قِشّ.. وعيناها غائرتان وأسنانها مهشمة ويداها خشِنتان ترتعشان. وصوتها كآلة التشيللو الشرقي الحزين.. لكنّ عقلَها راسخٌ كالجبل..!

توطدت العلاقة بيننا فأخذتْ في كلِّ لقاء تحكي لي بصوتها العميق عن قصة **عمي علي** وكيف صار يتنقل بين قابس-فرنسا-طرابلس. مرةً لكي يبيع الدِقلة التونسية أو ليشتري بضائع ليست متوفرة هناك أو في أعمالٍ أخرى لا تعلمها شادية ويقال أنها في الفن...!

ولم تكن الحدود بين البلديْن تمثل عائقاً للتزاور ولا للتواصل.. فبات ابنها **علي** (مراد) يأتي في الصباح ويعود في المساء.. فالمسافة بين قابس وطرابلس تُقدر بنحو 300 كلم أو 4 ساعات لا أكثر. ولم يجد علي نفسه مضطراً لانتظار تأشيرة دخول أو تصريح عمل. بل إنّ الوجوه باتت معروفة واللهجة مألوفة. غير أن علي في بداية شبابه ارتكب بعض الحماقات وأقام علاقات مع غير الفُضليات من بنات العائلات المحافظات وإنما مع أخريات فمنهنّ نهلة وشهلة وسعاد ووداد. فهؤلاء كُنَّ مشجعات للضباط الفرنسيس والطليان.. قبل أن يُسْتَهْلَكنَ ويصبحن في متناول الشبّان العربان أمثال علي الجبالي.. ويعْمِلْنَ باليومية أو بالساعة حسب الرغبة والمكان والزمان..!

وترك **مراد الجبالي** التجارة بين البلديْن.. وما فيها من مجهود وسفر وتعب أليم.. لينتقل لتجارة *اللحوم البيضاء الحية* وما فيها من راحة ومتعة ونعيم.. وجرى بين يديه المالُ وفتَنَهُ الجمالُ يختال وأصبح **مراد** اسماً على كل لسان. في الشرق والغرب وفي الجنوب والشمال.. ولكن سرعان ما أرهقته الأثقال وأحاطت به الأهوال وخسر كل شيء في قابس حتى سُمْعته بين الناس.. بل وخسر أباه الذي لم يحتمل ما ألمّ به من همِّ الزمان وضيق المكان. وأصيبت أمه بالشلل إذ وقعتْ من أعلى السلّم في ليلة شتوية.. حين خرجتْ تنادي على ابنها لكي ينقذ أباه من نوبته القلبية.. فبقيتْ طريحة الفراش.

ورحَلَ مراد رحلة مهزوم مهموم إلى بلاد البرد و***الغيوم*** لكي لا يعرفه أحدٌ من الخصوم وليعيش كالنجوم. متناسياً أنّ له أمّاً أرملةً حزينةً عليلة.. وأختاً صبيةً بلا مأوى وحيلة. فأما أمُّهُ فلم تجد باباً مفتوحاً إلا دار العجزة وما أدراك ما دار العجزة.. وأما الصبيّةُ اليتيمة الطريّة **عُليّة** فأُجبرتْ على الإيواء بدار اليتيم.. وما أدراك ما دار اليتيم..!

وبعد سنواتٍ عدّة.. مرّتْ كأنها رَقْدة[5]. جاء رجلٌ ميسور الحال غزير المال يبحث عن طفلة بنتٍ لكي يربّيها.. فاقترحتْ عليه الدارُ **عُليّة** كوْنِها فتاةً ذكيّة شبه يتيمة لكنها أبيّة وذاتَ شخصيّةٍ قوية فتكفّل بها ووعد بحُسن رعايتها.. بعد أن ماتتْ خليلته ولم تترك له بنتاً ولا ولداً. وعاشت عُليّة أميرةً عزيزةً بهيّةً وتقرّب مِنْ حولها الأقاربُ.

فأبدوا عطفَهم عليها وحرصهم على راحتها وسعادتها ووفروا لها كلَّ ما أرادته نفسُها ورغبتُها. لكنّ "أباها" مات فجأة ولم يبقَ لها نصيبٌ مما كتبَ لها. إذ تكالب عليه الأقاربُ العقاربُ من بعده ونهبوا كل ما تركه وأخلفوا وعده. فوجدتْ **عُليّة** البريئة نفسَها في الشارع..!

وكان مرادُ حينها لم يَعُدْ بعْدُ من رحلاته ولم يَفقْ من مغامراته ببلاد الغيوم فأخذتْ الفتاةُ البهيّة **عُليّة** القويّة تخوض في الموج العنيف المتدفق.. ولا تبالي بمن يهزأ ويصفّق ولا بمن يحملق ويتملّق.. حتى عثرتْ بالفعل على أمها بعد بحثٍ محموم وهي تعاني الهموم والحظ المشؤوم في دار العجزة. فلم تجد بُدّاً لكي ترعى أمها من أن تخدم في البيوت وتتحمل قسوتها وشفقتها. فتارةً كانت تتعرّض للإغراء وتارة للأجرِ الزهيد.. وتارة تمتد إليها يدُ الطمع وتارةً النقدُ الشديد.. لكنها ظلت صابرة وكأنها كان لها رصيد مما بذلته من عقل رشيد وعنيد.

وتعرّضتْ **عُليّة** كفتاة حسناء في تونس الخضراء لكلِّ أصنافِ الإغراء لكي تخدم بأقل عناء فانزلقتْ في البغاء ولكنها أفاقتْ ورفضتْ وقوّيَتْ ولم تستسلم.. وقررت أن تتوب بل وأصرّتْ على أن تخدم البيوت وتمسح الأرضيات لكي تنسى دموع الحسرة والندم. ودفعتْ الثمن باهظاً من صحتها وجمالها وصبرها ومن قوة مناعتها.

---

[5] رَقْدة: في القاموس بمعنى نوْمة كأن تقول أخَذْتُهُ رقدةً قصيرة في الظهيرة.

سي لحبيب

وظلّتْ **عُليّة** تصارع ظروف الحياة بكل ما أوتيت من قوة. وحمدتْ اللهَ كثيراً على أن أمها ها قد تحسنت صحتُها وصارت تعي ما حولها بعد أن غابت عن الإدراك لأكثر من سنة أليمة تامّة. فقررتْ أن تقيم معها في غرفة صغيرة بالإيجار بعد أن كان شمْلُ الأسرة مشتتاً وإلى أن يعود مراد من سفره البعيد ويلتئم الجُرح وتعود البسمة للوجوه..!

قاومتْ عُليّة رغم قلة تجاربها بالحياة وقسوة الأمواج بكل شجاعة وتمكنت من كبت عواطفها حتى لا تبدو ضعيفة بل أظهرت قدرتها على التحمل وأخفت أسرارها ولم تخالط أحداً حتى زميلاتها بالعمل وفصل الدراسة. فهي لم تكن تأمن لأحد بعد ما رأتْ ما رأتْ وخافتْ من غدر الزمان وأقاويل الحساد وغدتْ تعمل وتُجِدُّ وتشقى وتتعب لتعود إلى أمها العليلة القعيدة في غرفتها المظلمة الوحيدة.. بقلبٍ كسيرٍ موجوع ولكنْ برأسٍ مرفوع.. لتُطعمها لُقمةً هنيّة.

وإلى جانب عملها خدّامةً في البيوت قررت عُليّة في نفس الوقت أنْ تلتحق بمعهد التمريض تحت التدريب.. مهنةً اقتنعت بها حين رأتْ أمَّها المريضة الغائبة عن الوعي.. وكيف كانت ملائكة الرحمة يعتنين بها ويخدمنها ويساعدنها.. من دون أن تكون لهنّ بها صلةٌ إلا صلة الرحمة والإنسانية. فوعدت الله بأن تكون مثل واحدةٍ منهن..!

وأخذتْ العيونُ الجشعة تتربّص بها في السر والعلانية. فكيف لأميرةٍ مِثْلِها أنْ تقبل بكل الشقاء ولا ترحم نفسها ولا أمها من قسوة العناء. فلا تستجيب لمنْ يجعل منها نجمةً في السماء؟! فلم يكن مطلوباً منها سوى إشارةٍ بطرفِ إصبعها لتجد الأرض مفروشة أمامها بالورد والحرير. أما أخوها الغائب **مراد** فلم يَعُدْ بعد من رحلته بالخارج.

وفي إحدى الليالي رجعتْ عُليّة متأخرة من عملها قُرب الفجر. فرأتْ أمَّها لا زالت مستيقظة تتشوّق لرؤياها لكي تبوح لها ببشرى أسعدتْ المسكينة المكبّلة بالكرسي المتحرك.. ورأتْ فيها بارقة أمل في أن يرحمهما الزمان أخيراً من تلك العيشة الخانقة. إذ قالت لها أنّ **السي لحبيب** أتاها اليوم يزورها ومعه زهور وفواكه وشوكولا..!

فاستغربتْ وتعجبتْ عُليّة وهي مُتْعَبَة وتساءلت من هو *سي لحبيب* هذا الذي تقصده أمُّها؟ فهي لم تسمع به من قبل. فقالت شادية: كيف لمْ تسمعي به وأنتِ من وقّع معه على العقد؟! إنه سي لحبيب صاحبُ العمارة. فانتبهتْ عُلية لأنها قرأتْ بالفعل اسمه على عقد الإيجار لكنها نسته. فهي لم تتعامل معه شخصياً ولو رأته في الشارع فلن تعرفه. فقالت أمها: تلك هي المرة الأولى التي يأتي فيها.. السي لحبيب ولم تره هي الأخرى من قبل. ولكنها سبق وأن سمعت عنه وعن اسمه وغناه ومكانته.. ومن لم يسمع عن سي لحبيب..؟!

لكنْ.. كيف تنازلَ ورضيَّ بأن يزورهما وهو صاحب عدة عماراتٍ في الحيّ؟! فحتى حينما استأجرتْ عُليّة الشقة كان الوسيط هو من قام بالإجراء. أما اليوم فها أمها تقول أنه قد أتى بجلالة قدره.. فأوصلهُ البوّاب **عدنان** وانسحب. وقالت شادية: دخل عليّ وسلّم وعرّفني باسمه فتلعْثمْتُ وارتبكتُ واستسمحتُه عذراً.. على أنّي لا أستطيع النهوض من الكرسي للترحيب به وبمقامه. وقالت: صاحب العمارة سي لحبيب يأتي بنفسه ليزورنا لأول مرة.. شيء عجيب..!؟
فمنذ أن سكنّا هذه الغُرفة الضيّقة المظلمة الرطبة تحت السُلّم. لمْ يَزُرْنا أحدٌ.. إلاّ **سي لحبيب** يأتي اليوم بنفسه بكلّ تواضعٍ ويجلس بجواري أنا المُقْعدة الفقيرة.. شيء عجيب؟! بل ويُحضر معه الورد والفاكهة والشوكولا.. إنها المرة الأولى التي يزورنا فيها أحد؟

فها هو اليوم السي لحبيب أتي ليطمئن علينا بنفسه.. تعرفي يا بنتي يا عُليّة؟ لم أكن أعلم بأنه رجلٌ بهذه الشخصية أبيض الوجه أحمر الخديّن عيناه زرقاوَيْن شَعْرُهُ بنيٌّ ليس فيه خصلةُ شيبٍ وعُمْرُه ربما في منتصف الخمسين لكنْ كله نشاط وحيوية ملابسه كلها حرير وله طاقيّة حمراء زمنيّة.. فكّرني باللبسة العُصْماليّة.. سألَ عنكِ وعما تعملين؟ وحين أخبرتُه بأنك تعملين في البيوت وتذهبين إلى معهد التمريض.. نظر إلى السقف ثم ابتسم وقال: حرام.. بنتك تستاهل أحسن من هكا.. تستاهل عمل مريح.. وتستاهل *أراجيح*؟!

لم أفهم ماذا يقصد *أراجيح* هذه؟ أعتقد أنه يريدك أن تخدمي عنده في بيته أو أن تقومي برعاية زوجته أو أمه المريضة.. لكنه لم يقل لي شيئاً عن ذلك. لقد خجِلتُ أن أسأله وأستفسر منه عن العمل الذي يريده منك. وترك لكِ رقم التلفون وقال ليتكِ تتصلين به.. إنه في منتهى الأدب والذوق بالفعل. تصوّري أنه قال ليتكِ تتصلين به..!!
إلى هذا الحد هو مؤدّب ولطيف يا عُليّة..؟ ليت أصحاب العمارات والأغنياء كلهم هكذا لطفاء رحماء كرماء. لكنّ عُليّة لم تصغ إلى أمها في تلك الأثناء.. إذ كانت من شدة التعب والإعياء.. بحيث أوت إلى فراشها من دون أن تتناول أي طعام.. رغم الحاح أمِّها الشديد !
في الصباح كرّرتْ الأم على مسامع ابنتها ما جرى بالأمس من حدثٍ مهم.. وذكرتْها بكرْتِ السي لحبيب الشخصي ورقم تلفونه.. وكانت عُليّة في عجلةٍ من أمرها.. فتناولتْ تلك القُسيْمة ولم تقرأ ما فيها.. ولم تُلْقِها بالاً ودسّتها في جيبها وخرجتْ إلى عملها كالعادة مسرعة.

وفي الليل عادتْ عُليّة متأخرة ومُرهقة تجرُّ قدميْها جرّاً من شدة التعب.. ورمتْ بجسدها على السرير رمْياً حتى أخذ يئِنُّ. ولم تتكلم مع أمها.. التي أرادت أن تعرف نتيجة اتصالها بالسي لحبيب.

فما كان منها إلا أن قالت أنها لم تجد الوقت للاتصال به وستفعل ذلك في وقتٍ قريب.. وهكذا مرّت عدةُ أيام على تلك الوتيرة.. إلى أنْ عادتْ عُليّة في إحدى الأمسيات مبكراً على غير عادتها. فاندهشتْ أمها حين رأتها مبكّرة هكذا. فقالت عُليّة : *ماني كلمتو سي لحبيب .. واتفقت معاه باش نمشيْلو غدوا الصباح.. قبل العمل*. هيا.

فابتسمت شادية وهي تسمع ذلك الكلام والذي طالما انتظرته من ابنتها وقالت: *إيعيشك سلّم بنتي*. وتساءلت في داخلها عن سر عودة ابنتها كل ليلة قرابة الفجر فأي بيوتٍ هذه التي تقوم بتنظيفها آخر الليل..؟! أم أنها تعمل ممرضة بالفعل وتقوم بأداء المناوبات. لكنها ها هي تخبرها بأن ما تحصّلتْ عليه من أجر يكفي بالكاد لمعيشتهما الخانقة هذه. أيُعقل أن تعمل كل تلك الساعات الطويلة المريرة ولا تتقاضى إلا أجراً زهيداً؟! مسكينة ابنتي المسكينة كم هي مُضحْيّة؟!

لو كان الأمر بيدي لَقُمْتُ بأيِّ عملٍ لكي أساعدها.. فهي فتاةٌ تحلم ككل فتاة بأن تتزوج وتكون لها أسرة وبيت ومستقبل.. فكيف لي أن أساعدها وأنا لا أستطيع مغادرة هذا الكرسي اللعين يداي ضعيفتان ونظري مشوش وليس عندي جهد للقيام بأي عمل..؟! ومراد الله يهديه غائب لا يسأل عنا ولا نعلم عنه أي شيء من يوم أن سافر.
ولا أكاد أن أطبخ الطعام لو أن **عدنان** البوّاب لم يساعدني في ذلك.. إنه شابٌّ طيّب يطلُّ عليّ كل يوم.. ويسألني عما إن كنتُ أحتاج أي شيء من السوق ويحضر لي بعض الخضر والخبز البائت ولا يسألني عن ثمنه بل يقول لي أن التجّار يعطونه ذلك بالمجان. فماذا عليّ أن أفعل سوى أن أعطيه قليلاً مما أطبخه فيأكله بجواري بنهمٍ شديد ويقول لي أن طعامي لا يُعلى عليه. لعله يبالغ في هذا القول.. لكنني أتذكّر كم كان زوجي يحبُّ أكلي حين كنتُ شابةً بصحتي ونشاطي.

أما عُليّة ابنتي المسكينة.. فلا تجد الوقت لكي تشتري لنا من السوق ما نحتاجه للأكل إلا في يوم العطلة. أما في أيام الأسبوع فتخرج مبكّراً وتعود متأخرة غالباً قُرب الفجر.. وفي جيبها أجْرٌ زهيد. يا لها من مسكينة. وحتى الطعام الذي أطبخه لها لا تنال منه شيئاً. تقول لي أنها أكلت في مقر العمل. فماذا عساها أكلت وهي هزيلة هكذا؟!

لا. إنّ قلبي يحدثني بأن هناك سراً. سأطلب من عدنان أن يبحث لي بهذا الشأن. فلقد باتتْ عُليّة تتجنب أن تحاورني أو تتحدث معي.. أو حتى أن تحكي لي عن عملها وعن الناس الذين تخالطهم وتتعامل معهم في مقر عملها.. سأطلب من عدنان أن يتتبع خطاها ويأتي لي بما يطمئنني عنها ويريح قلبي.. أتمنى أن تجلس ابنتي الوحيدة معي لتسامرني وتضحك معي أو حتى لو تشكو لي ما لديها من هموم ربما. لكنها تتركني طوال النهار وعندما تعود في أواخر الليل تبدو مجهدة فلا تريد شيئاً إلا أن تنام. ما هذه الحياة؟ ألستُ أنا أمها؟ أوَ ليْس لي حقٌ عليها؟ يكفي أنني مشغولة عنها وهي غائبة طوال النهار والليل فكيف بي وأنا لا أستطيع أن أكلّمُها أثناء وجودها لساعات قليلة وهي بجواري منكمشة في الفراش تئن من التعب وتحلم بالكوابيس؟ فكم من مرة تستيقظ مذعورة وهي تتصبب عرقاً وكأن وحشاً يلاحقها..!

سأطلب من عدنان أن يتتبعها من دون أن تراه.. ومن ناحيته سوف لن يرفض طلبي.. فهو يسألني مراراً إن كنت أريد أي مساعدة منه. وها هو وقت المساعدة قد حان. سأترك باب الغرفة مفتوحاً لكي أراه حين يمرّ وهو يصعد السلم لقضاء حوائج السكان. وسأطلب منه أن يبدأ في البحث عن السر منذ صباح الغد.. لكنْ من دون أن تحسَّ به أو تشكّ في أمره.. فأنا أعلم أنها ذكية ويقِظة.. ولذا يجب عليه أن يتصرف بذكاء وحكمة لكي لا يفضح نفسه ولا يفضحني.

بعد أيام قليلة لكنها طويلة على السيدة شادية قال لها عدنان أنه تتبع خطوات عُليّة خطوةً بخطوةٍ من دون أن تشعر به فقد ارتدى نظارةً شمسية وثياباً غير مألوفة- وقال أنه وجدها تذهب إلى فندقٍ سياحي تعمل فيه من الصباح وحتى المساء وأحياناً تستمر في العمل حتى آخر الليل.. لكنّ لم يخبر شادية بالحقيقة.. فلم يقل أنه رآها تدخل إلى ملهىً تقوم بتنظيفه في النهار وتسهر وتعمل فيه بساعات الليل إلى أن تخرج منه في ساعة متأخرة أو قبيل وقت الفجر. وذات ليلة أطل بداخل الملهى وهو يرتدي بدلةَ العيد ولبس نظارةً طبية وبدأ كأنه يريد أن يسهر فرآها تُقدِّم الأنخابَ للساهرين بالحانة.. وتتمايل بينهم وتضحك معهم وتجاملهم وهي في كامل زينتها..!
ولم يشأ عدنان أن يُخبِر شادية بما رأى لسببين. أولاً حتى لا يخيّب ظنها ورجاها في ابنتها ويُحزنها.. وثانياً لأنه يحب عُليّة ويتمنى أن ترضى به زوجاً لها ولكنه لم يمتلك الشجاعة ليفاتحها في هذا الأمر.

أما الآن فيبدو وكأن الحظ قد طرق بابه.. لكي يطلب يدها مقابل أن يسترها ولا يبوح بسرها لأمِّها. فسألته شادية عن اسم الفندق الذي تعمل فيه ابنتها.. وتساءلت لماذا لم تصارحها بذلك؟ وما الخطأ في أن تعمل في فندق وتداري عنه وتُخْفيه وتخبّئه؟ ولماذا تكذب على أمها وتدّعي بأنها تعمل في بيوت الناس وتذهب إلى معهد التمريض؟

فطلب عدنان من شادية أن تتمهل وتتريّث ولا تُفاجأ ابنتها بتلك التساؤلات لأنها إن فعلتْ فسوف تجعلها تشكُّ في أنّ هناك من أتى لأمها بتلك المعلومات.. وبأنه شخصٌ قريبٌ في السكن منها.. وهنا ستفكّر في عدنان لأنها تعلم أنه يتردد عليها ويلبّي لها طلباتها. ولذا طلب من شادية أن تصبر وتتريّثْ إذا أرادت أن تحفظ علاقته بها.. ولا تضيّع الودَّ بينهما كأنه ابنها. فوعدته شادية بذلك..!

وسألتْ شادية عدنان عن الكيفية التي يراها مناسبة لتستفسر منها عن سر تأخرها في العودة ليلاً حتى ساعة الفجر في كثيرٍ من الأحيان.

فقال لها الشابُّ الذكي أنه يرى من الأفضل لو سلّمتْ أمامها بأنها ممرضة تحت التدريب فتسألها عن المرضى الذين تعالجهم؟ وبماذا تقوم من عمل لكي تخفف عنهم من آلامهم؟ وهل هم من العجزة مثلها؟ ما نوع الأمراض التي يعانون منها؟ لكي تخلق معها حواراً ربما يمنحها الشعور بأن أمها تصدقها وتستريح ناحيتها ولا تقلق عنها؟!

كما لم يملك عدنان الجرأة ولا الشجاعة بأن يبوح للعجوز برغبته في أن يقترن بابنتها مخافة أن تصده فهو مجردُ عاملٍ بسيط أو بوّابٍ في عمارة ليس له أي نصيب من تعليم ما أو خبرة في حرفة ما. فقد جاء من الريف وتحديداً من **قرية برج الصالحي** المعروف عن سكانها بأنهم من الصُمِّ البُكم.. إلا **عدنان** فقد تعلّم النطق والكلام ثم هرب من قريته إلى تونس العاصمة حتى وصل قابس فاستراح لأهلها..!

ولم يجد أفضل من عمله كبوّاب عمارة عند سي لحبيب.. ومنذ أنْ رأى عُليّة وهو مفتونٌ بها ولا يفكر إلا فيها حين جاءته ذات يومٍ.. تسأل عن غرفةٍ للإيجار قرأت عنها بالجريدة فظل يُقنع سي لحبيب بأن يوافق على تأجيرها لها ولأمها المُقْعدة وبأقل من سعرها المعتاد إلى أن وافق على التخفيض ورضيّ بهما مراعاةً لظروفهما القاسية..!

وكان بودِّ عدنان أنْ يقدّم لهما غرفةً أفضل من تلك.. تحت السلم لكن ما باليد حيلة. علاوة على أن امكانيات عُليّة لا تسمح بسداد إيجار أعلى من إيجار تلك الغرفة البائسة الرطبة.. ولو لحين.

ونشأتْ بين الثلاثة: عدنان وعُليّة وأمِّها- منذ ذلك اليوم علاقةٌ فيها نوعٌ من تعاطفٍ أو اعجابٍ أو شفقةٍ.. أو مزيجٌ من هذا وذاك..!

وصار عدنان يطل كل يوم على السيدة شادية بعد خروج ابنتها في الصباح الباكر للعمل.. فيسألها عمّا إن كانت تريد أي مساعدة أو أي شيء من السوق.. وحين استلطفتْهُ شادية وألفتْهُ أخذتْ تستقطع له شيئاً مما تطبخه في صحنٍ خاص سمّته عليه: ***اصحنْ عدنان***..!
وبدأ بدوره يجلب إليها معه ما يحصُل عليه من بقايا الخضار والخبز والعظام ورؤوس الدجاج وبقايا السمك من السوق بالمجان.. لكي لا يرميها.. كما أنه لا يُحسن التصرف فيها.. بينما استطاعت شادية بالرغم من مرضها وعجزها أن تطبخ منها ما يؤكل.. بل وما يُعجِبُ عدنان وما يغنيه عن البحث عن وجبات بالشراء أو بالطُلْبَة. ويقول أن طعامها لا يُعلى عليه ولم يذق أشهى منه وألذ في سابق حياته.

ويذكر عدنان حين قال له سي لحبيب أنه يريد أن يرى الفتاة التي تسكن بالغرفة السفلية مع أمها.. وقد لمحها تعود في المساء أحياناً. ولم يسأله عدنان عن السبب الذي يجعله يسأل عنها ويريد رؤيتها. بل ساورَهُ الشكُّ بأنّ سي لحبيب رأى عُليّة بعين المُعجب فأوجس منه خيفة.. وأراد أن يبعدها عنه. فقال له أنه من الأفضل أنْ يزور أمها ويسألها عنها بدل أن يتحدث معها بصورة مباشرة على أساس أنهم من منطقة محافظة لا تسمح لفتياتها بلقاء رجلٍ من دون إذن أهلها. فاقتنع سي بحبيب برأيه.. فأوصله إلى أمها.. وزارها بالفعل.

وشعر عدنان بالحيرة والقلق.. فهو من ناحية يحبُّ عُليّة ويتمنى أن تكون له زوجة.. ومن ناحية أخرى هو لا يملك من مقومات الزواج شيئاً لا بيت ولا مرتب محترم يصرف به على زوجة وأسرة ولا مهنة تجعله ينال رضاها. ومن ناحية أخرى رآها تعمل في وكرٍ لا يخلو من الخطر في ظاهره ملهىً ليْليّاً قد لا يعدو كونه مقهىً.. ولكنه في باطنه قد يجر قدمها إلى الهاوية.. كما جر ملايين الفتيات من قبلها.

فكيف له بأن ينقذها من ذلك المصير المشؤوم والمجهول؟! ومن ناحية أخرى ها هو يشكُّ في سي لحبيب من حيث أنه ربما يتربّص بها ويريد أن ينال منها ما لا يرضيه بأي حال من الأحوال. فماذا عليه أن يفعل ليُبعد عنها كلَّ تلك المخاطر ويهنأ بها؟ وهل سوف ترضى هي به؟ وشعر بعدنان أن القلق والحيرة يتفاقمان لديه يوماً عن يوم وكأنه هو المسؤول الأول عن عُليّة وما يحيط بها من مخاطر. فهل له الحق في ذلك أم أن أمرها يجب ألاّ يعنيه من قريب ومن بعيد..؟

لم يشأ أن يبوح لأحدٍ بما يشعر وليس له أصلاً من يمكنه أن يناقشه ويثق به في تلك الأمور. ولم يتشجع بما فيه الكفاية لأن يكلّم عُلية أو أمها مخافةَ أن تصده إحداهما وتهزأ به ولم يصارح شادية بما رآه في الملهى الذي تعمل فيه عُليّة لكي لا يصدمها ولا يضيّع فرصته مع عليّة لو علمت بأنه "يتجسس" عليها حتى لو كان ذلك في صالحها.

خطر بباله أن يسأل أحد رجال الدين الذين يصلّي وراءهم بين الحين والآخر في المسجد القريب كلما سمحت له الظروف بأن يصلّي (؟!) لكنه عدل عن تلك الفكرة مخافة أن يبوح أولئك بسره لمن في الحي فتصبح سيرته وقصته على كل لسان وينفضح أمره. بل رأى أنه من الأسلم له أن يكتم سره في صدره ولا يُخبر به أحداً. أما السي لحبيب فقد حيّره أمره هو الآخر. فماذا عساه يريد من فتاة فقيرة منكوبة؟! صحيح أنها جميلة ونشطة ولكنها ليست كبقية الفتيات اللائي في الحي يتهافتن على سي لحبيب.. ويطْلبْنَ ودَّه وكرمَه وعطفَه..!
فعليّة رغم فقْرها وبؤسها ذات شخصية قوية وعزة نفس عالية.. غير أنها تبدو لعدنان كأن بها إحساساً دفيناً بالحزن والمرارة فهل هو ناجمٌ عن شعورٍ بالذنب ربما؟ وأيُّ ذنبٍ اقترفته؟ ألها ذنبٌ في أنها فقيرة ومحرومة رغم جمالها وحُسن طلعتها؟ أليست مظلومة..؟!

لم يتوقف عدنان عن الأسئلة كما لم يتوقف عن تتبع خطوات عُليّة يوماً بيوم بل ساعةً بساعة.. كلما أتيحت له الفرصة أن يسعى وراءها ليعرف أين تمضي؟ وماذا تفعل؟! حتى تعود إلى غرفتها مع أمها.

ذات صباح وكان يقوم بتوصيل بعض الطلبات لشقة من شقق تلك العمارة فرأى عُليّة تخرج إلى الشارع مبكراً.. وترتدي أجمل فستانٍ لديها فاستغرب لأنه كان يوم الأحد أي اليوم الوحيد الذي تستريح فيه. وحتى إن كانت تخرج فيه للعمل فإنّ ثيابها تناسب الخدمة في البيوت وليست لحفل أو مناسبة اجتماعية.. فتتبعها وأراد أن يعرف إلى أين تمضي في تلك الساعة المبكرة وبتلك الهيئة البهيّة؟ لكنه لم يشأ أنْ تراه يتتبعها. وحين لمحها تركب الحافلة من الأمام صعد هو من الخلف فنزلت بعد محطتيْن واستقلّت عربة ركاب يجرها حصان فجرى وراءها فوصلتْ مبنىً أمامه حديقة مسيّجة بأشجار.. ولها بوابةٌ حديديةٌ كبيرة يقف أمامها رجلٌ متقدمٌ في العمر يحرُسها.
فعبرتها عُليّة بعد أن حيّتْ ذلك الرجل. فانحنى لها وابتسم وبدا كأنه يعرفها إذ دخلتْ من غير أن تكلّمه. فاقترب منه عدنان وصبّح عليه. فردّ الرجل بكل ترحاب فجرى بينهما حديثٌ طيب حين قدّم عدنانُ سيجارةً للرجل وسأله عن هذا المبنى.. فأخبره بأنه **دار اليتيم**.

فقال له بأنه ينوي الحضور مرة أخرى مع عمّه الذي يريد أن يتبرع بمبلغٍ من المال لصالح الدار. فقال له الرجل أنّ كثيراً من أهل الخير يأتون ليتبرعوا مثل هذه الآنسة الثرية التي دخلت منذ قليل.. فهي كذلك ميسورة الحال تأتي مرة في كل شهر لتتبرع بقيمة مجزية من المال لأطفال الدار.. وإن أراد أن يأتي مع عمِّهِ.. فعليه أن يسأل عن المديرة السيدة **فريال** فهي المسؤولة وهي "الكل فالكل هنا". فسلّم عدنان عليه وودّعه وقال له أن سيعود مع عمه في القريب.

الطفل معتز

استقبلتْ المديرة **فريال** ضيفتها ميسورة الحال الآنسة **عزيزة** (والتي اسمها في واقع الأمر **عُلية**!) ببالغ الحفاوة.. فهي تأتي بنفسها كل أول أحد في الشهر للتبرع لصالح دار الأيتام.. واعتادت أن تسلّم المبلغ بيدها إلى يد السيدة المديرة فريال.. وكانت قد طلبت منها في أول لقاء بينهما أن تتكفّل بطفلٍ من الدار منذ ولادته على أن يبقى في الدار إلى أن تُتِمَّ المشاريع التجارية الكبيرة التي تركها والدُها لها قبل أن يموت.. وهي مشاريع مترامية الأطراف في أنحاء الجمهورية التونسية وتتطلب منها التفرغ ولا تسمح لها بالارتباط حتى بزوج. كما أوصاها والدها بألا تثق في أحد وتسلّمه أي مسؤولية وأن تقوم بها بنفسها إلى أن تطمئن عن سيرها في الاتجاه الصحيح.

لكنها –رغم عدم تمكنها من الزواج والإنجاب- أرادتْ أن تَكْفُل يتيماً ربما تتمكن لاحقاً من رعايته. هكذا بررتْ الأنسة عزيزة قدومها إلى دار اليتيم لتختار من الرُضّع طفلاً بنفسها فرحّبتْ بها المديرة **فريال** وقامت بجولة لترى الطفل الذي ترتاح إليه وتخيْرتْ له اسم **معتز** إذ قالت أنه اسم *أخيها*.. الذي فقدته وعرفت مولوداً معيناً بملامحه المميزة فهو ذو عيْنيْن عسليّتيْن وله شعرٌ أحمر. مثلها بالضبط..!

هذا الرضيعُ اليتيم - في واقع الحال- هو طفلها ومولودها. حملتْ به بعد أنْ اعتدى عليها أحدُ زبائن الملهى التي كانت تعمل فيه ليلاً في حين كانت أمها في غيبوبة بالمستشفى العام وأخوها مراد في الخارج.

وبعد تسعة أشهر وضعته في المستشفى العام. بينما أمُّها لا زالت في غيبوبة. ثم تمكنت بمساعدة الممرضة (**هدى**) أن تهرب به في الليل أثناء مناوبتها.. مقابل أن تدفع لها مبلغاً سخيّاً من المال كأتعاب.

وبدل أن ترعاه وتربّيهِ ككلّ أمٍّ التقطتْ له صورة لكي تحتفظ بها. ثم وضعته في صندوق كرتونيٍّ ووضعت معه زجاجةَ حليبٍ وحفاظةً ولحافاً من قماشٍ قطنيٍّ.. وأتتْ به - قُبيْل أذان الفجر أمام مدخل **دار اليتيم**.. وظلّتْ تحْرُسُهُ من بعيد إلى أنْ تأكّدتْ من أنّ أحداً من الدار التقطه وأدخله.. وبعد مرور أيامٍ قليلة.. لبِستْ فستاناً راقياً وتزيّنتْ وأتتْ بعربةِ ركابٍ يجرُّها حصانٌ (كروسة) وهي بأبهى صورة لها.. على أساس أنها الآنسة **عزيزة** ميسورة الحال لكي تكفله..!

أما الممرضة **هدى** فكانت تعمل أيضاً في دار اليتيم إلى جانب عملها في قسم الولادة. فوعدتْ عُليّة بأن تهتم بطفلها معتز اهتماماً خاصاً بينما أخذتْ المديرة فريال ترحب بالآنسة عزيزة كلما جاءت لسداد المبلغ ولترى الطفل معتز الجميل برفقة الممرضة هدى لكي تضمه إليها لعدة دقائق فتلاعبه وتناغيه وتستمتع بالنظر إليه ثم تودعهم على أمل اللقاء بعد شهر.. فتخرج بنفس الحفاوة والإكرام.

وتعود عُليّة لعملها السابق وشقائها المستمر ولكي تواري عن أمها ما هي فيه من صِراعٍ وحَسْرة وحِيرَة.. فهي فتاةٌ تعيش وكما رأيناها بعدةِ وجوهٍ في آن واحد ومن حولها عدةُ أشخاصٍ متربّصين بها.. وآخرين متابعين لها وغيرهم مولعون ومشتاقون إليها كأنها نجمةٌ في السماء.

وهي حريصة على ألاّ يعلم عنها وعن أسرارها أحدٌ من الناس مهما كانت علاقتها به سوى **هدى** التي أتى القدرُ بها أمامها.. فلا مفرَّ لها منها.. وستحاول اسكاتها بالمال.. ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً. فلا ثقة في أحدٍ ممن حولها مهما بدا عاقلاً طيباً مخلصاً ومتعاطفاً معها.

فيوم أن وضعتْ ثقتها في أحد منهم وهي مستسلمة للوعود.. غدر بها واعتدى عليها ورماها ونفذ بجلده وتركها تتقلب مع جنينها..!

وبعد طول تفكيرٍ وتمحيص وتقليبٍ قرر عدنان أن يقول للعجوز أنّ ابنتها تعمل بالفعل في فندقٍ بعيد ومنتسبة لمعهدِ تمريضٍ كذلك.. فاطمأنّتْ شادية وشكرتْ عدنان على تعبه واهتمامه. إلاّ أنّ عدنانَ لم يفعل ذلك محبةً في شادية أو إمعاناً في تضليلها.. وإنما لكي لا يُفسد علاقته بعُليّة فلعلّ قلبَها يميل إليه في يوم ما وتستجيب إليه وتصبح زوجةً له.. بالرغم من أنه في داخله يعلم جيداً أن هذا الحُلمَ بعيدٌ كبُعد السماء عن الأرض. لكنْ لعل وعسى يأتي الله بمعجزة..!

وظلّ عدنان يتردد على شادية. ويُحضر لها معه ما توفر له من بقايا خُضرٍ وخُبزٍ وفاكهةٍ وسمكٍ ورؤوس دجاجٍ وعظامٍ مجرّدة من اللحم كان مصيرها الرمي بعربات القمامة. لكنّ شادية المتهالكة لم تصنع منها وجباتِ طعامٍ يسدُّ الرَمَقَ فقط بل ما ألذّ منها ولا أشهى في نظر عدنان وحسب حاستي الشمّ والتذوق لديه وهو بهذا أراد أن يضرب عصفورَيْن بحجر واحد. فبُقربه من شادية ضمن وجبات طعامه.. كما حافظ في نفس الوقت- على الخيط الرفيع الذي يربطه بحبيبة القلب عُليّة. أما عن الخسارة فإنه لا يخسر شيئاً ولا يجازف بشيءٍ!!

ومرّ الزمن ولم تصدّق عُليّة نفسها حين رأت طفلها معتز ذات يومٍ وهو يترك يد الممرضة هدى ليركض ناحيتها بعد إذ غابتْ عنه شهراً كاملاً ولم تستطع زيارته خلاله في الدار. فرأته قد صار صبياً وسيماً كم ذكّرها بأخيها المغترب مراد في هيئته وشعره الأحمر وعينيه.. ثم استأذنت المديرة فريال في أن تأخذه معها لبضع ساعات فوافقت.
وأخبرْت عُليّة ابنها بأنهما سيزوران جدّته (أمها) - وهي تناديها باسم عُليّة وليس عزيزة.. لأن عزيزة هو الاسم الذي عُرفت به في العمل.. ففهم الصبي الذكي. وما أن دخل على شادية حتى اندهشتْ إذ رأتْ فيه ابنها مراد وهو صغير. فقالت لها ابنتها أنه ابنها بالتّبنّي..!

وكانت قد أخبرت أمها قبل ذلك بأيام أنها تكفلت بطفل بدار اليتيم تقرباً إلى الله (وهي في الواقع تسعى إلى مغفرته وعفوِّهِ عما اقترفت). فأكبرتْ فيها أمها هذا الصنيع.. وفهمت لماذا كانت تبذل جهدها في العمل وتعود بأقلِّ المال. بينما حرصت على تخصصيه لتربية يتيم. وتعلّق معتز "بجدته" لما بينهما من جيناتٍ مشتركة. وأدخلته هي في وجدانها وتمسكت به وتمنت لو أنه يعيش معها. لكنّ أمّه سرعان ما عادت به إلى الدار ليُكمل سنواتٍ أخرى برعايةٍ أفضل وأمنٍ وسلام. وظلت تسدد أقساط التبرع الشهري بواقع مئة ديناراً عن كل شهر.

وبقيّتْ شادية تعيش أغلب النهار بمفردها دونما أنيسٍ إلاّ من طلّةِ عدنان لبرهةٍ قصيرة. أمّا ابنتها فلم تزل تأتي بآخر الليل مرهَقة لتجد أمها في انتظارها.. أو وهي تغطُّ في نومٍ عميق بعد أن أعياها الانتظار الطويل.. ولم يعُدْ لديها ما تسأل عنه ابنتها أفضل من **معتز**. *شنوّا حوال معتز ؟وين مشا وشنوّا كلا وشنوّا شربْ معتز. اوين هوّا توّا ؟*! فابنتها لم تقلْ لها الحقيقة بل أخبرتها فقط بأنها تكفّلت به وسوف تجعله يعيش معهما حالما تستقر الأمور وتتحسن الأحوال ويرحلان إلى سكن أفضل وحياة أطيب.. فكانت أمها تضيف إليها في كل مرة: *أوّل ما تتعرّسي يا بنْتي أول ما تتعرّسي إن شاء الله وتستقر حوالك*!

كانت عُليّة وبمرور السنين تفكر بأن تضع حداً لعلاقتها بالملهى.. وستبحث عن فندق لكي تعمل فيه كسكرتيرة استعلامات مثلاً.. وتلتحق كذلك بمعهد التمريض وستجعل لحياتها طعماً آخراً أقرب للحلال بعد إذ رأت معتز يترعرع يوماً عن يومٍ. ولكي لا تقع في نفس المطب السابق وتُفاجأ بوحشٍ جديد وحملٍ عنيد وستسجّل اسمها في مدرسة قرآنية لتعليم حفظ القرآن الكريم.. وتتوب إلى الله عسى الله أن يغفر لها ذنوبها ويحميها من شرور الطريق الذي تسير فيه.

عدتُ من المعهد وقت الظهيرة كالعادة ودخلتُ إلى بيتنا فوجدتُ أمي محاطة بأكداسٍ كثيرةٍ من الملابس.. فاستغربتُ.. فقالت لي أنها في انتظار فوزية التي وعدتها بأن تساعدها بترتيب ملابسنا بالأرفف والدواليب. ثم قالت: أتعرف يا سالم أنّ أبا فوزية أيْ عمّك صالح رحمة الله عليه أصله تونسي وأنّ أمها من أصلٍ إيطالي؟!

فقلت لها: أعلم أن عمي صالح أصله تونسي.. ولكن لم أكن أعلم أنّ خالتي سكينة إيطالية. وبينما نحن نتحاور رنّ جرس الباب.. فإذا بها فوزية بالفعل. فسألتها أصحيحٌ أن أمك أصلها إيطالي؟ فابتسمت ثم قالت: أنا لم أكمل لك قصة أبي رحمه الله وإلاّ لكنت عرفت. فقلتُ لها ونحن ندخل: أتذكّرُ أن والدك لمّا كان صبياً تربى بكنف أسرة.. فقالت فوزية: نعم صحيح أسرة إيطالية.. وسنيور ألبيرتو.. أتذكُر..؟ قلتُ: نعم ألبيرتو وزوجته *روتانا* وابنته **سارينا** فقالت صحيح. وتلك الفتاة سورينا هي التي أصبحت فيما بعد سكينة أمي.. هههه. فقلتُ سبحان الله لم أنتبه إلى ذلك. فأمك تتكلم مثلنا مئة بالمئة. فقالت نعم لأنها مولودة بطرابلس وعاشت بين أهلها. فكيف لا تتكلم مثل أهلها؟ كانت أصغر من أبي بنحو 5سنوات. ونشأت بينهما فيما بعد قصةُ حبٍ وإعجاب متبادل وقبل أن يتزوّجها دخلت الإسلام. فصار اسمها **سكينة** بدلاً من *سارينا*. وظل أبي يعمل مع ألبيرتو وزاد الرباط بينهما وقويَتْ العلاقة وظل نائباً له في أعماله.. إلى أن أحيل على التقاعد ثم سافر إلى إيطاليا ليقضي بقية سنوات عمره هناك.

أما أبي وأمي فبقيا بطرابلس وعاشا هنا وجاء أخي خالد ثم جئت من بعده أنا. واستمر والدي يشرف على مطبعة جدّي ألبيرتو ثم سافر الفنيون الطليان إلى إيطاليا فاضطر أبي (عمي صالح) لإقفالها إذ لم يجد امكانية لتشغيلها بفنيين ليبيين في ذلك الوقت..!

وقال عمي صالح لابنته فيما بعد أنه كان يتمنّى لو وجد فنيين ليبيين لكي يقوموا مقام الفنيين الطليان في المطبعة. لكن ذلك لم يتحقق. كما ظل يلوم نفسه على أنه لم يتدرب على **تشغيل آلات الطباعة** وإنما اكتفى فقط بالإشراف على المطبعة وحَضْرِ الحضور والغياب وتدوين احتياجات العمل (أي الأعمال الإدارية فقط) وبأخذ فكرة بسيطة عن كيفية ترتيب صفحات الفواتير من عدة ألوان..!

ترتيب صفحات دفتر الفواتير من ثلاثة ألوان.

ولم يغتنم صالح وهو شاب صغير فرصة تواجده في مطبعة حديثة آنذاك لكي يتعلم مهارات فنية تفيده بل اقتصر على أعمال مريحة.. وحين مرّ الزمن سريعاً انتبه إلى أنه أضاع فرصة ثمينة كان يمكن أن يستغلها ليصبح من أوائل من يتقن فن الطباعة من الليبيين..!

ثم التحق بمعهدٍ مهنيٍّ إيطاليٍّ في طرابلس مكّنهُ من الانضمام لهيئة الضمان الاجتماعي كموظف. وسبق وأن تعرّف على خصائص مثل تلك الوظيفة وأهميتها على يد السنيور ألبيرتو. وتعرّف على الشيخ ميلود أيضاً والذي أصبح فيما بعد مديراً لمعهد التدريب المهني.

وبناءً على هذا.. لم يكن لعمي صالح -كما قالت فوزية- مؤهلٌ علمي يستطيع به أن يقوم بتدريس مادة علمية كما يفعل زملاؤه بالمعهد.

فكلّفهُ الشيخ ميلود بحكم علاقتهما الأخوية بمهمة **الإشراف العام** والتي قام بها لعديد السنوات بعد أن أوقف عمله كموظف في الهيئة إلى أن توفّتهُ المنيّة ثم جاء من بعده **المعلم التونسي** ليخلِفَهُ فيها.

وقالت لي فوزية: لعلك لاحظتَ يا سالم.. أنّ أسرتنا مرّتْ بظروف صعبة ما جعل أبي.. يقوم بعدة أعمال إضافية ليوفّر لنا المال الكافي لسد احتياجاتنا ومتطلباتنا اليومية.. فعمل على سيارةِ نقلٍ لتوصيل صناديق السمك من البحّارة إلى السوق أو نقل أدوات البناء وبضائع السلع التموينية إلى المتاجر. ولم يكن ذلك العمل كافياً كمورد رزق.

ثم حاول أن يحسّن من وضعه المادي بالقيام بأعمال إضافية أخرى وخصوصاً بعد زواج ابنه خالد وما ترتب عن ذلك من ديون والتزام.

فنصحه أحدٌ ما بأن يقوم بعمل مريح وبسيط ويعود عليه بمكافأة مالية مُجْزية ويتلخص في أن يحتفظ بحقيبة يد في بيته يستلمها من شخص ما. ثم يعيدها إليه بعد يوم أو اثنين. وفي الحقيبة مستندات مهمة ذات قيمة لا يريدها أن تضيع منه لأنه يسكن خارج المنطقة.

ولم يعلم عمي صالح أنه بذلك العمل قد اقترف خطأً كبيراً بتخزينه لتلك الحقيبة وما فيها من ممنوعات ومن دون أن يتجرأ على فتحها وتفتيشها بل اكتفى فقط بتخزينها وكما هي في رفٍّ خفيٍّ من أرفف غرفة تخزين المواد الغذائية في بيته بحيث لا يراها أحدٌ من عائلته.

وظل عمي صالح حريصاً على استقبال ذلك الشخص الذي اعتاد أن يُخفي ملامح وجهه بشال وقبعة ويأتي بعد أذان المغرب بقليل.. إذ يقوم بتسليمه الحقيبة كما هي أو استلامها منه. ويعطيه في كل مرة مبلغاً مجزياً من المال أو رآه عمي صالح مجزياً أعان به نفسه وحاله على دائرة الزمان.. ولكنه في داخله لم يكن مطمئناً إلى ذلك الرجل.

ولم يكن يتوقع أن يتأزّم الموقف إلى حدٍّ أن تتم مداهمته وكان خالد بجواره فأخذ الحقيبة وزعم للشرطة بأنه هو من قام بتخزينها وليس أباه ولم يعلم بأن بها ممنوعات وإنما فقط مستندات شخصية. أراد الشخص الذي يأتيه أن يحتفظ بها عنده كأمانة مؤقتة لا غير.

وقالت فوزية أيضاً: تدريجياً توالت علينا الأزمات والنكبات.. وكانت قد بدأت قبلها بإصابة والدي بمرض السكر ثم بارتفاع ضغط الدم.. ثم بذبحة صدرية وتلتها جلطة قلبية. كما أن وضعنا المادي أصبح ضعيفاً خصوصاً بعد الديون التي صاحبت زواج أخي خالد. ثم قال أبي: لو أن خالد أحس بالسعادة في زواجه لهانتْ علينا هموم الديون لكنه لم يهنأ بزواجه ولم يكن على وفاقٍ مع زوجته منذ البداية فبدا كأنها فوجئت بأمور لم تتوقعها في خالد أو في كيفية الارتباط به أو أنها كانت تنظر للزواج ربما كصفقة وأنها كانت في بيت أبيها مقيدة أو محرومة فرأت في الزواج فرصة لكي تعيش بلا أي قيود.. فوجدتْ ظروفاً تختلف عما كانت تحلم به.. فرفضت الزواج وخرجت.
وقال عمي صالح لابنته أنه قد سعى بكل ما لديه من تصميم إلى أنْ يجعل ابنه خالد يتفوق في دراسته ليصبح معلماً ناجحاً وبتوفيق من الله صار خالد بالفعل من أنجح المعلمين في جيله في مادة الأحياء. لكنه للأسف الشديد ضحى بنفسه وبمستقبله من أجل أبيه ودخل السجن ولم يجد من يقبله كمعلم حين عرفوا بأنه كان محكوم عليه بالسجن بقضية تتعلق بالمخدرات وهو ما اضطره للتنقل بين عدة مدن في البلاد بحثاً عن مدرسة تقبله لأداء مهنته كمعلم.

وقالت فوزية أن تلك النكبات التي توالت على رأس أبيها تركت فيه آثاراً نفسية وعقلية وبدنية عميقة جداً حتى أنه لم يعد يحتمل أكثر مما احتمله عبر السنين. ولم يكن يتصور أن يكون مصيره هكذا..!

وتتذكّر فوزية.. أنّ أباها كان يبوح لها بمكنون فؤاده وحسرته على ما مضى من زمانه بأنه حينما كان يعيش في نعيم ذلك البيت الذي تربّى فيه: *بيت السنيور ألبيرتو* لم يظن في يوم من الأيام أن الدنيا سوف تضعه في مواقف واختبارات عصيبة مثل التي ابتليّ بها فيما بعد !!

ولو أن عجلة الزمان عادتْ به إلى الوراء لاختلفت خياراته وتصرفاته. ولأتخذ مساربَ ومساراتٍ أخرى بالحياة ولأستغلّ الفرصَ استغلالاً أذكى وأفضل مما اختاره بصورة عمياء قليلة الفطنة والذكاء والدهاء.

وقال: الحياة تريد منا أن نُحسن الاختيار فيما تمنحنا إياه من عطايا وفرص وهدايا. برّاقة المظهر خفيّة الجوهر. وهي لا تهبها لنا إلاّ مرة واحدة.. فإن تغافلناها وتكاسلنا عن اقتناصها واكتسابها ضاعت من بين أيدينا كما تضيع حفنة الماء من بين أصابعنا وصارت مجرد بللٍ لا يشفي ولا يغني من عطش. تلك هي فرص الحياة وهباتها..!

وكنت حينما أكون قريباً من عمي صالح يقول لي: *يا سالم خذ بالك من الزمان.. فهو غدار*. ولم أكن أعي تلك الكلمات إلا بعد أن كبرت !

وكنت أرى على وجهه ملامح الحزن والأسى حتى وهو يضحك وربما يتظاهر بأنه يضحك- من شفتيه وليس من قلبه ووجدانه.. كما كنا نفعل. فكنتُ أراه - وخاصة عبر السنوات الأخيرة من عمره أنه يدفع الثمن غالياً من صحته وعقله ونفسه. وكنتُ أعلم تماماً أنه لم يكن سعيداً في حياته حتى وقد عاش سنواتٍ حلوة في طفولته وشبابه.

وحتى وأنه تزوج من الفتاة التي أحبها وأسلمتْ بعد إذ تعرفتْ عليه وأنجبت له خالد الذي صار شعلةً من النجاح وفوزية الفتاة الجميلة الذكية النشطة التي يتمناها كل شاب.. ظل صالح مع ذلك تعيساً.. وكانت وفاته فاجعة كبيرة لي.. ولكل من عرفه من أهل القرية..!

سمعتُ من الأستاذ خالد حين التقيته في أحد الأيام.. أنه لم يتمكن من أن يجد عملاً في أي مدرسة إعدادية كمعلم لمادة الأحياء فخطر ببالي أنْ قلتُ له لِمَ لا يجرّب الاتصال بالمتحف في **السراي الحمراء**. فلعل المسؤولين هناك بحاجة لمن له دراية بعلم الأحياء ليوظفوه فيها فيعينهم بوضع وتصنيف الحيوانات والنباتات داخل **المتحف** ويكتب ملاحظات أو معلومات مختصرة ومفيدة عنها للجمهور من طلبة وعامة الزوار وبحيث يكون المتحف أكثر حيوية ونشاطاً مما نراه في صورته آنذاك. فأعجب بالفكرة وتذكّر أنه يعرف أحداً يعمل كموظف في السراي الحمراء.. وسوف يسأله بهذا الخصوص.

وقلتُ له إنْ لم يجد من المسؤولين عن المتحف استجابة.. فهناك مشروع أعلن عنه في الصحافة سيقام قريباً في طرابلس وهو مشروع **حديقة الحيوان** المُزمْع افتتاحها حسبما يُنشر في صفحات الجرائد قريباً لما لها من فوائد ترفيهية وعلمية وحضارية واقتصادية كذلك.

وبعد أيامٍ قليلة رأيتُ الأستاذ خالد متعكر المزاج فسألته عما حدث بخصوص المتحف والحديقة فقال أنّ *مشكلة السجن* ظلت عائقاً أمام قبوله وتعيينه. فاقترحت عليه أن يقدم طلباً بصفته متعاوناً أي بأن يقوم بأعمال معينة لهم كرسم الطيور والحيوانات والنباتات أو الطبيعة لكي يزيّنوا بها القاعات والممرات فتخلق حيوية في الأماكن وتجعلها حية وأقرب إلى أذهان الزوار فأعجبته الفكرة وضحك..!
وما إن مرّت أيام معدودة حتى بدأ الأستاذ خالد بتنفيذ لوحات فنية رأيتُ بعضها فإذا بها بقمة الإبداع والروعة ومزودة كلٍّ منها بمعلومة مختصرة وموضحة لحياة ومزايا ذلك الحيوان والنبات وتلك البيئة. من دون الحاجة لأن يتواجد في نفس مكان العمل إلا عند الاستلام والتسليم فقط لا غير.. ولم يضطر خالد إلى الابتعاد عن أسرته..!

الأشعارُ تكْتُبُني

أصبحت لوحات الأستاذ خالد فيما بعد من أهم محتويات المتحف وحديقة الحيوان. بسبب براعة رسمها وألوانها وظلالها وحُسن فنِّها وكوفيء عنها الأستاذ خالد مكافآت مُجْزية ونَقَشَ في طرفها السفلي حرفان يرمزان لاسمه: خ ص. ويوم استضيف ليكتب عن أعماله الفنية في دفتر الضيوف كتب: *الفضل لله ثم لوالدي صالح مختار*.

ثم لمْ يكتفْ المسؤولون عن المتحف والحديقة من الأستاذ خالد.. بتلك اللوحات فقط بل طلبوا منه المزيد من التعاون والمشاركة فأتحفهم بلوحاتٍ أخرى عن الطيور وهجرتها والأماكن التي تعيش فيها واتفق مع صيادين بأن يوفروا له نماذج منها ليقوم بإعدادها بالتنسيق مع قسم التحنيط في صورتها وهيئتها الطبيعية وعرضها بجوار اللوحات التوضيحية.. ما أضاف للمتحف وحديقة الحيوان بمدخلهما وصالات العرض بهما المزيد من الرونق والتشويق..!

فحضر المزيد من الجمهور بأعدادٍ غفيرة حتى أن إدارة المتحف من جهة وحديقة الحيوان من جهة أخرى.. اضطرت إلى تحديد مواعيد للزيارات وحجزها مسبقاً بمتسع من الوقت نظراً لشدة الازدحام.

وتمكن خالد بفضل موهبته وصبره وكفاحه أن يعوّض ما فاته. حتى أنّ الشيخ ميلود قال ذات مرة أن وضع الاستاذ خالد تحسن كثيراً بل إنه أفضل مما لو بقي معلماً لمادة الأحياء بالمعهد ودعا الله لصديقه صالح بالمغفرة وبأن يطمئن على ابنه في قبره. بعد ما قاساه من آلامٍ فلعل اللهَ عوّضهُ خيراً عما رآه في سابق عمره من ضيق وقلق. وقال أيضاً أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم كيف يكون مصيره أو الحكمة مما يطرأ له من نكبات أو أزمات في مراحل عمره المتتالية.

ففي حين رأى خالد في زواجه من **فتحية** نكبةً وهزيمة هو المسؤول الأول عنها ظن أنه سيكون سعيداً معها. لأنه هو من اختارها بنفسه إذ تعرّف على أخيها وأبيها فتأثر بسيرتِهما وأعجبه خُلُقُهما.. فظنّ أن الفتاةَ ستكون صورةً منهما فخطبها بصفتها البنت المرشحة للزواج في ترتيب أخواتها بنظام الأسرة. ولم يرها إلا مرة واحدة وهي تمشي أمامه على مسافة أمتارٍ منه. فظنّ أنها ستكون الزوجة الصالحة له.. أو هكذا كانت التقاليد آنذاك. غير أنه سرعان ما اكتشف العكس.
وسارع لإقناع أبيه وأمه بها واستأجر بيتاً صغيراً في الحي الذي اعتاد العيش فيه وهو حي متواضع بطرف المدينة وتختلف تقاليد الحياة الاجتماعية فيه عنها في وسط المدينة كما أن أهل خالد من الأسر المحافظة وتختلف عن الأُسر في شوارع المدينة.. فرأت فتحية أن طابع التقاليد بهذا الحي المحافظ المتواضع لا يناسبها ولا يناسب تطلعاتها الطموحة فتمردت ورفضت زواجها ولم يمض عنه أشهر.

ولم تقبل أن تعيش مع أبويْه.. بل رفضتهما خاصةً حين قالت لها أم خالد على سبيل التمني والمزاح.. في إحدى المرات بأنها:.. *تتمنى أن تعيش في كنف ابنها خالد وفتحية حينما تكبر وتشيخ*.. فاحتجّتْ فتحية بغضب مكبوت.. وقالت أنّه لم يشترط عليها - حين تزوّجها- أن تقيم أمُّهُ معهما في بيت واحد. فأحسّت أم خالد (سكينة) المرأة الطيبة الخلوقة الهادئة.. بطعنةٍ كطعنةِ السكّين في صدرها ولم تبلّغ ابنها بذلك. ولكنّ خالد عرف بما حدث من أخته فوزية فغضب.

وتوالت الأيام.. وأحسّ خالد من فتحية المزيدَ من النفور والتمرد بل وأخذت تخرج من البيت وتروح وتجيء من دون إذنه أو موافقته مع إهمالها لواجباتها البيتية والأسرية حتى الزوجية وكان يعاتبها باللطف واللين بلا فائدة ثم باللوم بلا فائدة ثم بالتهديد بلا فائدة أيضاً !!

فتعلّم أسلوباً جديداً لم يعرفه من قبل. أسلوبٌ كان يرفضه من غيره من الشباب والرجال ويجد فيه مبالغة في التعامل مع المرأة بالذات. لكنه أصبح موقناً بأن بعض النساء لسْنَ كبقية النساء.. هو أسلوب المعاملة الجافة والغضب والجِدِّية المفرطة خصوصاً مع النساء.
وتغيّرت بعضُ طِباعُهُ أيضاً. ففي حين كان كمعلمٍ لمادةِ الأحياء يحب رسْمَ الحيوانات الأليفة كالقطط والعصافير بألوانها المزركشة صار يهزأ بها ويميل بقوة لرسم الأسد والنمر والدُب والنسر والصقر رمز القوة ويرسم الأفعى رمز الخديعة ويرسم العقرب رمز الموت. هكذا أصبح خالد إنساناً آخراً وصار العيش معه لا يُطاق من الخوف..!

ولم يعد إلى عهده السابق إلا بعد أن انفصل نهائياً عن فتحية وبعد أن دخل السجن وروضته الأيام القاسية وأعادته إلى سيرته الأولى..!
إلى هذا الحد يمكن أن يكون الزواج نكبة وهزيمة ومصيراً قاسياً كأنه ***السرطان***.. وإلى هذا الحد يمكن أن يتبدل الإنسان من الهدوء إلى العاصفة الهوجاء التي لا تُبقي ولا تذر. وكأن الخيط بين الأحوال المتناقضة في الحد مجرد خيط واهن كخيوط العنكبوت..!

لم تُفْلِحْ فتحية في حياتها بعد أن تركت خالد.. ولم يهنأ خالد بعد أن مرّ بتلك العواصف والنكبات. ولم يستقر إلاّ بعد أن عرف المتحف وحديقة الحيوان. فحين ذاك عاد إليه سكونه النفسي الذي افتقده. ويبدو كأن الدنيا ابتسمت له من جديد. إذ عاد فأقام مع أمه وأخته.. وأعاد البيت الذي استأجره إلى صاحبه وبقي قريباً من أسرته ووجد عملاً لا يختلف عن مهنته بل ربما أسهل وأقل مجهوداً وأكثر عطاءً وأفضل ميزة ودخلاً ومن دون أن يتواجد في مقر العمل. بل إن مقر عمله هو بيته قريباً من أسرته وفي ساعات ينظّمها حسب رغبته. ووجد من المجتمع ترحيباً بإنتاجه وإبداعاته فاستقرت نفسيته.

قال الأستاذ خالد لي ذات مرة ونحن نشرب الشاي: *الإنسان يا سالم لا يمكنه أن يسعد سعادةً تامة إلا إذا رضي عنه الناس* وشعر بأنه قد قدّم لهم بالفعل ما يخدمهم ويفيدهم ويسعدهم. أما دون ذلك فلا يمكن لأحدٍ أن يشعر بسعادةٍ حقيقية مهما استغل الناس أو ضحك عليهم. فمصيره أن ينكشف أمره مهما طال الزمان أو*أتقن البهتان* !

ظلت كلمات الأستاذ خالد هذه ترّن وترّنُ برأسي على مدى السنوات والسنوات ولم أنْسها.. بل اتخذتُ منها **قاعدة** أسير عليها في مراحل حياتي المتتالية.. لأنها قاعدة مبنية على خبرة حقيقية ومُرّة..!

سعادتي في خدمة الناس ممن حولي وإفادتهم

وبدأت كلما رأيته يخرج من بيته بالقرب من بيتنا أتعجب كيف عاد إلى هدوئه السابق بعد أن خرج من السجنيْن.. سجن الزواج وسجن الحكومة. لقد مرت بالأستاذ خالد سنواتٍ حين كان يعلّمنا بالمعهد مادة الأحياء كان خلالها في ظاهره هادئاً كهدوء ماء البحر بينما كنتُ بحكم قُرب بيوتنا أعلم أنه في داخله أعمق وأشد شراسة من البحر.

وكان أثناء الدرس يتحفنا بشرحه المفصّل ورسمه المبدع المعبّر عن **الأحياء** وما لها من فوائد ومزايا فريدة من نوعها ولولا الأستاذ خالد ما كان بوسعنا أن نتعرف عليها. فلم نكن نعلم عن عوالم العصافير والطيور والحشرات والحيوانات والنباتات كلَّ تلك الأسرار والأخبار والخصائص العجيبة الغريبة.. ولم نكن ننتبه إليها وإلى أهميتها لولا هذا الرجل الفنان المتعلم الذوّاق الحساس مرهف الإحساس.

وكنتُ أقول -في نفسي- كيف لم يجد هذا "*المخلوق اللطيف*" امرأةً تحبه وتسعده وتسهر على راحته كما يسهر على راحتنا ويسعدنا؟!

كيف تستحيل رؤيتهُ من متأمِّلٍ لمخلوقات الله لناقمٍ على الحياة؟! أبِسببِ امرأة "خشنة" مادية لا تبحث إلا عمن يعطيها ولا تفكر هي في العطاء؟! فالحياة بالنسبة لها: أخذٌ بلا عطاء.. ونهبٌ بلا وفاء.

هل ظلَمَتْه الدنيا؟ أم أنه ظلَمَ نفسه بسوء اختياره؟ أم أنّ القدر أراد له أن يقوم بتلك التجربة القاسية ليتعلم منها أو ليكون عِبرة لغيره؟ ولعله يقول في خاطره وفي أعماقه حتى من دون أن يبوح لنا بذلك: وماذا استفدتُ من التجربة غير الدموع والآلام والشعور بالهزيمة؟! هل استفدتُ أشياء إيجابية تفيدني وتفيد غيري من تجربة مريرة؟!

قال الأستاذ خالد لي ذات مرة وأنا أجالسه على شاطيء البحر: انظر يا سالم.. لا يمكن أن تكون تجارب الإنسان هباءً منثوراً أبداً.. لقد عرفتُ هذه الحقيقة وأنا في السجن.. وفي السجن فرصةٌ لا تُعوّض.. لبناء المسجون لذاته وإعادة صياغة أفكاره.. تماماً كما يعيد المرءُ بناء خلاياه وهو نائم من دون أن يشعر لأنّ هذه خاصية أودعها الله في جميع خَلْقِه. فأنت في نومك تتجدد فتتخلّص من خلاياك البالية وما أن تفيق في اليوم التالي حتى تولد إنساناً جديداً بمعنى الكلمة.

وبالمثل في السجن وفي العُزلة وأثناء الغربة يمكنك لو شِئْتَ ورغِبْتَ أن تجدد أفكارك وتثقف نفسك وتصبح مخلوقاً جديداً أيضاً بمعنى الكلمة لكنّك إن آثرتَ النحيب واليأس فسوف تستحيل حطاماً..!

ولا يكون العبدُ شكوراً لله إلا إذا استفاد من نكباته وأزماته واعتبرها نقطة تحوّلٍ في مسار حياته وتجاربه.. فالمرأة تتعذب وترى الويل وهي تُنجِبُ طفلاً فتنسى آلامها وعذابها.. حين تراه يضحك ويمرح.

وترانا نقاسي المرارة ونحن نستعدُّ قبيْل الامتحانات.. ثم سرعان ما ننسى التعب مع ظهور النتيجة وقد صرنا ناجحين ومتفوقين.

هكذا كانت لقاءاتي بالأستاذ خالد. فقد كان يعطي من عصارة تجاربه ما أفادني كثيراً وما خصّني به ربما دون غيري أو أكثر من غيري بسبب ما كان بيننا من انسجام رغم الفراق في السن والتجربة والخبرة. ولم يكن بطبيعته توّاقاً لأن يكشف عما في أعماقه لكل أحد.

سألته ذات مرة عن مستقبلي وما خططتُ له. وذكرتُ له أنني بعد أن أنهيت سنوات المعهد المهني الثلاث تمّ توجيهي للعمل في حرفة النجارة والحقت بالفعل بورشة نجارة يديرها رجلٌ خبير ومحنّك.. غير أني لم أجد نفسي بمجال الخشب فرأيتُ أن أستفيد من تجربتي في المعهد حين شاركتُ بعض زملائي في تحرير الصحيفة الحائطية وتفعيل دور الإذاعة المدرسية وما قدمته من فقرات مختلفة..!

فرأيتُ أنْ أدخل مجال الصحافة بكتابة مقالات تفيد القراء.. وأنْ أطرق باب الأدب في نفس الوقت بتأليف قصص وربما روايات لها مضمون فلسفي اجتماعي أو إصلاحي وبعيد كل البعد عن المضامين الاستهلاكية الرخيصة المنتشرة في تلك الأيام.. فما أن أتممتُ له مقدمة حديثي تلك حتى رأيتُ الأستاذ خالد يبتسم ويقول لي: عين العقل.. توجّهٌ ذكيّ ومفيد ولا أظنه سوف يخيب أبداً. أشجّعُكَ بكل ما لدي من صدق وإيمان. وأجد أنك سوف تنجح بعون الله. لأنني عرفت نشاطك واجتهادك في المعهد. فانطلق ولا تتردد.
وكنت في تلك الأثناء قارئاً منتظماً للصحف والمجلات المحلية إلى جانب ما كان يصلنا من مصر من صحافة وكتب استفدنا منها كثيراً. وتعرّفت من خلال التردد على المراكز الثقافية المنتشرة في شوارع طرابلس كمركز الثقافة الليبي والمصري والفرنسي والإيطالي والأميركي واللبناني والبريطاني تعرّفتُ على مثقفين ومؤلفين وموظفين فطلبتُ منهم المساعدة.. في نشر بعضٍ من انتاجي الصحفي والأدبي.

تعودتُ ألاّ يمرَّ أسبوعٌ واحدٌ دون أن أزور السيدة عُليّة وأمها لأنقُلَ لهما من طرف **الحاج علي** (*والذي عرفناه فيما سبق باسم مراد*) ما تحتاجانه من مؤونة أسبوعية لم يتأخر الحاج علي عن إرسالها لهما. وما عرفته -من خلال حكايات السيدة شادية عن ماضي أسرتها- أنّ الحاج علي لم يُقِمْ معهما بنفس المنزل بعد أن عاد من الخارج ولم أجد لهذا تفسيراً كما لم أجرؤ على سؤال السيدة شادية عنه.

فحتى بعد وفاة زوجته ووفاة زوج أخته **بهلول الزرقاني** ..ظل الحاج **علي** يتفادى أن يقيم مع أمه وشقيقته **عُليّة**. وحاولتُ مع صديقي **جابر** أن نجد تفسيراً لذلك العزوف. لكننا لم نتوصل إلى نتيجة ولم نتوقف عن توصيل الطلبات إلى بيت عُليّة. والتي كانت تقابلنا بكل ترحاب رغم أنها لا تسمع ولا تنطق بل تعتمد فقط على الإشارة.. كلغة تفاهم. وكنتُ كلما وجدتُ الفرصة سانحة دخلتُ لأتحدّث مع والدتها فكانت تفتح لي صدرها وتسرد لي حكايات الماضي.. وهي بين المسرّة والحسرة عما مضى من أحداث وما جرى لها من نكبات.

ورجعْتُ بالذاكرة إلى ما سردتْهُ السيدة **شادية** عن ابنتها وابنها معتز. ثم عن علاقتها الوطيدة بالشاب عدنان بوّاب العمارة. وقالت لي أنّ عُليّة كانت في حياتها الخاصة معزولة عنها تماماً. وكانت تلك الحياة الخاصة لابنتها محفوفة بالأسرار والتكهنات وكأن عُليّة كانت تخبّيء عنها أموراً ولا تريد أحداً يعلم بها أو يقترب منها حتى مجرد الاقتراب. وظلت شادية تبحث عن تفسير لهروب ابنتها عنها حتى أنها جنّدتْ عدنان لأكثر من مرة ليتتبع خطوات عُليّة من دون أن تراه.. إلى أن توصّل أخيراً لعدة معلومات ونتائج.. منها أنّ ابنتها هي في واقع الأمر الأمُّ التي أنْجبتْ **معتز** لا التي تبنّتْهُ فقط.. وأنّ ابنتها تدير في واقع الأمر حياةً مزدوجةً بين امرأتين اثنتيْن هما: عُليّة وعزيزة..!

قال المعلم التونسي أن ذلك الشاب الذي التقيناه على حدود ليبيا مع تونس والذي أراد أن يشتري منه الأرض بطريقة ملتويّة اتصل به مرة أخرى وأعلمه بأن **بلدية عقارب** (الواقعة غرب صفاقس) والتي ينتمي إليها المعلم التونسي ضمَّتْ أرضه ل**مصنع الخزف الحجري**. ولذا قرر المعلم التونسي أنْ يكون حاضراً هناك فوراً. وطلب مني أن أصاحبه إلى محطة التاكسيات قُرب سوق الحوت.. وكان نظَرهُ قد تأزّم أكثر حتى أنه يحتاج لمن يقوده فقلتُ له: بودّي أنْ أرافقك إلى قريتك لو أن لديّ جوازَ سفر. فقال أنّ سائق التاكسي سيساعده.

واقتربتُ به من تاكسي بجوارها شابٌّ لم يبلغ العشرين - على ما يبدو يصيح *صفاقس هيا ما زال نفر. هيا*. أما السائق فكان ينْفُثُ الدخان وبدا كأن الدنيا قذفته بوادٍ سحيق اسمه اليأس لا يكلّمُ أحداً ولا يريد من أحدٍ أن يكلّمهُ وكان المقعد الأمامي المجاور له لم يزل شاغراً. فاقتربتُ بالمعلم التونسي لأفتح الباب فنهرني السائق: *لالا محزوز.. قعْمز لتالي*.. لكنه لمّا رأى المعلم التونسي بنظارته السوداء وعصاه الرفيعة وهيئته.. قال: *باهي باهي.. خلّيه ايجي.. إن شاء الله لا باس*.

قبل أن أودِّعُهُ. تعجّبْتُ حين همس في أذني بأنّ أخته ستأتي معه.. إذ لم أكن أعلم أن للمعلم التونسي أختاً. فقال لي - وكأنه توقّع ذلك أنها مقيمة في **قابس** وليس في **عقارب** ولكنها اتصلت به وقالت له أنها وجدتْ عملاً في قسم الولادة بمستشفى الزاوية. فهي ممرضة. فسألته: هل اسمها **هدى**؟ فالتفتَ إليّ مستغرباً ورفع حاجبيْه قائلاً: *كيفاش عرفت*؟! فقلت له: أعتقد أنها صديقة أخت الحاج علي.. فقال لي: *اصحيح*. ثم أضاف بأنها أخته من أبيه وعاشتْ منفصلة عنه وعن أمه.. وهي ترغب الآن في القدوم إلى ليبيا للعمل. وقالت بأنها وجدتْ فرصةً في مستشفى الزاوية وتريده أن يرافقها.

مررتُ بالمرة على مكتبة **السراج** في شارع عمر المختار لكي أشتري بعض القرطاسية ومنها لوح الورق المقوى الذي نستخدمه للجريدة الحائطية بالمعهد واشتريت أقلام الخطاط.. ثم عرّجت على المركز الثقافي المصري واستعرت منه رواية للكاتب يوسف إدريس.

ثم خطر ببالي أن ألقي نظرة على أهم الأفلام السينمائية المعروضة. فرأيتُ إعلاناً للفيلم الشهير The Great escape **الهروب الكبير** في سينما لوكس.. وقد سبق وأن قرأتُ عنه في بعض الصحف فأعجبني ولذا قررتُ مشاهدته يوم الخميس المقبل ربما مع أصحابي.

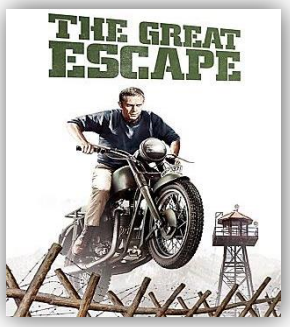

إعلان عن الفيلم الشهير: **الهروب الكبير** وبطله ستيف ماكوين.

وعدتُ مسرعاً لألحق بالأتوبيس في موعده المحدد إلى حيّنا. ومعي بعض الصحف والمجلات. وما أن وصلت بيتنا بسلام وسلّمتُ على أمي وسامي وتذكّرتُ دوري في مشوار الحاج علي وأخته عُليّة.. وكنتُ بداخلي في شوق لسماع السيدة شادية والتي عودتني أن تسرد لي قصتها في قالب قصصي مثير بصوتها الذي يشبه آلة **التشيللو**..!
وبالفعل فتحت لي السيدة **عُليّة** الباب واستقبلتني كالعادة بابتسامةٍ هي مزيجٌ من صفاء الياقوت والحُزنِ العميق والجمالِ المكبوت!

فذكّرتني بقول الشاعر وكأنه يصفها في صمتها الحزين:

أنا لا أكتبُ الأشعارَ؛ بل الأشعارُ تكتُبنى
أريدُ الصَّمتَ كى أحيا، ولكن الَّذي ألقاهُ يُنطِقُنى
ولا ألقى سِوى حُزنٍ، على حزنٍ، على حزنِ

فتأسفتُ لحالها كحال زهرة مقطوفة محرومة من الماء والارتواء.. تُسعد الناس ولكنها في داخلها أتعسُ خَلْقِ الله. كأنها تنتظر موعد الإنطفاء والانتهاء.. من هذه الدنيا التي لم تجد فيها إلا الشقاء.

ومددتُ بصري خلال فتحة الباب والممر إلى السيدة شادية فرأيتها تؤشر بيديها أنْ: *تعال وأُقبِل*..! فدخلتُ لأستمع إلى بقية القصة:

خافتْ أن تُخبر ابنتها بأنها على علم بأسرارها.. واحتفظتْ بذلك في أعماقها. إذ كان أشدَّ ما تخشاه أن تتركها ابنتها وترحل عنها كلياً. فمن سيتولّى أمرَها من بعدها كمُقْعدة متهالكة لا تكاد تتحرك إلا بشقِّ الأنْفُس..؟ أيكون مصيرها بيت العجزة؟! فالقَبْرُ إذاً أرحمْ..!

ثم إنّ عدنان حين أباح لها ببعضِ تلك الأسرار.. استحلفها بالله بألاّ تُخبر عُليّة لكيلا تتهمه بأنه تجسّس عليها وسينتهي أمله كلياً في أن يقترن به لأنها سوف ترفضه بسبب ذلك رفضاً تاماً. وما هي إلا أيام حتى عادتْ عُليّة مبكراً - على غير عادتها وقالت لأمها أنها ستزور في صباح الغد **سي لحبيب** بعد أن أعلمتْ مكتبه في العمارة المجاورة بذلك. وسترتدي فستانها الذي تذهب به إلى بيت اليتيم.. فسُرّتْ السيدة شادية بذلك الخبر ولم تستطع أن تنام من الفرحة..!

وفي الصباح تأملت ابنتها وهي ترتدي الفستان وكأنها أميرة.. ودَعَتْ لها بالتوفيق. وبعد نحو ساعة رجعت عُليّة وجلست بجوار أمها ثم قالت: *تعرفي. علاش يحبّني نمشيولو*..؟! لقد أراد أن تعمل عنده في مكتبه سكرتيرة. وحين قالت له أنْ لا فكرة لديها عن عمل العقارات قال لها أنها ستتعلمه بسرعة كما يتعلم "الطفل" شُرب الماء..!

الابن المفقود

وبالفعل توقفتْ عُليّة عن عملها في البار والملهى. واقتنعت بأن تبدأ العمل في مكتب سي لحبيب كسكرتيرة ثانية له ووعدها بأنّ مرتبها سيكون ضعف ما تتقاضاه في البار والملهى معاً وسيكون التوقيت من الساعة 8 صباحاً وحتى 4 عصراً.. فقَبِلتْ وفرِحَتْ بذلك. وكانت في السنين السابقة تكدُّ طول النهار إلى أواخر الليل وتشقى.. وتعرّض نفسها للتحرّش والمهانة من أجل نصف ذلك المرتب. كما أنها بهذا التوقيت يمكنها أن تحقق ما كانت تخطط له وتتمناه من حيث أنها ستتعلم حفظ القرآن وتنضم إلى معهد التمريض في المساء.

وفي مقر عملها الجديد وجدت سكرتيرة أخرى أكبر منها سناً وخبرة.. وسرعان ما انسجمتْ معها ونشأتْ بينهما علاقةُ زمالة طيبة.. فقد شرحت لها **سعاد** هذه كلَّ ما يجب عليها أن تعرفه عن المكتب. بل ووقفتْ بجانبها لتسندها وتشجعها وتؤانسها. وأخبرتْ عُليّة زميلتها عن أمها المُقْعدة ومعتز الذي تبنته وعمره الآن 4 سنوات ولم تقل لها أنه يقيم بدار اليتيم لكي لا تظنُّ بها الظنون.. بل لم تسرد لها إلاّ القليل عن تفاصيل حياتها الخاصة حفاظاً على السرية.

أما سعاد فحكتْ لها أنها متزوجة ولها ثلاثة أبناء وأن زوجها يعمل محامياً وأنه مختصٌ بالقضايا الحقوقية.. وأنها سعيدة معه. غير أنها تحس بأن عمله فيه مخاطرة لأنه يتعقّب الجرائم الحقوقية..!

وأما سي لحبيب فأخذ يطلُّ عليهما بين الحين والآخر.. ليطمئن عن سير العمل.. فمكتبه في الشقة المجاورة من نفس الطابق بالعمارة والتي يملكها كما يملك العديد من العمارات الأخرى في الحي والحي المجاور.. ويُعدُّ من أغنياء الحي واسمه معروف فيه وهو متزوج غير أن زوجته مريضة بالسرطان وله ابن مدلل وبنتان متزوجتان.

وبعد مرور أيامٍ قليلة عن بدء عُليّة عملها في المكتب.. دخل عليهما شابٌّ لم ترَ عُليّة منه إلا قبعةً.. كالتي يرتديها الفرنسيون.. وأطلَّ اطلالة سريعة لبرهة خاطفة ثم تراجع واختفى.. ولكنّ **سعاد** على ما يبدو- كانت تنتظره. إذ قبل قدومه الخاطف بعدة دقائق قالت. أنّها تتوقع أنّ **مهدي** - ابن سي لحبيب سيأتي اليوم لكي يدخل إلى أبيه.. وقالتْ لها أنْ تأخذ حذرها منه وتعامله بتحفظ.. لأنه لعوبٌ ومستهتر. لكنّ سعاد استغربت حين تراجع عن الدخول فلحقتْ به في الممر فوجدته قد اختفى في سلّم العمارة وترك عِطْرَهُ فقط.

وفي اليوم التالي رأته سعاد يتصفّح ملف الموظفة الجديدة عُليّة في مكتب أبيه والذي لم يكن حينئذ موجوداً فيه. وحينما رأى سعاد دخلت عليه أقفل الملف مرتبكاً وكأنه كان يبحث عن شيء وخرج في عجلة.. وهي لا تدري لماذا فعل ذلك.. فتلك ليست من عادته..!

لا تذكر عُليّة أنها تعرف شاباً اسمه **مهدي** من قبل. ولمْ تفهم لِمَ بدا مرتبكاً وعجولاً بتلك الدرجة حين أطل وكأنه لم يتوقع أن يرى عُليّة. فأما سعاد فهو على معرفة بها من قبل. ثم ما الذي جعله يفتش في ملف عُليّة في مكتب أبيه؟ فهل كان يبحث عن شيء ما أو معلومة ما؟ أمره غريب ومريب.. قالت عُليّة في سرها. ولكنها حدثت نفسها بألاّ تشغل بالها به فسوف تبيّن لها الأيام القادمة سر هذا الشاب.
وشيئاً فشيئاً استوعبتْ عُلية نظام الشغل في المكتب وأصبحت في وضعٍ يسمح لها بأن تتعامل مع الزبائن الراغبين في استئجار أو حتى شراء شقة بإحدى العمارات من حيث اعداد وترتيب المستندات في ملف خاص لتقديمه للمدير العام سي لحبيب للتفاوض مع الزبون.
وقالت في نفسها -وهي ترى مجريات العمل- أنه لابد وأن تشترك في دورة تدريبية بمجال *إدارة الأعمال ومسك الدفاتر* لتحسين الأداء.

وبعد مرور نحو شهرٍ تقريباً على بداية عُليّة عملها بالمكتب فوجئتْ ذات يوم بحضور مديرة دار اليتيم السيدة **فريال** شخصياً.. تسأل سعاد عنها في المكتب.. فاستغربتْ عُليّة تلك الزيارة المفاجئة بل وغير المتوقعة.. حين أعلمتها سعاد بذلك.. وكانت منشغلة في الشقة المجاورة.. فخرجت لاستقبالها فبدتْ السيدة فريال في حالة شديدة من الارتباك والقلق والتوتر.. وحين رأتها أجهشتْ بالبكاء.

وخرجتْ من المكتب لتُخفي حالها.. فتعجّبتْ عُليّة لذلك ولحقتْ بها.. فوجدتها تبكي في الممر فأخذت تهدئها حتى سكنتْ قليلاً..!

فقالت السيدة فريال وهي تمسح دموعها وتحاول أن تتمالك نفسها أنها متأسفة شديد الأسف.. إذ أنّ أحداً ما مجهول الهوية اختطف ابنها **معتز** .. بينما كان يلعب في حديقة الدار أثناء فترة الاستراحة.

فأصيبت عُليّة بدوارٍ مفاجيء شديدٍ ووقعتْ على الأرضية في اغماءة وسمع سي لحبيب وسعاد قوة اصطدامها بالأرضية.. فخرج كلٌّ من مكتبه وجاءا مسرعيْن يحاولان إنقاذها وإيقاظها حتى أفاقتْ.. بينما كانت السيدة فريال تائهة حائرة مصدومة بلا حراك.. كالصنم.

وما أن عَلِمَ سي لحبيب بالنبأ حتى أسرع إلى مكتبه واتصل بالشرطة. وقام بالإبلاغ عن واقعة الاختطاف من قِبل مجهول.. أما سعاد فقد استغربتْ علاقة عُليّة بدار اليتيم وعلاقة دار اليتيم بابنها معتز..! ثم أسرعتْ إلى الهاتف فبلّغت زوجها لعله يتدخل في ذلك الشأن.

وبعد دقائق حضر ضابطٌ من الشرطة على صِلة بسي لحبيب وحضر زوج سعاد **المنجي** ليستطلعا الأمر ويبدآ بالتحقيق.. مع مديرة دار اليتيم السيدة فريال.. ثم مع أم الطفل المختطف عُليّة. وتحوّل المكتب لقسمٍ من أقسام الشرطة بتزايد عدد الأعوان في التحقيق.

واستمرت التحقيقات لعدة أسابيع متتالية.. مع كل من لهم صلة.. بالطفل **معتز** البالغ من العمر أربع سنوات من المربيّات والمعلّمات والخدم بدار اليتيم إلى ساعي البريد إلى عامل الحديقة والحرّاس بلا أي جدوى. وكُتب عنه في الصحافة المحلية وظهرت صورته مقترنة بصورة ***أمه عُليّة*** وأستغرب العاملون بالدار وأولهم المديرة فريال.. كيف أن الآنسة التي كانت تأتيهم في الدار وتظهر بمظهر الغنيّة هي في الواقع سكرتيرة في مكتب عقارات.. وأن اسمها غير الاسم الذي عرفوها به: **مدموزيل عزيزة**.. واشتعلتْ الشكوك لديهم في حكايتها مع الطفل الذي تبنته وأمره ومدى صدقها في التعامل معهم.

ومرت الأشهر بل والسنوات.. من غير أن تصل الجهود إلى نتيجة.. وبدا كأن الأرض قد ابتلعتْ الطفل معتز أو أنه ربما تبخّر في الهواء.. وأعلنت الشرطة عن توقف التحقيقات ولو مؤقتاً بسبب عدم إحراز أي نتائج سواء في الأراضي التونسية أو بدول الجوار وحاول المحامي المنجي زوج السكرتيرة سعاد بكل ما أوتي من خبرة وشبكة معلومات وحنكة ودراية بمجال المرافعات أن يصل لخيطٍ رفيعٍ.. قد يدلُّهُ إلى مصير الطفل المفقود ولو ميتاً لكنه لم يوفق في مساعيه.
وظهرت مقالات بحكم الشائعات على صفحات الصحافة المحلية. بأن هناك عصابةً تخطف الأطفال وتقتلهم لكي تتاجر بأعضائهم داخل البلاد وخارجها.. وخصوصاً أعضاء البنكرياس الكليتان الكبد ثم النخاع العظمي بل وقرنية العين مقابل ثروة هائلة.. تفوق بكثير أي ثروة قد يغتنمها اللصوص من البنوك أو من منازل الأثرياء.

أما عن حال عُليّة فلا تسأل فقد بدتْ لكثرة ما سَيْطَر عليها من الهمِّ والغمِّ كأنها هيكلٌ عظميٌّ. صحيح أنها استمرت بعملها ولكنها فقدتْ جمالها ورونقها.. وبدتْ شاحبة وسارحة.. كأنها في عالم آخر.

كما حاولتْ زميلتها سعاد أن تواسيها وتدعمها.. وحاول سي لحبيب ذلك أيضاً ولكنهما لم يفلحا في إخراجها من دائرة الحزن والأسى التي أحاطت بها نفسها. وشعرتْ في نفس الوقت *بالامتنان* تجاه مديرها السي لحبيب الذي *لم يتخلَّ عنها* في الظروف الصعبة التي تمر بها. وعبّرت له عن عظيم امتنانها وشكرها له على نبل أخلاقه ومعاملته تلك تجاهها.. حيث أنه أصرَّ على أن تستمر في عملها بمكتبه لتظلّ على صلة بالناس وحتى لا تنعزل عنهم وعما يجري من أحداث.

من ناحية أخرى اقتنعت عُليّة -في داخلها تمام الاقتناع بأنه ليس في صالحها ولا بمقدورها أن تتوقف عن العمل.. فمن أين ستعيش هي وأمها؟ ورأتْ في تواصلها مع الناس فرصةً لتبادل الأخبار فلعلّ فيهم من يأتي لها بمعلومة تفيدها في البحث عن معتز. ولعل اللهَ سيبعثه من جديد ويعود سالماً بالرغم من طول المدة وظلّت تغالب نفسها في سبيل النهوض كل صباح مبكراً للذهاب إلى العمل وأخذتْ ترسم على وجهها بسمةً ولو أنها حزينة ولكنها كافية لمقابلة الزبائن..!

وكانت زميلتها سعاد تحاول أن تسلّيها وتلهّيها عن حزنها المكبوت.. بما أوتيت من خبرة في الحياة وقدرة على التعامل حتى أصبحت تنال بالفعل ثقةَ عُليّة وقُربَها منها. وتمكنت من دعوتها إلى بيتها وأسرتها لتُخرجها من بوتقة الحزن التي أخذت تنصهر بداخلها.. كما تنصهر المعادن في الوعاء. وتعرّفتْ سعاد على أمها وصارت تزورها بين حين وحين وساعدتها في إقناع سي لحبيب بأن يؤجر لهما شقة من شققه الكثيرة بسعر مخفّض وخاص.. لا مثيل له بين سائر الزبائن..!
لم تكن عُليّة تعلم أنّ ذلك التصرّفَ النبيلَ الرحيم.. من طرف السي لحبيب أمرٌ مقصود وخفيٌّ سيظهر مع مرور الأيام والسنين إن آجلاً أو عاجلاً.. لكنها لم تنظر إليه آنئذٍ إلاّ من حيث قيمته الإنسانية..!

تعلّمت عُليّة بعضاً من سور القرآن القصيرة وبدأت تحاول أن تداوم على كل صلاة في موعدها وتسجد سجوداً طويلاً وتتضرع لله تعالى أن يغفر لها ذنوبها ويكفّر عنها سيئاتها.. وينقّيها من الآثام كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس. وبدأت تتصدق على من تجده في طريقها من المساكين والمتسوّلين بما في جيوبها من دراهم.. وبما قد تحمله في يديها من أرغفة خبز أو فاكهة أو حلوى كانت تحملها لبيتها.

وشيئاً فشيئاً صارت تتحرر من قيود الماضي وهمومه.. لكنّ طيف ابنها الحبيب معتز لم يفارق خيالها.. وكلّما تذكّرتْهُ اغرورقتْ عيناها بدمعٍ حار يفيض على وجنتيْها فيلسعُها بوخز عميق في كلِّ حواسِّها وقلبها فتقف للحظات ممتنعة أو عاجزة عن أي حركة.. حتى تسترد أنفاسها وتتمالك السيطرة على نفسها.. ثم ترسم على محيّاها بسمةَ أملٍ ورجاءٍ وتطلّعٍ.. وتقول في ذاتها وسرها: *وما على الله بعزيز*..!
ولكي تُشغل نفسها ووقتها ولتحقق ما ظلتْ تصبو إليه.. التحقتْ في تلك الأثناء بدورة تدريبية للمسعفات خاصة بمساعدات التمريض.. ووجدت فيها ما كانت تبحث عنه من تضحية ونكران الذات وإنقاذ الحياة عند التعرض لحوادث السير والتسمم والاختناق والغرق.. !
أصبح يومها مقسّم بين ثلاثة أنشطة عملها المكتبي وحفظها للقرآن ثم تدريبها كمسعفة طبية ولذا لم يعد لها وقتٌ لتندب حظها فيه أو لتستمر في حزنها ولوعتها. لكنّ مخالب الزمان - على ما يبدو لم تشأ أن تتركها عند حد ما وصلتْ إليه من تعذيب وما لسعها من لهيب.

ففي يوم من الأيام وبينما كانت خارجة من المكتب عند تمام الرابعة عصراً رأتْ شاباً واقفاً بمدخل العمارة فلم تصدّق عينيْها.. فأزاحتْ عنهما النظارة الشمسية التي اعتادت أن تستعملها لكي تُخفي ما بهما من آثار الحزن.. أزاحتها لتتأكد من صحة نظرها.. إنه هو..!!

إنه الشاب الذي التقته في البار والملهى.. وضحك عليها ثم خدعها. اقترب منها وهي خارجة من العمارة وابتسم لها ابتسامته المخادعة المُنكرة - وكأنها ابتسامةُ ذئبٍ جائعٍ يدنو من ضحيته ويلعقُ شفتيْه فقال لها بنفس الصوت الذي لم يزل يرنُّ في ذاكرتها: *أنا مهدي*..!

مهدي.. يا الله لقد سمعتْ بهذا الاسم من سعاد. أما في البار فلم تعرفه بهذا الاسم بل قال لها آنذاك بأنّ اسمه: *سُهيل*..! لقد كذب. ولكن لا بأس.. فحتى هي كانت قد كذبتْ واختلقتْ اسم عزيزة. بدلاً من عُليّة. ثم قال لها وقد وصل إليها عند المدخل الواسع: *أنا مهدي* .. فقاطعته: *إنتِ ولد سي لحبيب مش هكا*..؟ فتبسّم وهز رأسه.
فسألها وهو يمضغ العِلكة ما معناه ألم نلتقِ من قبل؟! فقالت وهي تعيد النظارة أمام عينيها بأنها لا تعرفه ولم يسبق لها وأن رأته. فقال بل أعتقد أنك تعرفينني جيداً.. فقد كنا على مسافة أقرب من الآن. فشعرتْ وكأنّ عقرباً لسعها.. فانتفضتْ وتراجعت خطوةً للوراء.
فقال: حاولي أن تعودي إلى الوراء وتتذكري التاريخ الماضي.. فقالت وهي تزفر: أنا لا أحبُّ التاريخ الماضي فكله أشواك وكوابيس.. وظُلم وذكريات سيئة للغاية.. أريد أن أنساها لكي لا أشعر بالغثيان والقيء.

فضحك وقال: هل هذا شِعْرٌ أم فلسفة؟ فقالت اعتبره كما يحلو لك ودعني الآن أمرّ.. فأنا عندي ما هو أهم بكثير من الماضي السخيف. وتركتْ العتبة الأخيرة فاعترض لها لكنه حين رأى والده قادماً تراجع واستدار ومضى في حاله..

فسمعت عُليّة سي لحبيب أنْ *انتظري*..!
فتوقفتْ فاقترب منها ومدّ لها بباقة من **مشموم الفَل** كانت في يده ثم انصرف.

غالبتها الدموع في مقلتيها.. وهي تتذكر تلك الأمسية اللعينة يوم أن اعتبرت نفسها في حضن السعادة وأن الحظ قد ابتسم لها. فنَعَسَتْ ويا ليتها لم تفعل ولم تغفل ولم تجامل. وحينما أفاقت وجدت أنها ارتكبت أكبر خطيئة كانت لا تتصور في يوما ما.. أن ترتكبها. وهرب سهيل وتركها تعاني الويل. واعتقدت أنها ستداري فعلتها عن أمها إذ كانت في غيبوبة.. ووضعت حملها قبل أن تفيق أمها من نومها.

كانت تصارع سرها ومرّها في بئرها من دون أن يعلم بها أحد فلم تكن لديها صديقة ولا زميلة تخفف عنها. ولم يكن من يشاطرها حزنها سوى ظلام الليل موج البحر دويّ الريح وخفقان القلب وأوجاعه. كانت تعيش في عالمٍ لا يهدأ من حولها.. ولكنها ظلت معزولة عنه.. ولها من الكبرياء والثقة وعزة النفس ما جعلها تسمّي مولوها: **معتز**.. بينما صارت تزوره متخفية وراء اسم آخر وشخصية أخرى. ولم تبُحْ لأحد بأنه ابنها إلا **هدى** التي عرفت قصتها وسكتت عنها بمقابل. إذ لا أحد يعطي في هذه الدنيا بلا مقابل. إلا العقرب-كما كانت تقول!!

وبعد أن ترعرع الطفل وفتح عينيه على ما حوله.. تمّ اختطافُهُ وهي بداخلها تحسُّ بأنّ في الأمر شكٌّ.. شكٌّ يحوم حول أبيه.. أنّهُ وراء اختطافِهِ.. وهي تعلم الآن تماماً أن والد الطفل -حتى وإن لم يكن هو يعلم بذلك هو مهدي ابن سي لحبيب. ولا ترى بأنّ الوقت.. قد حان بعد لكي تُبلّغُهُ بأنه الأب. فلماذا لم يقم هو بأي مبادرة بهذا الصدد؟ أمْ أنّ الأمر لا يهمه؟ أليس الطفل من صُلبه؟ ألا يكفي أنه قد تجاهله وتناساه أربع سنوات كاملة حتى تم اختطافه أخيراً؟! ألمْ تكن عليه التزاماتٌ لصالح ابنه حتى وإن لم يكن طفلاً شرعياً..؟! ثم أنّ عُليّة تساءلت بينها وبين نفسها عن دور سي لحبيب.. ما هو؟ ألم يعلم بعد بأن الطفل في واقع الأمر هو حفيدُهُ؟ أم أنه يعلم..؟!

فما سبب سكوته إن كان يعلم بالفعل؟ أسئلة لم تجد لها أجوبة.

ومرت السنوات .. أربع سنوات ولم تصل عُليّة لأي نتيجة وصار الأمل في الكشف عن حقيقة اخفاء أو اختطاف ابنها يتضاءل.. ولم تجد من يأتي لها ببصيص أمل أو بمعلومة ولو بسيطة تفيدها بهذا الشأن. وكانت زميلتها سعاد الوحيدة التي ظلت تساندها وتخفف عنها من شدة لوعتها. فحتى السيدة فريال لم تعد تتصل بها.. ربما لانشغالها بما هو أهم في عملها في الدار. وبدأت عُليّة لا تحس بطعم الراحة والاستقرار في حياتها. أيُعقل أن يتم اختطاف طفل وهو في الرابعة من عمره.. فما ذنبه؟ وما ذنب أمه؟ ومن هو عديم المروءة وعديم الإنسانية الذي قام بتلك الجريمة؟ اختطاف طفلٍ بريء؟!
وكانت عُليّة كلما أرادت أن تسأل **المحامي المنجي** زوج سعاد.. عما توصلت إليه الشرطة من تحرّيات يجيبها.. بألا تفقد الأمل حتى وإن لم يلُحْ في الأفق أيُّ بصيصٍ من النور في القضية. كما قال لها أن ابنها ليس هو الضحية الوحيدة.. بل هناك العديد من الأطفال اختطفوا كذلك ولا تتوفر عنهم أي معلومات وإشارات رغم مرور السنوات.
وكانت السيدة شادية رغم ما لديها من مرض وعجز متمسكة بالأمل في أن تجد ابنتها يوماً ما الحفيد المفقود. وقالت لها أنها لم تسمع أي أخبار عنه ولكنها في داخلها تشعر بل وتوقن بأنه لم يزل حيّاً..!

كانت كلمات التفاؤل تلك تمنح عُليّة بعض الشعور بالرضا والارتياح ولكنها في داخلها ليست مطمئنة بل تكاد تجزم أن لا أمل في عودة ابنها كلما طالت المدة ومرت السنين فها هي أربع سنوات قد مضت من دون أن تظهر أيُّ إشارة ولو بسيطة أنّ ابنها حيٌّ يُرزق. فهي تكاد ألا تُصدّق أن طفلاً بمقتبل العمر سيهرب مثلاً من مختطفيه أو أن يقاومهم أو يراوغهم وينتصر عليهم.. بل هو لليأس أقرب..!

في يوم من الأيام وبينما كانت عُليّة تدخل المكتب رأت زميلتها سعاد تشير لها بأن تُمْسِك سماعة الهاتف فالمكالمة لها وإذا به على الخط أحدُ رجال الشرطة يطلب حضورها في الحال إلى **قسم الشرطة**.
فالتفتتْ عُليّة إلى زميلتها سعاد التي تنتظر بفارغ الصبر فحوى تلك المكالمة فقالت لها إنهم يريدونني حالاً في مركز الشرطة.. ولم يُبّينوا لي لماذا.. هل بإمكانك أن تتصلي.. فقاطعتها سعاد بقولها: نعم نعم .. سأتصل الآن فوراً بالمنجي وأسأله. لعلهم وجدوا ابنك أخيراً.. لكن دعيني أتأكد من المنجي أولاً. وأدارتْ قرص الهاتف وقالت: آلو. هل يمكنني أن أكلّمكَ؟ لقد اتصلتْ الشرطة بعُ.. نعم نعم . ثم ابتسمتْ لعُليّة وواصلتْ عبر السماعة قائلة: داكوغ.. سوف أخبرها بذلك.

ووضعتْ السماعة واتجهت إلى عُليّة بالحديث وقالت المنجي لديه علم بأنهم اتصلوا بك.. وطلب مني.. أن أخبرك بأنْ تنتظريه أمام مدخل قسم الشرطة لكي يكون برفقتك. فانطلقت عُليّة على الفور وأشارت بيدها في الشارع إلى تاكسي وركبتْ.. فانطلق بها.
وما أن وصلتْ.. حتى وجدتْ أمامها المحامي المنجي في انتظارها. فسلّم عليها ودخل الاثنان فلاحظت عُليّة أنّ الشرطيّين الحارسيْن أدّيا له التحية ثم استقبله ضابطٌ بترحاب.. ويبدو أنه زميل له.. ثم طلب من عُليّة أن تستريح قليلاً في بهو الاستقبال بينما دخل الاثنان مكتباً كُتب عليه: رئيس القسم فشعرت بقلبها يخفق بازدياد وأخذ العرق يتصبب بجبينها.. برغم أنّ الوقتَ شتاءٌ. ولاحظت أنّ يديْها ترتعشان. وأخذت تدعو في سرها بأن تأتيها الأخبار بخير عن ابنها.

وبينما هي في الانتظار خرج المنجي من مكتب رئيس القسم وقال لها وهو يبتسم: يبدو أن ابنك لم يزل حياً بالفعل.. وسيدعونك تدخلين بعد قليل.. لتتأكدي منه أنه هو بالفعل.. انتظري قليلاً..!

الحدث العجيب

دخلتْ عُليّة مكتب الرئيس وهي ترتجف وتكاد ألاّ تصدق أنها سترى ابنها بعد أن غاب عنها لأربع سنين. تُرى كيف هو الآن؟ هل تغيّر؟! لابد وأنه كبُر وأصبح صبياً يافعاً.. ياه إنه الآن في الثامنة من عمره.. هل استمر في المدرسة؟ لقد بدأ يتعلم الكتابة والقراءة وهو في سن الرابعة. وكانت المعلمة بدار اليتيم معجبةً به.. وقالت أنه طفلٌ نادر في ذكائه وفطنته.. إذ بدأ بحفظ الأرقام وكتابتها وكتابة الحروف وهو في الرابعة من عمره. ثم أنه يحفظ بعض الأناشيد أيضاً.

تُرى كيف هو الآن؟ وهل تغيّر؟! لابد وأنه كبُر وأصبح صبياً يافعاً.. هل سيعرفني بعد أن غاب عني كل هذه المدة؟! أم أن صورتي في مخيلته تلاشتْ ولم يعُدْ لها وجود. ربما سيستغرب حين يراني فأنا أيضاً تغيّرتُ.. لقد غيّرني الحزن على فراقه. وكيف لا؟ أليس هو ابني الوحيد فكيف لا أحزن على فراقه؟ لكن يقولون أن قلب الأم دليلها وسأتعرف عليه من أول لحظة أراه فيها حتى لو تغيّر بفعل العمر.

أذكر أن أمي قالت لي حينما أفاقت من الغيبوبة أنّ ملامحي تغيّرتْ.. وهي لم تكن تعلم بأنّ شقاء الدنيا هو الذي غيّرني.. ثم لابد وأنني قد تغيّرت بفعل الحمل كذلك. أمّا أنا فسأعرفه بمجرد أن أراه. فصورتُهُ منحوتَةٌ في ذاكرتي.. وأنا أعرف كل ملامحه. عيناه العسليتان وشَعْره الأحمر وكأنه نسخةٌ مني أو من خاله مراد. ولطالما كان يفرح حينما يراني أزوره في دار اليتيم ويناديني بماما*أزيزا*.. ويجلس في حِجري في أمنٍ وأمانٍ.. ثم يسألني متى يذهب معي إلى ماما **شاديا**..؟!

أحسُّ بأن القدر قد ابتسم لي أخيراً بلقاء ابني الحبيب.. سأضمه إليّ وسأذهب به أولاً لأمي لكي تشاركني فرحتي بعودته.. وبلمّ الشمل..!

سوف لن أدعه يذهب إلى أي مكانٍ آخر فيما عدا المدرسة لساعات معدودة فقط.. ثم يعود فوراً إلى شقتنا.. وسأوفر له كل ما يحتاجه من ألعاب ومن وسائل تعليم وسوف لن أدعه يزور أحداً إلا وأنا معه فلا حاجة لنا بزياراتٍ ونزهاتٍ تكون نهايتها **الاختطاف**. لا لن أسمح بذلك أبداً. حتى المدرسة سأصاحبه بالذهاب إليها خطوةً بخطوةٍ.. وسأشدد على إدارة المدرسة بألا يخرج إلى الفناء في الاستراحة.
ولسوفَ أحْرُمُ نفسي من أيِّ متاعٍ في سبيل أنْ أجد له مدرسةً خاصة مهما كانت رسومها غاليةً. فالمهم الآن هو الأمن والأمان. ولو كنتُ أضمنُ أن يتلقّى تعليمه وهو في الشقة.. لفعلتُ ذلك فورا وبلا أي تردد. أأتركه يضيع مني مرة أخرى؟! ترى ماذا فعلوا به طيلة هذه السنين الماضية؟ هل استأصلوا عضواً من أعضائه؟ هل شوّهوا له جسده الطري ليبيعوا منه ما أرادوا أن يبيعوه؟ هؤلاء مجرمون ليس لهم رادعٌ ولا وازعٌ أو مانعٌ يمنعهم من ارتكاب أشنع وأبشع الجرائم.

قرأتُ أشياءً عجيبة وغريبة ورهيبة في الصحف يشيب لها الوِلدان.. وينطِق من هولها الخُرْسان ويفزِع من منظرها العميان.. أموراً كيف أمكن أن تحدث ؟ أباتوا لا يعترفون بأي دين أو ضمير؟! وماذا بعد أن صاروا يختطفون طفلاً بريئاً لا يعرف من الدنيا شيئاً.. ويسلبونه أعضاءه ويتركونه جثة هامدة أو نصف حية؟ أليسوا أشد فتكاً مما في الغابة من وحوش؟! فحتى الوحش لا يفترس إلا ما يأكل في بطنه!!
لكن ما لي لا أرى فريال من ضمن المسؤولين عن اختطاف ابني؟ ألم يُعلمونها بأنها يجب أن تكون حاضرة عند التسليم؟ أم أنها قد نجتْ بنفسها وتملّصتْ من القضية.. كما تُنزع الشعرةُ من العجين؟!

المهم الآن أن أستعيد ابني وأجده سليماً معافى لا عيب فيه ولا أي مرض ولا خلل أو نقصان.. أما الباقي فلا شأن لي به بعد الآن..!

والتفت إليها رئيس قسم الشرطة بعد أن ودّع ضيوفه من الزملاء.. فنهض من مقعده وسلّم عليها وقال لها أنّ زميلَيْن مكلفيْن بمرافقتها إلى محطة الحافلات الرئيسة لكي يستقبلوا معها ابنها القادم من شرطة العاصمة.. وبعد أن تتم مراسم الاستقبال بحضور الصحافة بإمكانها أن تستلم ابنها هنا بصورة رسمية وتعود به إلى بيتها.

وبينما هي في انتظار الشرطيّين الآخريْن رأتْ سعاد وزوجها قادميْن في اتجاهها فقالا لها أنهما سيساندانها بالذهاب إلى محطة الحافلة لكي لا تحس بأنها وحيدة.. في هذه اللحظات الصعبة بالنسبة لها.. فضغطت على يد سعاد واحتضنتها وقالت لها أنها في أمسِّ الحاجة لقربها منها. وانطلق الخمسة معاً.. في سيارة الشرطة.

وحينما ترجّلوا في المحطة في اتجاه موقف الحافلة المنتظرة أحسّتْ عُليّة بقلبها يزداد خفقاناً وبرأسها يغلي من شدة الشوق لابنها. ورأتْ أعداداً غفيرة من صحفيين ومصورين ينوبون عن صحفهم في هذا الحدث العجيب وحاولوا الاقتراب من عُليّة ألاّ أنهم مُنعوا من قِبل رجال الشرطة. ووقفت الحافلة القادمة من تونس العاصمة وفُتح بابُها وبدأ الركاب ينزلون وأخذ قلبُ عُليّة يخفق أكثر فأكثر.. وهي تنظر وتراقب عن كثب وتتطلع في وجوه الركاب.. ثم رأتْ طفلاً في السابعة أو في الثامنة من عمره يغادر الحافلة.. وسيماً مّرَتَّب الثياب طويل الشعر حسن الهندام برفقة شرطية تمسك بيده..!
فخطتْ عُليّة خطواتٍ قليلة نحو الطفل الواقف.. بالقرب من باب الحافلة.. وهي تضع يدها على فمها وتُنزل نظارتها الشمسية قليلاً على أنفها.. وأخذتْ تتأمل الطفل بتركيزٍ تام.. ثم التفتتْ إلى المنجي وسعاد وقالت لهما: لا.. هذا ليس هو ابني.. هذا ليس معتز..!!
ففتحت سعاد فمها كأنها تريد أن تقول شيئاً ولكنها.. سكتتْ..!

فقال المنجي: الأطفالُ يكبرون بسرعة ويتغيّرون.. وابنك غاب عنك عدة سنوات ولابد أنه تغيّر بحيث لمْ يعُد كما كان. فقالت عُليّة هذا ليس ابني. أنا متأكدة بأنه ليس أبني. وفي تلك الأثناء قالت الشرطيّة المرافقة للطفل: هذه هي ماما.. هل عرفتها؟ اذهب إليها واحضنها. فترك الطفل يدَّ الشرطية.. وخطى مسرعاً وهو يقول: ماما أنا معتز.. فقالتْ عُليّة: لا أنت لست معتز.. هذا ليس أبني أنا متأكدة.. فقال الطفل أنا معتز وأنتِ ماما.. فتأخرتْ عُليّة في تلك اللحظة خطوةً إلى الوراء حين حاول أن يحضنها.. فأسرع ورمى بجسمه عليها وطوّقها بذراعيه.. فبقيتْ في مكانها واقفةً وباعدتْ بين يديها ولم تحضنه كما فعل هو. والتفتت عُليّة لسعاد وقالت: هذا ليس ابني.

فتجمَّع الصحفيون حولها وأخذوا يصورونها مع الطفل.. وهم في نشوة "**السبق الصحفي**" وبدأوا يقرِّبون الميكروفونات ويُطْلِقون ما لديهم من أسئلة متداخلة كطلقات الرصاص وبأصوات مختلفة..!
فأما عُليّة فلم تقل شيئاً وأما الطفل فأخذ ينظر للعدسات ويبتسم وكأنه نجمٌ سينمائي.. فتارةً يسوّي شعره وتارةً أخرى ملابسه وهو يحضن عُليّة ويقول نعم هذه أمي وأنا معتز. وعمري ثمانية أعوام.

ثم تدخل المحامي المنجي والضابطان الآخران وطوقوا عُليّة والطفل واخترقوا زحام الصحفيين والركاب المتطفّلين وخرجوا بهما في اتجاه سيارة الشرطة التي كانت بانتظارهم.. وركبوا ومعهم سعاد وانطلقت السيارة مسرعة فغادرتْ محطة الحافلات عائدةً إلى مركز الشرطة.
استقبلهم رئيس الشرطة عند البوابة قائلاً: هل الْتَمَّ الشملُ أخيراً..؟!
في تلك الأثناء قالتْ عُليّة: أنا متأكدة من أنه ليس ابني.. فتعجّب الرئيس وقال: أيكون ابنك قد تغيّر لدرجة أنكِ لم تتعرفي عليه؟!
فكررتْ عُليّة قولها السابق: صدقني يا سيدي.. هذا ليس بابني.

ساد صمتٌ تامٌّ بين رجال الشرطة ثم قال الرئيس دعونا ندخل ونرى كيف نُقْنِع هذه السيدة بأن ابنها عاد إلى حضنها. فقد يحدث أحياناً أن تختلط الأمور على الأم بحيث أنها لا تصدق عودة ابنها بعد أن غاب عنها لعدة سنوات.. فكأنها فقدتْ الأمل فيه. وحين جاءها نبأُ عودته لم تصدق نفسها ولا الآخرين بأنّ هذا الأمرَ ممكنٌ. لقد سبق وأنْ رأيتُ في حياتي المهنية العديد من هذه الحالات العجيبة.
صدقيني يا سيدتي أنه ابنك.. فلقد اتُخذتْ كلُّ الاجراءات القانونية.. والأمنية والاجتماعية بحيث أنّ الشرطة لا تسلّمُ لكِ طفلاً.. لمجرد إرضائك. فهذه مسألة لا تقبل اللعب والتلاعب.. لابد وأن الجهات المسؤولة تأكدت مئة في المئة من أن الطفل ابنك وتنطبق عليه كل الصفات التي سبق وأن أدليْتِ بها.. قبل أن يتم تسليمه إليكِ..!
لكنْ معكِ حق في الاشتباه.. لأن الأطفال في مقتبل العمر يتغيّرون. ولا يبقون بنفس الأوصاف عبر السنين.. فلوْنُ الشَعْر يتغيّر وكذلك لون البشرة والأنف والفم والعينان. لا شيء يبقى ثابتاً كما هو. فقالت عُليّة لكن هناك إحساسٌ داخلي لدى الأم قد لا تعرفه أنت كرجل. وهو الذي يميّز الابن عن بقية الأطفال.. إنها الغريزة يا سيدي.

ولم تستطع عُليّة أن تُقنع أحداً من الحاضرين.. كما أنهم لم يتمكنوا من إقناعها. لكنْ غلبتْ كفّةُ الشرطة وقرروا بأن تعود بابنها إلى بيتها فخرجتْ به على مضض.. بينما كان هو يمسك بثيابها ويدها بقوة. وما أن دخلتْ به على أمها حتى قالت: *بسم الله لعظيم منو هذا* ؟ فقالت لها ابنتها أنهم مصرون على أنه معتز. فقالت السيدة شادية: ربما الحكومة تعلم أشياءً.. لا يعلمها أفراد الشعب أحياناً..!

وكانت عُليّة قد حضّرتْ لابنها من قبل بعض الثياب. فأمرتْ الطفل بأن يدخل ليستحم.. ثم يستبدل ثيابه لكي يتناول الغذاء.. ففعل.

وبينما كانت تُعد مائدة الطعام كالعادة سمعتْ اصطداماً في الحمام.. فأسرعتْ إليه فوجدتْ الطفل واقعاً في الحوض.. فقال لها أنه انزلق ووقع.. فأرادتْ أن تساعده فاكتشفتْ سراً أثار انتباهها على الفور. إن الولد **غير مختون**.. بينما كُلُّ الصبيان في دار اليتيم يتم ختانهم في أولى أشهر العمر عملاً بالسنة النبوية.. فخرجتْ إلى أمها وذكرتْ لها ما رأتْ. فاستغربت السيدة شادية.. وقالت لها: *معاك حق..!*

وقبل أن يتناولوا طعام الغذاء قالت عُليّة للطفل تختبره: ما هي ألذ وجبة تحبُّها؟ فقال لها البطاطا المقلية. فتبادلت مع أمها النظرات. إذ كان معتز يحب بالدرجة الأولى المكرونة السباقيتي المسلوقة أكثر من أي طعام آخر. كما أنه كان يحب السمك.. أما هذا الطفل فيبدو أنه لا يحب السمك إذ تركه كما هو في الصحن وقالت السيدة شادية وهي تلاحظه: ربما تغيّرت طبائعه في الأكل.. مع مرور السنوات..!
وسألته عُليّة: هل أُجريتْ لك أيُّ عملية جراحية؟ فردّ عليها بالنفي. بينما ابنها أجريت له عملية الزائدة الدودية.. وما استرعى انتباهها أيضاً أنه أقلَّ ميلاً للرياضة وأن وزنه يميل إلى البدانة بينما كان معتز نحيلاً وسريع الحركة ويحب القفز والرياضة بمختلف أنواعها.
ثم خطر ببالها فاتصلت بالسيدة فريال وأخبرتها بالحدث وطلبتْ منها أن تساعدها في كيفية التأكد من أنه معتز أو غير معتز. واتفقتْ معها على أن تُحضره في اليوم التالي إلى دار اليتيم لاختباره بالفعل.

وفي دار اليتيم طلبتْ منه السيدة فريال وقد شكّتْ هي الأخرى.. في أوصافه بأن يجلس في المقعد الذي اعتاد الجلوس فيه في الفصل.. فجلس في غير مقعده.. ثم أعطته فرصة ثانية فجلس في مقعد غير الذي اعتاد أن يجلس فيه.. فسألته عن اسم المعلمة التي كانت تعلمه.. فقال لها أنه قد نسي اسمها بعد مرور أربع سنوات..!!

وهكذا لم تقتنع عُليّة بالطفل كابنها بل أصرت كل الإصرار على أنْ لا علاقة لها به.. وذهبتْ به إلى قسم الشرطة وأرادت إرجاعه.. وسبق أن ذكرت للصحفيين بأنّ الشرطة لم تشأ أن تستمر في البحث عن طفلها الحقيقي واكتفت بإيجاد بديل بهويّة مجهولة لتداري فشلها.

فما كان من رئيس الشرطة إلا أن غضب واتصل بجهاتٍ عليا وأصدر تعليماته بإلقاء القبض فوراً على عُليّة.. فوُضعتْ الأغلال في يديها.. ثم أُرسلتْ إلى المصحة العقلية لإجراء فحصٍ لها على قواها العقلية المشكوك فيها. وهناك بقيتْ أسبوعاً كاملاً على ذمة المراقبة.

وخلال الأسبوع الفظيع رأت عُليّة ما لم تتصور أن تراه في حياتها. فسيقتْ لغرفةٍ فيها امرأةٌ بشَعْرٍ منكوش ونظرٍ عبوس.. وصوتٍ كالجاموس.. وهي تصيح: *هادي داري هادي داري*. ففزعت عُليّة وانكمشتْ في زاوية ولم تستطع أن تهدأ وتنام.

فدخلت عليها السجّانة. فساقتها إلى صالة يوجد فيها سرير للكشف وطبيب ومجموعة من الممرضين بثياب بيض.. فقيّدوها وأجروا لها حقنة مهدئة فاسترخت وباتت كلما أفاقت مذعورة.. أُعطيتْ حقنةٌ مماثلة لضمان بقائها نائمة مسترخية.. فكانت لا تفيق إلا لكي تأكل وتشرب أو تدخل الحمام في ذعر وترقب.. وهي لا تعلم لماذا.

وبعد أن انقضى الأسبوع الرهيب أُطلق سراحها في هيئةٍ يُرثى لها من الخوف والهزال والاستسلام. وعند المدخل وجدتْ سعاد وزوجها المنجي. فقال أنه من الأفضل لها أن تبقى في البيت ولا تخرج ولا تقابل أي صحفي ولا تدُلي بأي شهادة أو تعليق.. عما حدث لها.

فالأمور في البلاد تسير وفق سياسة بوليسية لا مجال لمقاومتها..!

ولكن عُليّة لم تسكت بل اتصلت بأكثر من صحفي.. وصرّحت لهم بما شاهدته ولمسته من معاملة في تلك المصحة من دون مراعاة ما للإنسان من كرامة وقيمة حتى وإن كان مريضاً. فالهدف كل الهدف هناك هو تحطيم المعنويات وإذلال النفس البشرية بحيث لا يَحِقُّ التعبير عن أي رغبة أو رفض أو رأي. ويبدو أن المحامي المنجي كان على علم بما في سلك الشرطة من فسادٍ وسوادٍ واضطهادٍ واستبداد.

فكلّفته عُليّة على إثر ذلك كمحامي حقوقي للمطالبة بإرجاع كرامتها. من قبل الشرطة وتعويضها عما لحق بها من أضرار بدنية ونفسية وعقلية وكشف ملابسات القضية. وتوصّل المحامي الشجاع إلى أنّ الشرطة كانت تريد بالفعل أن تغطي على عجزها. بأن اختلقت قصة الطفل البديل واحتفلت بإنجاز قدرتها على التقصّي وأوهمتْ الرأي العام بأنها ساهرة على راحة المظلومين وإرجاع حقوقهم إليهم.

ويبدو كأن عُليّة اكتسبت مناعةً.. بعد خروجها من المصحة العقلية فلم تعد تهاب أي عقاب بل صعّدتْ الموقف وتمكنت من الوصول بقضيتها لمكتب **رئيس الدولة**. ولكنها فوجئت بأن القضية توقّفتْ عند ذلك الحد ولم تتخطاه.. وبأن الطريق أصبح مسدوداً..!

وعرفت عُليّة فيما بعد أن المحامي المنجي.. هو من كان وراء اطلاق سراحها من المصحة العقلية وأن أغلب النزلاء في تلك المصحة كانوا من ضحايا الشرطة بل منهم من كان من السجناء السياسيين. وأنهم يعالجون بالحقن المنومة أو بالصدمات الكهربائية أحياناً.

وأظهرت التحقيقات في الصدد أنّ هناك في البلاد ما لا يقل عن 15 حالة اختطاف لأطفال في سن معتز أو أكبر قليلاً ولا زالوا مفقودين.. واتضح من التحريات أنّ الأمل في العثور على هؤلاء الأطفال أصبح ضئيلاً جداً بعد اكتشاف عصاباتٍ تتاجر بالأعضاء البشرية..!

ومن ضمن أولئك الضحايا: الطفل معتز. إذ اتضح بأن الطفل الذي قدمته الشرطة إلى عُليّة ما هو في الحقيقة إلا طفلٌ بديل. ومن خلال جهود المحامي المنجي عُرف والد الطفل البديل وتم القبض عليه واعترف بأنه تقاضى مبلغاً من المال لقاء أن يُمثِّل ابنُهُ الدور.

ودلّتْ الخيوط إلى أن الشرطة متورطة في شراء ذمة ذلك الأب وبعد تقديمه للعدالة حَكمتْ المحكمة بسجنه لمدة 10 أعوام. وحكمتْ على رئيس قسم الشرطة بعزله من منصبه ومن سلك الشرطة نهائياً وبغرامة مالية ثم بالسجن لمدة 3 سنوات. كما أن أكبر مسؤول في الشرطة قدّم استقالته للسيد وزير الشؤون الداخلية.
ومن ناحية أخرى قُدّم مدير المصحة العقلية للعدالة على حقيقة ما يلقاه مرضاه من تسيّب ومعاملة لاإنسانية سيئة للغاية. وسُحبتْ منه بناءً على ذلك رخصةُ مزاولة المهنة.. وعُزل من منصبه وحُكم عليه بالسجن لمدة 3 سنوات مع النفاذ.. وأعيد النظر في هيكلية المصحة العقلية ووجّهتْ أوامر عليا لوزير الصحة للقيام بخطوات الإصلاح فوراً.. وبوجوب موافاة رئاسة الوزراء والمجلس الأعلى للدولة بما قام ويقوم به من اجراءات فعلية أولاً بأول.
لم تصل لعُليّة أيُّ أخبار عن ابنها المفقود. لكنّ المحامي المنجي قال أنّ لديه معلوماتٍ تشير إلى أن **مهدي** (أو *سهيل*) ابن سي لحبيب له صلة باختفاء ابن عُليّة معتز والذي هو في نفس الوقت ابنه.. وذكر المحامي المنجي أنّ هذه المسألة لم تزل قيد البحث من قِبل مكتبه.

وحين استفسرتْ عُليّة عن تلك *الصلة* قال لها المنجي أنّ لديه بعض المعلومات تدل على أن مهدي هو من استأجر شخصاً لاختطاف "ابنه" من دار اليتيم ثم أُرسل إلى مكانٍ مجهول إلى حين استخراج جواز سفرٍ مزورٍ له ثم إرساله إلى الخارج (تحديداً فرنسا)..!

وهنا ازدادت حيرة عُليّة وازداد أملها في نفس الوقت بأن تعثر على ابنها.. وفكّرتْ في أن تتصل بمهدي (أو سهيل) وتتحاور معه في هذا الشأن. ولكنها حينما استشارتْ المحامي المنجي.. نصحها بألا تفعل على الأقل في الأيام القليلة المقبلة لكي لا تضيّع عليه فرصة الوصول إلى معلومات أدق يتوقع أن يتحصل عليها في القريب العاجل.

وأخذت عُليّة تتساءل: عما دعاه لاختطافه "ابنه" بدلاً من أن يقوم بتبنّيه بطريقة قانونية أو يعترف به كابنه؟ ولماذا يُرسله إلى الخارج ويستخرج له مستنداتٍ مزورة ويعرّض نفسه للعقوبات..؟
إنها ليست مقتنعة بصحة هذه النظرية.. بل تكاد ألا تصدقها. فهل هو من الغباء بحيث يختار طريقةً أخطر؟ لا.. لا. لقد عرِفْتُهُ شاباً جباناً.. لم يستطع حتى أن يقابلني أول مرة في المكتب.. بل انسحب وخرج مسرعاً خوفاً من أن أراه لكنه بعد أيامٍ عاد وقابلني أمام مدخل العمارة. لكني في نفس الوقت أعلم أن المنجي له خبرة كمحامي وأن شكوكه في هذا الشاب ليست من فراغ.. حتى وإن بدت غريبة..!

وما المشكلة في أن أدعه عدة أيام لعله يتوصل إلى نتيجة؟! سأتركه يتدبر أمره وسوف لن أُلِحّ عليه لكي يستعجل فإنّ غداً لناظره قريب. والدنيا مليئة بالعجائب والغرائب والنوائب خيرها وشرها.
وبالرغم من أن حديث السيدة شادية لا يُملّ ولا يتوقف إلا أنني لم استطع أن أبقى معها إلى ما بعد أذان المغرب فلدي ارتباطات أخرى. ولابد لي من أن أعود إلى بيتنا لأرى ما قد تحتاجه أمي أو أخي سامي مني أو أن أتم ما عليّ من واجبات.. فاستأذنتُ من السيدة شادية وأشرتُ بيدي إلى السيدة عُليّة بأنّني سأعود إلى بيتنا وخرجت..! فودعتني كالعادة عند باب البيت بصحنٍ مليءٍ بدقلة تونسية.. وهي تبتسم.. فخرجتُ وأنا أتعجب كيف أنها قاومت الظروف..!

غسيل السيارة

دخلتُ مجال الصحافة بالفعل. وأصبحتُ أكتب مقالات أسبوعية وفي بعض المناسبات حتى يومية بصحيفتيْن تصدران محلياً وصار لي جمهورٌ متواضعٌ لكنه منتظم بقراءة مقالاتي ثم مراسلتي لمناقشة فحواها ونقدها. وبِتُّ أسعد أيما سعادة بتلك الرسائل والتعليقات. وانتظرها بفارغ الصبر لما لها من فوائد عظيمة في توجيه دفة قاربي في بحر الصحافة المتلاطم. كما بدأتُ أطرق باب الأدب كذلك.

فقمتُ بتأليف بعض القصص القصيرة وشرعتُ في كتابة روايةٍ رأيتُ أن يكون لها مضمونٌ فلسفيٌّ اجتماعيٌّ أو إصلاحيٌّ وبعيدٌ كل البُعد عن المضمون الاستهلاكي الرخيص المنتشر في تلك الأيام.. ولمستُ من أستاذي خالد كل تشجيع.. إضافةً إلى تشجيع الأستاذ عثمان جعفر معلم مادة اللغة العربية والدين بالمعهد قبل أن أنهي سنواته التدريبية.. وبعد أن قررتُ بالفعل أن أصحح مسيرتي المستقبلية.

ولكنني لم انقطع عن التواصل مع جيراني ومع زملائي.. بل اعتبرتهم الزاد المهمّ في مسيرتي. وكنتُ بدأت ميلي للأدب بوضع وتأليف مواقف مسرحية ومقالات حائطية وإذاعية بالمعهد. إلى جانب ما وجدته من تفاعل مع سكان قريتي من الهامٍ أدبيٍّ رسم لي طريقي المستقبلي.. من قبل أن أخطو فيه خطوة واحدة بالفعل والقصد. بل كنتُ مدفوعاً إليه من دون أن أشعر في أولى سنوات صباي.

واكتشفتُ أنني بطبعي لم أستطع أن أجلس لمشاهدة مباراة رياضية أو لعبة للتسلية لأكثر من دقائق معدودة ثم أجد نفسي مدفوعاً لأن آخذ القلم والورقة لأكتب شيئاً ولو كانت خاطرة عابرة وسريعة. فالوقت كان عندي أغلى من أن أمضيه في اللهو واللغو فحسب.

ورجعْتُ بالذاكرة إلى ما سردتْهُ السيدة **شادية** عن ابنتها وابنها معتز. ثم عن علاقتها الوطيدة بالشاب عدنان بوّاب العمارة. وعما حكت لي فوزية عن قصة أبيها صالح وكيف نشأ في أسرة إيطالية وهو يتيم قذفته أمواج الغربة من تونس فترعرع وعاش بطرابلس وأصبح منها.

ولعل العلاقة التي نشأتْ بيني وبين المعلم التونسي.. كان لها أطيب الأثر في حياتي.. فصارت ذكراه تلازمني.. وظل يقول لي: *يا سي سالم*. كدليل التواضع منه.. إذ أنه أكبر مني سناً وأكبر قدراً وعلماً. وهو ما دفعني لأن أخلّد ذكراه بهذه الرواية ويُعتبر هو البطل فيها. وسيأتي الحديث عنه في الفصول المتبقية منها حيث سنرى ما حدث له.

ومن المؤسف أن المعلم التونسي ازدادتْ معاناته من ضعف النظر. بشكل متزايد.. إلى حد أنه لم يعد يسير خطوتيْن.. إلاّ ومعه عصاه الرفيعة أو إلا حين يكون بمرافقة أحدٍ منا.. حتى وإن لم يؤثر ذلك على معنوياته وروحه المرحة ونشاطاته بالمعهد مع زملائه وطلابه.

لقد صار عندي رمزاً للتحدي.. وتعلمتُ منه أن *الخسارة العظمى* في فقدان العقل والادراك وليست في خسارة أعضاء الجسد. وأن سلاح النصر على مصائب الدنيا والدهر هو بالتفوق المعنوي عليها .. عن طريق روح المرح و الابتكار والأمل. **المرح-الابتكار-الأمل**.

أقوى أسلحة لمواجهة مصاعب الدنيا والدهر.

بالرغم من انتهاء مدة التحاقي بالمعهد المهني في قريتنا إلا أنني بقيتُ على اتصالٍ به وبهيئة التدريس: الشيخ ميلود والأستاذ المرعب صخر الذي أصبح فيما بعد صديقي والأستاذ السوداني طيب القلب عثمان جعفر وأستاذ الكيمياء والفيزياء مصطفى والمعلم التونسي.. أما الأستاذ خالد الذي أعطانا دروساً فريدة من نوعها ولا تُنسى.. في مادة الأحياء فقد توقف كما عرفنا عن مزاولة مهنة التدريس وتحول إلى المتحف وحديقة الحيوان.. وأما معلم الرسم فأحيل إلى مجلس تأديبي ثم أوقف عن مهنة المعلم نهائياً لأسباب لا أخلاقية..!
وكنتُ أتابع الطلبة الذين أتوا من بعدنا في المعهد وأشجعهم على إصدار الجريدة الحائطية وإعداد برامج الإذاعة المدرسية والمسرح المدرسي لكن شعلة الحماس سرعان ما انطفأتْ ووجدوا بدائل لها.
أما المعلم التونسي فقد استمر في نفس موقعه بالمعهد كمشرفٍ عام ولم يتغير شيءٌ فيه سوى أنّ نظره تأزم أكثر فأكثر. وبقيتُ بدوري على اتصال شخصي مستمر به وظل مقيماً في غرفته بالمعهد.

وفي مساءٍ حارٍ من أمسيات الصيف قمتُ بزيارته. فطلب أنْ أوصله إلى شاطيء البحر لكي يستحم وكانت معه نظارة السباحة فضحكتُ وقلت: ماذا ستفعل بها؟ فتبسّم هو الآخر وقال: سأبحث بها عن **عروس البحر** وأخطبها لتأخذني.. بعد أن امتنعَ عني **عرائس البشر**.
وما أنْ وصلنا الشاطيء حتى لبس شورت سباحة يصل إلى ركبتيه ثم وضع نظارة السباحة فوق نظارته الشمسية واحتفظ بقبعة *السعف* التونسية ثم قفز قفزةً مدوية وقال لي معلقاً: *حتى العروسة هربتْ* !
وقضّينا ساعة من أجمل وأمرح ما تكون السباحة في الماء المنعش.

ولما خرج دسّ يده في حقيبته وأخرج منها كيساً به دقلة تونسية.. فقلتُ له: أنتم التوانسة الدقلة ديما معاكم. فقال: *علامة مسجلة*!!

تجرأتُ ذات مرة وسألته: لماذا لا تتزوج؟ فقال: *تأخرتُ يا سي سالم فاتني القطار.. اوين نلقا العروسة اللي ترضى بيا*؟ فقلت له: أشّر..! فقال: *ن(ق)شر البصل يا سي سالم. وعمري قريب نوصل الخمسين سنا*.. قلتُ له: *عز الشباب*. فقال: *الزواج في ليبيا غالي ياسر*..!

وأنا زي ما تقولو: كوحّيتي..! فقلتُ: *تلقا مرا كوحّيتي*..! فقال: *هيا تكحّ وأنا نكْحّ والصغار يكوحّوا.. هههه عيلة بوكحة. شنوا رايك*..!؟

ثم قال: *من جد منجد.. تعرفْ عيلة تعطي بنتها لتونسي فقير وشبه أعمى وما عندو كان شهادة فالموسيقى..؟ وفي ليبيا عندكم الموسيقى حرام. تسمّيْوه زكاكري. ما يرضوش بيا*. فقلت: *هلبة ليبيّين متزوجين من تونس وعايشين مرتاحين. وفيه توانسا نساوينهم ليبيات*..!

فقال: *يا سي سالم.. تعرف أفضل حل بالنسبة ليا أنا.. شني هوّا*..؟!

أنا ما تنفع بيا كان عروس البحر. لا تبّي دار ولا مهر ولا سهر.. نعيش معاها فلبحر. ما يلزمهاش فساتين وكوافير للشعر.. فهمت يا سي سالم. اندبّر عليك حتى إنتِ تشوفلك وحدة فلبحر. فقلتُ له: *وكيف تتفاهم معاها؟ تتكلم عربي*؟ قال: *تتكلم بجميع لغات العالم. وتحت الما.. ما يلزمكمش كلام بلكْلْ.. بالإشارة برك.. افهمتني*..!؟

أعترف أنني وجدتُ تفكيره هذا منطقياً وعملياً ومناسباً للظرف الذي يعيشه. بل حتى لظروفنا نحن الشباب القريبين سناً من عمر الزواج. والبعيدين عنه في نفس الوقت من حيث الاستعداد. وفجأة قال لي: *الزواج اهنا كيف ما تقول قطوس فشكارة.. سعدك بختك. يا تصيب يا تخيب. زي اللي يلعب فلقمار. نقدر نقعد مع لبنيّة.. لوحدنا*؟!! *مش ممكن. كانا قعدت شطر والإ شطرين.. بوك باشا.. يزّينا عاد.. قالك زواز قالك. موش كل حد يقدر عالزواز. موش كل حد ينفع*.

تخيّلتُ لو أنني سأتزوج مثلاً مثلاً. **فوزية**. أين سأسكن بها؟ هل مع أمي وأخي سامي في بيتنا الصغيرة وبه غرفتان فقط. غرفتان لا غير! ومن أين سآتي لها بالمهر؟ وبالذهب؟ وبالأثاث؟ وبالفرش؟ وبما يلزمها من ثياب وأحذية وزينة؟ وكيف أوفر لها أدوات المطبخ..؟

فعلا المعلم التونسي معه حق. أفضل حل هي **عروس البحر**. ولكن كيف اصطاد عروس البحر؟ وأين أجدها؟ وهل ستأتي إلى الشاطيء وتكون في انتظاري؟ وهل سأذهب معها إلى أهلها؟ وهل لها أهل؟! وما شكلهم وهل سيقبلونني معهم؟ وكيف أعيش وماذا أعمل؟!

لا بأس.. سأتعلم لغتهم: الأرقام من 1-10: *اوكسي كاكسي كوّلمي نيليا فيزي كووزي سايتسيمان كاهديكسان اوهديكسان كومّينان*. وسوف أقول لها: *أوليت كاونيس تيتو*: *بمعنى أنت فتاة جميلة*. وأقول: *مينا راكستان سينوا*: *أنا أحبك*. *أوليتكو فايموني*: هل تكونين زوجتي؟

هل في هذا أي صعوبة؟ لا أظن. سأتعلم لغتها بسرعة وأتقنها. ثم لا حاجة لها بمهر.. فقط عِقْد المحار واللؤلؤ: *أوستيرايتا - هيلميا* ! وهي لا تحتاج لفساتين وأحذية ومواد زينة وأصباغ وكوافير وحنّة.

فكرة رائعة إذا نجحتْ فسوف أكتب عنها في الصحافة لكي يستفيد منها الشبّان من أمثالي وتستفيد منها الفتيات أيضاً.. اللآئي يرغبْنَ في أن يصبحن عرائس البحر بدلاً من عوانس البشر.. لكنْ عليْهُنَّ تعلُّم السباحة فلا شيء أفضل من السباحة.. ليصْبحْنَ رشيقاتٍ خفيفاتٍ نظيفاتٍ جميلاتٍ سعيدات.. ولا يحتجْنَ لأيِّ مزيّن أو مشيّن !!

أيقظني المعلم التونسي من غفوتي وسرحاني وحلمي.. أثناء اليقظة.. وهو يستعد لاستبدال الشورت المضحك بملابس الشارع لكي نعود إلى حياتنا اليومية ونودع الأحلام الوردية الناعمة ونودع البحر.

أعادتني السيدة شادية في اللقاء التالي إلى قصة **معتز** وكيف اُختطف من دار اليتيم وعمره في الرابعة وقالت لي أنه: طفلٌ ذكيٌّ فَطِنٌ سابقٌ لعمره وأقرانه. فحفظ جدول الأعداد باللغتين العربية والفرنسية ثم الحروف الأبجدية أيضاً باللغتين. وكان رياضياً يحب الحركة وجسمه رشيق ويحفظ الأسماء بسرعة ويعرف من أنا بالرغم من أنه رآني مرة أو مرتين.. ويعرف عدنان ويبتسم لكل أحدٍ فلا يخاف من أحد.
وبينما كانت السيدة شادية تتحدث إليّ بصوتها الغليظ الذي يشبه آلة التشيللو في الفرقة الموسيقية كانت عُليّة ابنتها جالسة بجوارنا - وهي بالطبع لا تسمع- لكنها تراقب حركة شفتيْ أمها. فتبدو أنها على علم بما يُقال تمام العلم.. وتتبّع الحديث باهتمام واضح وتنظر إليّ بين الحين والآخر وتبتسم أو تقطب الجبين حسب الموقف..!

أدلتْ السيدة شادية بحديثها عن **اختطاف معتز** فرأيتُ دموع عُليّة تنساب على خدّيْها كما ينساب المطر على زجاج السيارة. وهي هادئة ساكنة لا صوت لها وكأنها قد عادتْ بكافة جوارحها إلى تلك اللحظات الرهيبة وسافرتْ إلى هناك وتركتْ جسدها تمثالاً بجوارنا: أمها وأنا.. فعادتْ تتذكر الموقف.. كما وصفوه لها:
نَزَلَ رجلٌ من السيارة يرتدي معطفاً شتوياً أسوداً ودخل الحديقة أمام مبنى بيت اليتيم وتسلل مسرعاً ثم انحنى على **معتز** ذي الأربعة أعوام الواقف بجوار الشجرة فأعطاه تفاحةً حمراء.. وقال له: *هادي من بابا يحب يشوفك*.. سَمِعتْهُ *جوليا* وهي قريبة من معتز وكثيراً ما تلعب معه. فرفع معتز نظره إلى الرجل وقال له: *بابا أنا منعرفش بابا وينو هوا*؟ فأشار الرجل بإصبعه إلى السيارة الواقفة..!

فقال معتز: *بلحق*؟ *وينو هوا*؟ فقال الرجل هوّ في السيارة.. يريد أن يراك.. هل تأتي معي لنذهب إليه.. تعالى هيا.. إنه هناك.. !

ولمحتْ **جوليا** الرجل يمسك بيد معتز ليذهب معه إلى السيارة.. ورأتْ في السيارة شاباً نحيلاً يرتدي ملابس ثقيلة.. وفوق رأسه قبعة فرنسية رمادية.. وظنّتْ جوليا أن معتز سوف يعود بعد قليل ليلعب معها لكنه لم يعد.. ودخل السيارة فأقلعتْ به على الفور واختفتْ.
ولم تتذكّرْ جوليا أي أوصاف أو علامات من الشاب سوى أنّ وجهَهُ أبيضُ البَشْرة نحيلٌ شعُره أسود ولحيتُه مهملة ولم تره إلا للحظات.
وما أن خرجت المربيات والمعلمات وعاد الحارس إلى مكانه بمدخل الحديقة حتى انطلقت السيارة مسرعة واختفت عن الأنظار وفيها رجلان وطفلٌ - حسب ما قاله شهود العيان من المارة هناك.
وقامت السيدة فريال مديرة الدار بإبلاغ الشرطة لكن بلا جدوى. ثم تدخلت الصحافة ونشرتْ صوراً لمعتز وأمه (عزيزة) من دون نتيجة.
ومرّتْ أشهرٌ وسنوات من غير إشارة حياة أو موت عن الطفل.

دلَّ تقصّى الأحداث أنّ معتز ذا الأربعة أعوام اُختطفَ من قِبل شاب يُدعى مهدي الحبيب الصيد يُقال أنه *والده البيولوجي* غير الشرعي.. لم يعترف به وقت ولادته وكما أدلتْ أمه بذلك لاحقاً بعد اختطافه ونقلَهُ "مهدي" إلى مزرعة يمتلكها أبوه بطرف المدينة فتركه في قبو مساحته 3م3x3م. ولم تكن به نافذة لكنْ به مرحاضٌ أرضى وحوضٌ لغسل الوجه وسريرٌ فرديٌّ.. وله باب حديدي مقفل.. واُجبِر الطفلُ على أن يقيم فيه.. طيلة السنوات التالية بمفرده.

وفي الصباح كان مهدي يُحضِر له رغيف خبز ومربى وجبن مع كوبٍ من الحليب ويجلس بجواره حتى يُتِمّ افطاره لكي يأخذ منه الأدوات ولا يتركها عنده أبداً خوفاً من أن يستعملها للهروب أو للانتحار.. كما اعترف بذلك مهدي بنفسه فيما بعد من خلال التحقيق معه.

كانت الأيام الأولى من إقامة الطفل في ذلك القبو من أشد الأوقات قسوةً وبأساً عليه. إذ كان يبكي معظم الوقت إلى أن يأخذه النعاس. ويفيق مذعوراً مفزوعاً ليلاً حين يسمع نباح الكلاب. ولم يُسمح له بمغادرة القبو نهاراً ولا ليلاً مطلقاً. وكان يتوسل إلى هذا الشاب الذي لا يدري أهو أبوه بالفعل أم هو غريب يدّعي أنه أبوه واختطفه !؟

ثم لماذا اختطفه؟ أيريد أن ينتقم من أمه أمْ ربما من مدام فريال؟ أم يريد أن ينتقم منه هو؟ وماذا فعل له لكي ينتقم منه؟ فهو لم يسبق له وأن رآه أبداً من قبل.. ولم يسبق وأن زاره في الدار أبداً؟ فمن هو؟ وماذا يريد منه؟ هل يريد مالاً من أمه أو ربما من جدته شادية..؟!

في إحدى المرات سأله: *صحيح إنتي بابا* ؟ فأجابه: *ما قاتلكش أمك* ؟ وفي أحيانٍ أخرى قال له: *توا تعرف بعدين شكون أنا. اسكت توا ونام*. وكان معتز يقضي أغلب الوقت بمفرده بذلك القبو البارد. كان القبو على عمق مرتين تحت سطح الأرض ومبنيّاً من الخرسانة وله سُلّم حديدي منذ عهد الاحتلال الفرنسي لتونس.. وكان في القبو مصباحُ إنارةٍ واحد بالسقف يُطفأ فقط عند النوم ليلاً. ولم يكن مسموحاً له بمغادرة ذلك الحيز الضيق ولا بمقابلة أحد من الناس!
وكان مهدي لا يغيب عنه.. إلا لبضع ساعات في النهار.. وعندما يسمع معتز صوت محرك السيارة المميز يعرف أنه غادر المزرعة أو أنه ها قد عاد من جديد.. فيطْمئنّ إلى أنه لم يتركه سجيناً وهرب.
وذكر معتز فيما بعد أنه وجد في غرفة القبو عدة ألعاب بلاستيكية ونماذج عديدة لحيوانات أليفة ومفترسة صغيرة الحجم. ويبدو أن مهدي قد اشتراها له خصيصاً.. لكي لا يشعر بالملل من البقاء بمفرده.. ولم يكن معتز يدري أهو رفيقٌ به أم عدوٌّ له؟.. فقد حبسه من غير أن يُعَنِّفهُ أو يقسو عليه. لكنه لم يفهم لماذا ظل يحبسه؟

وكان مهدي قليل الكلام والبقاء معه إلا لوقت تقديم الطعام أو أكله وحين يمتنع عن الأكل كان يسأله: تحب ماكلة أُخرا؟! فكان معتز يهز رأسه بالنفي ثم يبدأ بتناول الطعام. وفي بداية مدة الحجز كان مهدي يحسس ابنه بأنه موجودٌ بالقرب منه.. لكي يستأنس ويهدأ. وفي أول الليل تعمّد أن يبقى بجواره بالقبو حتى ينام ثم يخرج ويتركه بمفرده حتى الصباح.. إلى أن تعوّد الطفل على الوِحدة.

ولا يدري أحدٌ من أين وكيف عرف مهدي.. أنّ الطفل يفضّل أكل السباقيتي والسمك عن باقي الطعام وكذلك الموز والكورن فلاكس. كما كان في دار اليتيم. ولم يكن يميل إلى البطاطا المقلية. وكان يقوم بأداء حركات بدنية حتى وهو مسجون في القبو الضيّق. وكان مهدي كلما خرج من القبو أقفل عليه باب القبو الحديدي من ورائه.
وبعد مرور عدة أشهر سمح له بالخروج مقيداً بسلسلة طويلة بين قدميه ليرى النور والشجر والحيوانات بالمزرعة لبضع ساعات. ثم أمره بأن يساعده في غسل سيارته وفي ريِّ الأشجار وقطف البرتقال وبقية ثمار المحصول. وهو مربوط بسلسة طويلة من الحديد. وكان معتز يجد في تلك الساعة فرصة لاستنشاق الحرية بعد أن حُرم منها لساعات طويلة في ذلك القبو الرطب البارد والخانق تحت الأرض.

ثم سمح له بأن يتناول وجبات الطعام معه بين الأشجار خارج القبو وبالاستحمام في حوض الساحة أو في الحمام الخارجي.. وجلب له ثياباً جديدة أو نظيفة لأن الأولى باتت صغيرة عليه.. كما قام بحلاقة شعر رأسه بالكامل بين الحين والحين.. لكنه لم يسمح لأيِّ أحدٍ بأن يزوره أو حتى يراه بل إنه منعه حتى من رؤية الخفير طيلة حجزه..!
وظل الطفل يمضي الساعات معزولاً ومن دون أن يتكلم مع أحد.. أو يتصل بأحد.. فحتى حواره مع مهدي كان مقتضباً جداً..!

وحينما سؤل معتز عما إن كان يعلم اسم الرجل والذي هو أبوه قال أنه سمع الرجل السمين الذي اختطفه من حديقة الدار.. يقول له: "*يا سي* ***مهدي***" فرسخ الاسم في ذاكرته منذ ذلك اليوم ولم ينسه.

لكنه ظل لا يعلم ما إن كان أباه بالفعل أم لا؟.. بالرغم من أنه وعده بأنه سوف يُعْلِمُهُ بذلك. لكنه لم يفعل. وما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان أن يطرأ بتلك الطريقة بل إنّ معتز فوجيء بالموقف.

ففي إحدى المرات أمر مهدي الطفل - وقد مرّتْ عدة سنوات على حجزه في القبو- بأن يقوم بتنظيف سيارته بمكنسة كهربائية قبل أن يغسلها بالماء والصابون. ففك قيده لتسهل حركته وشرع الطفل في تلك العملية بالفعل. وأخذ مهدي يقوم بتغيير زيوت السيارة.

وبينما معتز منهمكٌ بعمله.. وكان صوت محرك المكنسة عالياً سمع مهدي أنّ أحداً يطرق باب المزرعة وينادي فذهب ليستطلع القادم. فأصبح معتز بمفرده في السيارة.. وحينما رأى أنه بلا قيد وأن مهدي مبتعداً قُرب مدخل المزرعة.. انطلق يجري فقز من على السور.

ووجد أمامه طريقاً فسار فيه بأسرع ما لديه من قوة فوجد أمامه بيتاً طرقه بقوة فخرجت منه سيدة فرنسية.. فطلب منها أن تخبأه.. ثم نادتْ زوجها والذي اتصل بدوره بالشرطة فأتته سيارتا شرطة. وذهبا به إلى مقرها في المدينة وحُفظ الطفل بعد أن أخذت أقواله.

وعلم معتصم بأن الشرطة ألقت القبض على مهدي وسيق من قبل الشرطة وهو مقيد اليدين والقدمين بعد أن اعترف في الحال بقضية الاختطاف لابنه والتي استمرت لمدة قاربت الأربع سنوات كاملة.. وصرّح بأن ذلك تمّ بترتيب من والده سي لحبيب صاحب العقارات المشهور في المدينة وألقي عليه القبض هو أيضاً لغرض محاكمته.

لكل فعل رد فعل

تأسّفْتُ شديدَ الأسْف حين سمِعتُ الخبر. لقد فَقَدَ المعلّمُ التونسي بصَرَهُ كلياً ولم يعُدْ يستطيع أن يرى إلاّ ضباباً كثيفاً جداً أمام عينيه.. وأخبرني بذلك يوم أن زرته لأرى إن كان يحتاج لأي خدمات مني.

وكنتُ أريد أن أحكي له عما وصلتُ إليه بمقالاتي الصحفية وصدور أول رواية طويلة لي بعد أن تمّ تعييني رسمياً في المركز الثقافي الليبي. إلى جانب تحرير زاوية بصحيفة محلية تحت عنوان: **ما قلَّ ودلَّ**. لكنني وجدتُ أنّ ذلك غير مناسب رغم أنني كنت أحس بأنه سوف يفرح معي من كل قلبه لأنه معاطفٌ معي ويعتبرني كأخيه أو ابنه.

وسألته عما يراه مناسباً له في تلك الأثناء. فقال لي أنه يعلم أن **ترقيع القرنية** عملية مُكلفة جداً لا يستطيع سدادها حتى لو وضع كافة ما تحصل عليه من تعويض لأرضه التي "*استولى*" عليها مصنع الخزف بمدينة **العقارب**. وهو لا يطمع في أن تقوم الدولة التونسية بسداد التكاليف الباهظة لتلك العملية الجراحية.. والمشكوك في نجاحها.. كما أنه ليس بإمكانه السفر إلى فرنسا للقيام بها هناك في مستشفى متخصص وأفضل دراية بهذا التدخل الجراحي الدقيق.

لذا ما عليه إلا بالصبر والانتظار حتى يأتيه الله بالفرج. ولمستُ منه قدرةً عجيبة على التكيّف مع الظروف فقد بقي في غرفة المشرف في المعهد منذ سنوات ولم يتغير فيها شيء. فسألته ذات يوم: من أين لك هذه القدرة على الصبر والتحمل؟ فقال لي: "*يا سي سالم.. اللي يعوّدك عالمر.. اللي أمرّ منو..!*". ثم قال لي جملة غريبة لم أتوقع أن أسمعها من أي إنسان قبله أو بعده. قال لي:"*أنا ربي بنقابلو سوا بعينين وإلا من غير عينين مش هكا؟ وإلا شنوا رايك يا سي سالم؟*".

صِرتُ أزوره يومياً بالرغم من أنني لم أعد أنتمي للمعهد بعد تخرجي. وأكبرتُ في المدير الشيخ ميلود كيف أنه سمح للمعلم التونسي بأن يبقى ضمن كادر المعلمين.. ليقوم بعملية الإشراف وتوجيه طابور الطلبة كل صباح كما عودنا في السابق بكل الحماس والجدية والروح المرحة. ورأيته يطل عليه في غرفته المتواضعة.. ويأتي له بين الحين والحين بوجبة طعام ساخنة من بيته أو بالفاكهة أو بعلبة حليب كما حرصتُ على ذلك بالمثل. لكي نؤكد للمعلم التونسي أنه بين أهله في بلاده وليس غريباً عنها أو معزولاً عنا.. فما لنا له وما علينا عليه..!

وكنتُ في داخلي موقناً من أنه يشعر بيننا بالراحة. وإلا لما بقي طوال هذه السنوات ولعاد من حيث أتى.. بل كان يقول مازحاً في أكثر من موقف: "*أنا حلفت باليمين ما عاد نخليكم ونغيب عليكم*..!". وكنا نضحك حين يقول ذلك في لقاءاتنا المتكررة وشبه اليومية معه.. ولكنني في قرارة نفسي كنت أحس بأنه يقصد ذلك ولا يبالغ..!

وكان المعلم التونسي يذكّرني بالشاعر والفيلسوف **الجاحظ** وهو*أبو عثمان عمرو ابن فزارة الكناني* وُلد في البصرة عام 775م. وعاش نحو 90 عاماً ويُعتبر من كبار أدباء العصر العباسي.. وقد لُقِّب بالجاحظ لجحوظ عينيه وعاش فقيراً وميالاً للهزل والسخرية وخفة الدم.

الجاحظ الأديب القنوع:
وبيّن الرسم بروز العينين بحدقتي هذا الأديب.

وقد ترك مكتبة تامة من المؤلفات عن عالم الحيوان والبخلاء والبيان والفلسفة. ويُعدُّ من أكثر الأدباء العرب خصوبة بالتأليف. ونشأ في فقر شديد وكان يبيع الخبز والسمك.. وحضر ذروة النهضة الثقافية العباسية وأبدع فيها بمؤلفات لا حصر لها.

كما كانت له صلات بالثقافات الفرسية اليونانية والهندية. وكان منذ صغره ميالاً للقراءة والمطالعة حتى أن أمه نفرت منه وقد ضُرِبَ به المثل في كثرة القراءة والبحث في الكتب. وكان يحفظ بعضها عن ظهر الغيب بموهبة عجيبة في مهارات القراءة والفهم والحفظ.

من المؤكد أن المقارنة بين الجاحظ والمعلم التونسي ليست عادلة لما بينهما من فوارق كثيرة ولكني شبهته به من ناحية **القناعة** التامة التي اتصف بها الاثنان وكذلك جحوظ العينين وروح الفكاهة.. فكان لا يمر لقاءٌ بيننا دون أن يقول: *تعرف يا سي سالم قداش عمري* ؟! فأسأله بنفس النغمة: هل العمر الميلادي أم الهجري؟ فكان يفهم قصدي *بالهجري*: أي هجرته من تونس إلى طرابلس.. فنضحك.

ما أعجبني فيه وشدني إليه تواضعُهُ وقناعتُهُ وبساطةُ عيشِهِ وروحُهُ المرحة وسخريتُه من هذه الدنيا ولم يكن شاعراً أو أديباً ولكنّ كلامه ومنطقه وتفكيره أعطتني الانطباع أنه ينتمي لفرعٍ من فروع الأدب !

وما أعجبني فيه أيضاً أنه ظلَّ وفياً لليبيا فلم يكن كالذين عاشوا على أرض ليبيا وخيراتها ووجدوا كلَّ ترحيبٍ من أهلها وبعد أن غادروها.. أداروا لها بظهورهم وأنكروا أو تجاهلوا فضلها عليهم. ولم أجد أكثر خيانةً وغدراً وميلاً للاستغلال وعدم الوفاء من: **الخنزير** و**القرد**..!

وبفعل تعاطفي مع المعلم التونسي وتقديري التلقائي لظروفه تنبّأتُ بأنه يفضّل البقاء في طرابلس على أنْ يعود إلى قريته بتونس .كدليل على أنه رجلٌ يؤمن بأن وطنه حيث يجد راحته .. فقد أتيحتْ له الفرصة كي يعيش في فرنسا لكنه لم يقتنع بها كوطن.. ثم كان له أن يعيش ويقيم في مدينة من المدن التونسية والتي هي من عدة نواحي أرقى تحضراً وأفضل له من قريتنا على ضواحي العاصمة طرابلس.

إذاً فهو يبحث عن منطقة يحس فيها بالأمن والأمان لا أن يرتزق منها ويأكل ويشرب فقط. وقد يقول قائل هنا.. هذا موقفُ المعلم التونسي من ليبيا.. ولكنْ ما هو موقف ليبيا منه؟ ماذا استفادت ليبيا منه كإنسان وكمعلم؟ هل استفادت منه فعلاً؟ وهل قدّمتْ له بمثل ما قدم هو لها من عمل؟ أليس ***لكل فعل رد فعل***؟

ذات مرة سألته: لماذا لا تعمل عملاً إضافياً غير مهمَّتِك في المعهد؟ ضحك ضحكة صارخة ثم قال: *ما لقيت عملْ وأنا بعيوني.. منلاقي شغل وأنا هكّا أعمى..! شنوا العمل اللي تقصدوا.. يا سي سالم*؟! قلت: عمل في مجال الموسيقى.. مجالك؟! ضحك وقال: *الموسيقى حرام في ليبيا*! قلت: في أماكن ليست حراماً. قال: *تحْب نخدم مع الزمزامات*؟! قلت: لا.. تخدم مع فرقة الإذاعة الموسيقية عازفاً على العود أو على الناي. أنا سمعتك تعزف عزفاً رائعاً على الناي أما على العود فلم أسمعك. لكنك قلت أنك معلّم على العود.

سمعته يعزف على الناي بطريقة مؤثرة للغاية..!

وسمعته عديد المرات يعزف على قصبته القصيرة التي أحضرها معه في حقيبته من تونس.. فكان عزفاً شجياً مؤثراً للغاية.. وشعرتُ كأنه يحاوره أو يشكو له أو يبكي معه.. ولكنه كان يتوقف عن العزف حين يشعر بأن أحداً قد اقترب منه.. فذكرني بالشخص الذي يدخّن أو يشرب الخمر ولكنه لا يريد أن يراه أحدٌ وهو يدخن أو يشرب..! واتفقنا على أن نذهب إلى الإذاعة معاً.. ليجرّبَ حظه معها..!

فذهبنا بالحافلة إلى ميدان الشهداء ومن هناك أخذنا أوتوبيساً آخراً على طول شارع الشط حتى وصلنا مبنى الإذاعة المعروف وطلبنا أنْ نقابل الفنان **محمد الدهماني** الملحن وقائد فرقة الإذاعة الموسيقية.. وكنتُ أعرفه مع فنانين آخرين فقابَلَنا مقابلةً لطيفة وتحقق للمعلم التونسي الوعد باجراء اختبار وبالفعل قُبل على أن يصبح عازفاً على الناي بعد أن سمع عزفه المؤثر الفريد من نوعه. ثم تعرّف على الفنان **حسن عربي** قائد فرقة الموشحات والمالوف في طرابلس.

وفي الطريق اقترحتُ عليه أن نزور **معهد جمال الدين الميلادي** في مقره بشارع الزاوية خلف المستشفى المركزي *السبيتار الكبير* حيث يمكنه تعليم الموسيقى في أكبر معهد لتعليم الموسيقى والغناء. وما هي إلا أيام معدودة حتى أصبح بالفعل معلماً في هذا المعهد.

وبينما كنا في طريق العودة إلى قريتنا قال المعلم التونسي: *سبحان الله آمنت بالله. ما كنت نصدّق نلقى كل هلمعاملة الطيبة ويقبلوني معلم موسيقى في اطرابلس.. بعدما برشة سنين راحت من عمري..!*
فقلت له: الجاي إن شاء الله أفضل.. كل شي مكتوب عند ربي خير.
فقال أنه عرف في الليبيين إيمانهم العميق بالغيب وبقناعتهم التامة بالمكتوب أكثر مما عند التوانسة المتأثرين بالغرب ياسر ياسر..!

وجبة السفنز الصباحية ثم وجبة البازين في الغذاء.

قال المعلم التونسي أما بالنسبة للأكلات التي عرفها وأثارت اهتمامه منذ البداية واعتاد عليها وأحبها فهي: السفنز والكسكسي والبازين..! بل وسماهم ***الثلاثي المقدس*** عند الليبيين. ورأى فيهم اختلافاً عما في تونس من حيث فنون التقديم والمكونات ثم النكهة المميزة.
وشبّهَ تلك الاختلافات باختلافات أصوات البشر.. فكلُّ مطربٍ.. بل كلُّ إنسان له رنة خاصة في صوته.. تميّزه عن غيره.. لاعتبارات كثيرة منها عمره وحالته الصحية ومدى لياقته وتأثره بالمحيط ومدى ما تعرّض له من أمراض ونكبات ومؤثرات بيئية واجتماعية.. فخلقتْ منه نسخة فريدة من الصوت بمكونات ونكهة خاصة. فعبد الحليم حافظ له صوتٌ وأداء مميزيْن بفعل نشأته وظروفه الصحية وكذلك ليلى مراد التي خلق الله لها ***آلة ناي*** في حنجرتها لا يملكها أي مطرب آخر.. وتختلف عن أم كلثوم بكل عبقريتها وأدائها المميز.

هكذا كان المعلم التونسي من عادته أن يسرح بتفكيره في بحر عميق متلاطم الأمواج أحياناً.. أو هادئاً كأنه طبقةٌ واحدة من الزيت.. وكان يحب فيمن يجالسه ويحاوره أنْ يسمعه ويستوعبه. فيجد في تبادل الآراء ما لا يجده غيره إلا في لعبة الورق أو الشطرنج أو كرة القدم..

ثم قلتُ: لو كان بغير تلك المواصفات "الغريبة".. لما بقيّتْ ذِكْراهُ محفورة في ذاكرتي بتلك الكيفية. فكم من معلم ومن إنسان كانت لي معه تجارب ورحلات ووقفات ثم أصبح بالنسبة لي في عالم النسيان وهكذا هي الحياة فقد تمر في مسارب دنياك ببشر تتشابك خيوطهم بأسلاكك فتتألف شبكةٌ فولاذية لا تنقطع بينكم. بينما تكتشف أنّ هناك من نسجْتَ معه شبكةً أهون من نسيج العنكبوت. سرعان ما تتمزق وتتلاشى مع أول ريح.. وما أكثر الرياح في حياة الإنسان.. أو هكذا كانت تجاربي مع الناس.. فمنهم من بقيّ ومنهم من نُسِيّ !!

ويبدو أن الشبكة التي تكونت بيني وبين المعلم التونسي من المتانة والقوة بحيث أنها استمرت لأكثر من 50 عاماً ولا زالت متماسكة لم تنقطع لدرجة أنني كتبت عنه نحو 200 صفحة مختصرة حتى الآن. وهذا يدلُّ على كونه شخصيةً غير تقليدية أو اعتيادية. بل مشحونة بكمٍ هائلٍ من العواطف والخصائص والمزايا التي لم أجدها.. إلا في قلة من الناس الذين قابلتهم بحياتي. والغريب والعجيب بالنسبة لي أنه كان دائماً يناديني: *يا سي سالم*.. ولا أعلم لماذا؟ في حين أني كنتُ أصغر منه بنحو 30 عاماً تقريباً. كان في منتصف الأربعين من العمر حينما قدم من تونس. بينما كنت في الثالثة أو الرابعة عشر فقط.

وكان يعزف على الناي بطريقة مؤثرة وحزينة للغاية لكن لا يحب أن يراه أحد وهو يعزف.. وبمجرد أن يشعر بأن أحداً ما كائناً من كان قد اقترب منه يتوقف فوراً عن حواره مع تلك القصبة الرفيعة العجيبة. وكان يقول في بعض الأحيان أن الناي يغنّي معه ويشاركه همومه: وحين سألته عن أجمل أغنية يحب سماعها فقال دونما تفكير: متى ستعرف؟ **نجاة الصغيرة** لنزار القباني وتلحين محمد عبد الوهاب:

متى ستعرف كم أهواك يا أملا.. أبيعُ من أجله الدنيا وما فيها
لو تطلب البحر في عينيك أسكُبه.. أو تطلب الشمس في كفيك أهديها
(أنا أحبك) فوق الغيم أكتبها.. وللعصافير والأشجار أحكيها
(أنا أحبك) فوق الماء أنقُشُها.. وللعقاقير والاقداح أسقيها

يا من يفكّر في صمتٍ ويتركني في البحر.. أرفع مرساتي وألقيها
كفاك تلعب دور العاشقين معي.. وتنتقي كلماتٍ لست تعنيها
كم اخترعتُ مكاتيب سترسلها.. وأسعدتني ورودٌ سوف تهديها
ارجع إليّ فإن الارض واقفةٌ.. كأنما الأرض فرّت من توانيها
ارجع إليّ فبَعْدك لا عِقْد أعلقه.. ولا لمِسْتُ عطوري في أوانيها
لمن صبايا لمن .. شال الحرير لمن
ضفائري منذ أعوام أربّيها.. ارجع كما أنت صحواً.. كنت أو مطراً
فما حياتي أنا إن لم تكن فيها

وحين أسمعهُ يردد لحن تلك الأغنية الرائعة الحالمة بآلة الناي.. فلا اقترب منه لأدعه حتى يُكمل العزف بانسجام تام لا يوصف من شدة تأثره به واتقانه له. فكان يختزل أداء المطربة ونغم الملحن وكلمات الشاعر بمقدرة فائقة وتعبيرٍ أخّاذ مُتقن. وكأنه يحكي قصته..!

وبالفعل.. علمتُ منه في أمسية لا أنساها أنّ تلك القصبة الخشبية العجيبة التي أحضرها معه في حقيبته من تونس.. ويعاملها بكلّ رفقٍ وحنان.. هي هدية من فتاةٍ أحبها في قريته واسمها **زينة** ووصفها لي فقال: من اسمها هي زينة وأجمل الزينات.. هي جمالٌ في جسد وروح وعقل وقلب ووطن.. هي أجمل هدية خصني بها الله تعالى.. ولكنها فجأةً فارقتني.. وابتعدت عني.. وتركتني وماتت..!

ولهذا عرفتُ لماذا قرر أن يغادر تونس ويبتعد. وفهمتُ لماذا يعزف على الناي عزفاً مؤثراً ولا يريد من يراه لكي لا يكتشف حزنه وبؤسه وضعفه. وعرفتُ لِمَ لا يفكر بالزواج ويختلق الأعذار لكي يبتعد عن التفكير مجرد التفكير في المرأة.. إذ كما قال: لا توجد امرأة بعد زينة.

في مناسبة أخرى قال أنه رأى زينة لأول مرة في مدرسة أطفال حيث كانت حديثة التخرج وكان هو يعلّم الأطفال مباديء الموسيقى منذ عديد السنوات. فالتفت لجمالها المميز ليس البدني فحسب وإنما جمال العقل والروح كذلك. وعاملها في البداية كأنها أخته الصغرى.

ورآها شعلةً من نشاط وحيوية ولديها رغبة في أن تتعلم وتطور من نفسها وكانت تعلم بأن ما عندها من معرفة وعلم لا تكفي. وكانت جدُّ محبوبة بين كافة الزملاء والأطفال وأولياء الأمور وتنتمي لأسرة فقيرة من أبٍ ميّتٍ وأمٍ تعمل خيّاطة.. وشقيقة أكبر منها متزوجة وتطمع في أرضٍ صغيرة تركها لهما أبوهما قبل أن يموت.

فكانت الأخت تترصد لتلك الأرض وتُلمّح لأمها بأن تأخذها لكي تبني عليها بيتاً لها لأن زوجها فقير وليس بإمكانه مادياً أن يبني بيتاً لهما.

وكانت الأم متحيزة لابنتها الكبرى ولم ترَ في ذلك مانعاً. بل رأتْ أنّ زينة لم تزل صغيرة وليست بحاجة لأرضٍ ولا لبناءِ بيتٍ.. فهي تقيم معها وعندما تكبر سوف يهبُها اللهُ ما تستحق. فرضيْت زينة بتلك القِسْمة مضطرة ولم تقل شيئاً.. لكي لا تُحدث نزاعاً بينها وبين أمِّها وأختها ولم تكن بداخلها راضية تمام الرضا ولم تقتنع بما يحدث.
واستولت الأخت بالفعل على تلك الأرض وشيّد عليها زوجُها البيت كما شاء وسجله باسمه. أمّا زينة فكانت لا تبحث إلا عن إرضاء أمها وحرصت على طاعتها طاعة تامة وخِدْمتِها كما ترضى. خاصةً حينما بدأتْ تشكو من آلام المفاصل ولم تعد قادرة على السير والحركة إلا بصعوبةٍ وتخشى أن توقف نشاط الخياطة التي ترتزق منه وابنتها.
ولذلك قررت زينة أن تغيّر من مسارها التعليمي. فبدلاً من أن تدخل مجال الطب الطويل الذي ترغبه وتتمناه.. دخلتْ معهد الموسيقى لكي تُسرع التخرج وتساعد أمها بتوفير لقمة العيش.. ومن هنا التقتْ بالمعلم التونسي وحدثتْ بينهما شرارةُ الحب رغم فارق السن.
ولم يكن المعلم التونسي مكتفياً بعمله في تلك المدرسة الابتدائية بل بحث عن فرصة عمل لدى عائلات فرنسية مستوطنة في بلاده. لعل فيهم من يرغب بتلقّي دروس خصوصية لأطفالهم. فوجد ذات يوم إعلاناً في الصحف عن أسرة فرنسية تبحث عن مربيٍّ.. وحينما اتصل هاتفياً قيل له أن "الوظيفة" لا زالت شاغرة وبإمكانه أن يأتي لإجراء مقابلة شخصية.. ففرح وبلّغ حبيبته زينة بذلك فشجعته.

وذهب في الموعد فوافقتْ عليه سيدةُ البيت مبدئياً.. كونه دارساً لفنِّ الموسيقى.. وهذا في صالحه مقابل المتقدمين الآخرين..!

ففرح وطلب أن يرى الطفل أو الطفلة ليتحدث معها.. فاستغربتْ المرأة وقالت: ما دخل الطفلة بالموضوع؟ بل هي تقصد "الكلبة".. فقال هل تريدين مربياً "موسيقياً" لكلبتك؟ قالت: إكساكتيمو.. هذا ما قصدته بالفعل.. C'est ce que je voulais vraiment dire.

فضحك المعلم التونسي واضطر للجلوس ووضع يديْه على رأسه ثم قال: لكن يا سيدتي كلبتكِ بحاجة لدروس خاصة في الموسيقى..!

فقالت: إكساكتيمو. هذا هو المطلوب.. ونادتْ على الكلبة: تعالي يا ليسي تعالي لتتعرّفي على أستاذك.. هيا إنه يريد أن يراكِ. تعالي!!

الكلبة ليسي

وجاءت كلبةٌ تزحف شعرها ناصع كالثلج نوع Lap-dog صغيرة الحجم ثم بدأتْ تلحس قدم سيدتها ثم الرَّجُلَ الضيف. ونبَحَتْ لتعلن أنها لا تعرفه.. ربما !!

فربَتَ على ظهرها فلحستْه ثم نفّضتْ رأسها واهتزتْ وابتعدتْ. فظنّ المعلم التونسي لعلها تفكّر بداخلها وتقول: "*ما هذه الرائحة الغريبة ؟ من أين أتى هذا المخلوق؟ هاو.. هاو*".

وشرع يدربها السلم الموسيقي: دو - ري - مي - فا - صول - لا – سي وهي تنبح هاو. هاو. فيردد: *دو- ري- مي.. هيا قولي يا بنت لحلال.* ولكن "بنت الحلال" استمرت تنبح وتنبح وتهزل ذيلها.. !!

وأما زينة فمرضتْ وأصيبت بالهزال الشديد وفقدتْ شهيّتَها للأكل وامتنعت عن العمل ولم يعد المعلم التونسي يراها. ويوم قرر زيارتها لم يصدق عينيه حين رآها مسجاةً على سريرها بلحافٍ أبيض وكأنها جثمانٌ. فاقترب منها فابتسمت له كما يبتسم الميت.. وعرف أن بها مرضاً خبيثاً افترس بدنها خلال أسابيع قليلة حتى صارت كالهيكل.

إنقاذ الشرف

قوللي.. اصحيح اللي سمِعتُو؟! سألتْ السيدة شادية عدنان.. عمّا قرأتْهُ بينما وضعتْ إحدى الصحف اليومية بين يديها وكانت جالسة في الكرسي المتحرك ولا تريد أن تصدّق. وهزّتْ رأسها بأسف شديد. لم تكن قد مضت إلا أيامٌ قليلة على خروجه من الحجز الطويل وإذا به يتعرّض مرة أخرى للاختطاف. مسكين **معتز** من أزمة لأزمة..!

يُقال أنه اُختطف هذه المرة من داخل قسم الشرطة وكذلك أبوه ثم جده هربا من الحجز أو تمّ بالأحرى تهريبُهُما.. نعم لم يعد هناك أمان حتى في مراكز الشرطة.. أصبح الفساد يشمل كل مكان بالدولة. فلم يبقيا على ذمة التحقيق سوى أسبوع أو اثنين وإذا بهما يختفيان رغم الحراسة.. لكن هل هناك حراسة أمام جبروت المال..؟!
سوف تتناقل الصحف قريباً الأحداث بالتفصيل كالعادة.. وسنعرف من قام بخطف الطفل ومن نفّذ تهريب أبيه وجدِّه وإلى أين وكيف ولماذا؟ من المؤكد من أجل المال وهل هناك سبب غير المال..؟!

قيل أن معتز كان قد اُختطف في المرة الأولى وحُجز في المزرعة لعدة سنوات بتخطيطٍ وترتيبٍ من جدِّهِ سي لحبيب وفي انتظار تسفيره.. إلى فرنسا ليقيم هناك. لماذا؟ لأن سي لحبيب لم يُنْجِبْ من الذكور إلا ابنه الوحيد مهدي وله بنات أما من الأحفاد والأسباط فله فقط معتز والباقي كلهن إناث. وهو يخطط منذ سنوات لبيع أملاكه في تونس وينوي بعد ذلك السفر إلى فرنسا حيث أمه مقيمة هناك.

وما دام **مهدي** الغبيُّ قد أخطأ فعليه أن يتحمل نتيجة خطأه وإن لم يستقر في فرنسا أو أنه اشتاق لحياة الشرق.. فله أن يرحل إلى أرض الميعاد الغالي **يروشاليم**.. حيث مقر ومهد أجداده الأوائل..!

لكن عليه أولاً.. أنْ يبقى مع ابنه في المزرعة ويحرسه جيداً ويستعد للهروب به في أيّ لحظة إلى الخارج.. حينما تصبح الخطة جاهزة للتنفيذ.. لينقذ شرف العائلة مما يتعرض له من تأميمات متتالية..!

لكنه كعادته ها قد فشل في المهمة. واستطاع طفلٌ لم يصلْ الثامنة من عمره أن يخدعه ويهرب. فهو لا ينفع في شيء سوى في التسكع ومضيعة الوقت بالملاهي. ولذا آن الأوان أن نضع حداً لكل هذه المهازل وليبدأ حياةً جديدة هناك في الخارج حيث لن يفيده أحد إلا بعرق جبينه.. وإن لم يجد هناك من يربّيه فليذهب إلى الجحيم.

أحسَّ عدنان بسعادة غامرة وهو يسكن بالغرفة تحت السلم بعد أن غادرتها مدام شادية وعُليّة إذ تفضّل عليهما سي لحبيب بشقة من غرفتين وبإيجار معقول لا مثيل له في العمارة. ولم يكن عدنان يحلم بأن يتحصل على سكنه هذا.. لولا اخلاصه وولاءه للسي لحبيب.

فقد كان يقيم مع ثلاثة من العمال في تلك الدكانة الحقيرة.. وكم من مرةٍ تعرّض للسرقة وهو متأكد أنهم هم من سرقوه لكنه لم يستطع أن يتهمهم جهراً وإلا لكانوا قد فرموه. لكنه ها هو الآن مستقل في غرفة خاصة به.. حتى وإن كانت رطبة وباردة ولكنها مستقلة..!

صار لعدنان عالمه الخاص.. ينام كيفما يشاء من دون أي قيود ولا خوف من أحد.. أن يسرق دراهمه ودنانيره التي شقيّ وتعذب طوال النهار من أجل الحصول عليها. وبات له الوقت الكافي ليفكر بحرية تامة في مستقبله وفي المحيطين به. فأما عُليّة فليس له حظ في أن يفوز بها. وهو يتوق إلى ذلك اليوم الذي تتحسن فيه ظروفه كما أنها تحسنتْ لدى عُلية ومدام شادية فها هما في وضع أفضل.. حتى وإن بدتْ عُليّة مهمومة وحزينة على ابنها الذي اُختطف.. المسكينة.

في الآونة الأخيرة شهد الحي حركة إيجار وبيع للشقق التي يمتلكها سي لحبيب وكأنه يريد أن يحطم السوق بعروضه المخفضة الفريدة من نوعها في مجال العقارات السكنية بكامل المدينة. حتى أن سعاد قالت لعُليّة ذات مرة: *أنا معرفتش شنوا اللي جرالو. يبيع بالخسارة*! وحينما أعادت نفس الانطباع لزوجها قال لها المحامي الخبير: ليس هناك لهذا التصرف إلا تفسيرٌ واحد. *الراجل يحب يبيع أملاكو لكل ويهرب.. وآهو.. توا مسيرنا نعرفو.. استني شهر برك..*!

أحسّتْ عُليّة أن سي لحبيب كان يحاول أن يقرّبها منه.. خطوة بعد خطوة.. لأنه كان يعلم أن ابنها هو في الحقيقة حفيده.. واليهود لا يفرطون في أبنائهم وأحفادهم.. ولو اضطروا أن يراقبوهم عن بُعد. وكان سي لحبيب يعلم بأنه لن يجد امرأة أحنّ على حفيده من أمه.. ولذا راقبهما عن بُعد: الطفل وأمه. وفي اللحظة التي شعر فيها بأنها ستتعلق به أكثر وسوف تضمن له الإقامة معها في بيتها.. اختطفه !

وهي مُوقِنة أيضاً بأن سي لحبيب لديه اليد الطولى وليس بإمكانها أن تتحداه أو تواجهه.. لأنه في النهاية.. سوف يفوز.. فمن باب أولى أن ترضخ لمشيئته وما دام ما سيقوم به في صالح حفيده ومستقبله.

قال المنجي لزوجته سعاد: *سي لحبيب.. رجلٌ فريدٌ من نوعه بكل المقاييس*.. - وكان قد حضر التحقيقات التي أُجريتْ معه- إذ اتهمه المحقق واتهم ابنه مهدي بقسوة القلب وسوء المعاملة.. فكيف سمح لنفسه ولابنه أن يحبسا طفلاً صغيراً في زنزانة تحت الأرض.

فتبسّم سي لحبيب وردّ بكل هدوء: *هالمعامله اللي وصفتها سيادتك بالقسوة هيا في الواقع أحسن تربيه. أنا اخطأت لما ربّيت ابنى مهدي عالدلال والميوعه.. وكانت النتيجة شاب فاشل.. وهكا قررت يكون ليا حساب آخر مع حفيدي.. حبيت باش نصنع.. مِنّو راجل..!*

وأثناء حواره مع المحقق شبّهَ سي لحبيب ما أمر بفعله مع حفيده بالتذنيب العسكري والرياضي.. والذي له نتائج إيجابية بالرغم من أنه يبدو بنظر أغلب الناس معاملة قاسية وخالية من الرحمة. وقال أن أجداده اليهود اعتادوا على هذا الأسلوب مع الطفل المُرفّهِ لكي لا يظن بأن الحياة كلها من أولها إلى آخرها نعيم وراحة وسعادة. وقال أن الطفل حين يجرب الحرمان المؤقت تكون مناعته أقوى ضد ما سيراه من تجارب ومآسي في مستقبل حياته .. وهو الدرب الذي سار عليه الأنبياء وفي مقدمتهم **النبي موسى** وما لاقاه من ظلم وقسوة.

وبالنسبة لمعتز فهو سينتقل للحياة في باريس بما فيها من مباهج قد تجعله ينحرف ويضيع إذا لم يكن قد جرّبَ القسوة والشدة قبلها. وبدا كأن الضابط المحقق قد اقتنع برأي سي لحبيب.. إذ هزّ رأسه وابتسم وأشعل سيجارة وسكت ثم أوقف التحقيق فتدخّل المحامي المنجي وقال بدوره: ولكن هذا طفل صغير وليس جندياً في معركة. فقال سي لحبيب بنفس هدوئه المعهود: *الطفل هو جندي في حياةٌ كلها صراع وسلب ونهب وضرب. يلزمو يتدرب قبل ما يفوت الآوان.*

ثم قال أيضاً: وها قد مرت السنوات على معتز.. وهو سجين غرفة ضيقة لم يُحرم فيها من نوم وغسل وأكل ولعب ولكن كلٌّ شيء فيها بمقدار. وبعد أن انتهت المدة ومرت السنين.. استطاع أن يهرب.. أتظن أنه هرب ببراعته وفطنته وذكائه؟ نحن من يسّرنا له السبيل لكي يهرب.. نحن من جعلنا أباه يفك عنه القيود وهو يكنس السيارة ونحن من افتعلنا فكرة السيارة عند مدخل المزرعة وكيف تركه أبوه من دون مراقبة ليقفز السور ويلجأ للجيران الذين لهم علم بنا.
أرأيت كيف أننا خططنا لكل شيء ولم نترك الأمور هكذا بلا رقيب..!
هذه هي خطتنا ونهجنا في حياتنا.. لا نتقدّم خطوة إلا وقد درسناها.

وقال السي لحبيب أيضاً أنه لم يولد غنياً ولم يجد أمامه إلا ما يسدُّ رمَقَهُ. وحينما فتح عينيه.. وجد الحرب العالمية الثانية قد قامت في فرنسا ووجد أماً فقيرة وشقيقاً ضعيف البنية مريضاً بالسل.. يسعل ويسعل طول الوقت وكانوا يعيشون في مدينة **مارساي** (مارسيليا).. يصطادون السمك ويبيعونه وينامون في مبنى قديم متهالك. فكتب لهم الرب أن يهربوا – هو وأمه وأخوه الأكبر- على متن قارب صيد قديم ومتجهٍ إلى الشاطيء الشمالي لأفريقيا -كما قيل لهم آنذاك. فقذفتهم الأمواج على شاطيء جربة.. حيث تربّى في **حومة السوق** يشحت ويسرق ويعيش على فضلات الطعام من أكداس القمامة.. وينافس عليها الكلاب والقطط والجرذان الجائعة بلا رحمة.. وكانت أمه تنظّف بيوت الفرنسيين في جربة وأخوه يصطاد السمك ويبيعه. هذا إن لم يكن في تلك الأثناء مريضاً غير قادرٍ على الخروج للعمل.

كانوا هم الثلاثة يقيمون في كوخٍ من الصفيح والخشب قرب الميناء. وبعد فترة وجيزة من وصولهم إلى هناك مات شقيقه بسبب إصابته بالحمى الصفراء - كما أخبرته أمه لاحقاً. فكان عليهما أن يغادرا جربة فاتجها إلى **مدنين** ليعملا هو وأمه- في حقول الزيتون ورعي الماشية. وفي صناعة الخزف.. بأجورٍ زهيدة كانت بالكاد تكفي للمعيشة. ولم يطُل بقاؤهما بمدنين بل رجعا إلى جربة حومة السكان نظراً لتجمع الجالية اليهودية فيها بصورة خاصة. وكان الحبيب وهو طفل يسمع من أمه أن الألمان يحرقون اليهود وهم أحياء فدبَّ الخوف إليه من أن يكون مصيره ومصير أمه بالمثل غير أن الجالية كُتب لها النجاة.

ثم أخذا ينتقلان كغيرهما كثيرين إلى مدن الشمال أكثر.. ليصلا إلى **حلق الوادي** ليعملا بمجال السياحة والفنادق كما نُصحا من قبل. فكانت تلك.. هي ضربة الحظ بالنسبة للحبيب منذ صغره..!

وعمل الصبي لحبيب في بداية وصوله كعاملِ تنظيف بأحد الفنادق السياحية الراقية في حلق الوادي. ويحكي عن تلك التجربة وعن تلك الفترة المهمة من حياته أنه عمل بكل إخلاصٍ ومثابرة وكان فقط في الرابعة عشر من عمره لكنه بمظهره يبدو أكبر. وكان مُكلّف بتجميع القمامة بالفناء الخلفي للفندق وبتنظيف الحديقة حتى لا يراه الزوّار خشية أن يحتك بهم أو بالمسؤولين لأنه لم يكن يملك أوراق ثبوتية ونظراً لصغر سنه. وعمل بجد ونشاط وهو على علم بصعوبة إيجاد عمل من ذلك النوع. وكانت أمه تعمل في نفس الفندق وكانا يتكلمان الفرنسية بطلاقة فأمُّهُ يهودية فرنسية الأصل. وتمكّنا من الإقامة في غرفة تخزين لمواد التنظيف بالطابق السفلي من الفندق.. ويتقاضيا أجراً زهيداً.. لكنها كانا سعيديْن بذلك لأن العمل أفضل من غيره..!
وأعجب به المسؤولون عن الفندق والزوار كذلك. إلا زميلٌ واحدٌ له كان مثله عاملَ نظافة وأكبر منه سناً وأقدم. فتسلطَ عليه وتجبّر بلا سبب إلا لكونه يهودياً حتى راودته نفسه السيئة في يوم من الأيام.

فدبّر له **مكيدة**. إذ دسّ في حقيبته القديمة كيساً به مخدرات وأخبر شرطي الأمن في الفندق عنه وحينما فتّشهُ وجد عنده الممنوعات.. فنقل الخبر إلى إدارة الفندق وألقتْ الشرطة عليه القبض ثم تبيّن أن العملية كانت مدبرة عند الرجوع إلى كاميرا المراقبة السرية.. فأعيد له اعتباره وطُرد العامل الآخر وشيئاً فشيئاً انتقل لحبيب للعمل موظفاً متدرباً في قسم الاستعلامات بالفندق.. واستمر بمثابرته والتزامه في العمل في ساعات إضافية لعديد السنوات وتلقى دورات تدريبية ثم منحهُ المدير علاوات إضافية وساعده باستخراج مستندات ثبوتية له ولأمه وتحسنت ظروفهما المالية وكانا مثال الإخلاص في العمل.

واستطاع أن يشتري أقساطاً بملكية فندق صغير حتى امتلكه كلياً.

وهكذا ارتقى لحبيب سلم الغنى درجة درجة من أسفل عتبة فيه إلى أن امتلك عمارة سكنية كاملة في أطراف حلق الوادي.. وكان يعمل أغلب النهار والليل ولا ينام إلا قليلاً ولم يفكر في الزواج بل كان -كما كان يردد- متزوجاً بعمله ومنشغلاً به ومخلصاً كل الإخلاص له.

إلى أن استيقظ ذات صباح فوجد أنه في منتصف الأربعين وليس له ولد ولا زوجة ولا أصدقاء وإنما فقط معارف ومساعدون.. ويعيش من أجل أن يربح ويكسب ويستثمر ويدّخر ويوفّر بلا أي غاية..!!
ثم جلس على رمل الشاطيء في المصْيّف وقال له خاطره: *أنت كمن يحرث في الماء أو كهؤلاء الأطفال يبذلون جهداً كبيراً في بناء وتشييد قصورٍ وعماراتٍ وتماثيلَ جميلةٍ من الرمل فتأتي الموجة فجأة لكي تجرفها في خلال ثواني قليلة فتصبح في خبر كان.. ويتلاشى كل شيء.*
فانتبه لذلك الموقف وانتفض من مكانه وكأن عقرباً قد لسعه.. وقام على الفور وأخذ يبحث عن امرأة تليق به وتناسبه ليبْني معها أسرة.. وأنجب بنتين ورُزق أخيراً بابنه **مهدي**. وفرح به لكنه أخطأ في تربيته - كما اعترف لاحقاً بأن أفرط في تدليله وتدليعه حتى بات كأنه فتاةٌ رقيقةٌ وحسّاسةٌ وهشّةٌ لا تقاوم.. وليس كما كان هو..!

فاعترف أنه فَلَتَ منه كما تفْلتُ حفنةُ الماء من بين الأصابع وصار يقضي وقته في لهو ولعب وسهر وخمر وقمار وعلاقات نسائية.. ولم يتحصل على أيِّ شهادة ولم يعمل أيَّ عملٍ له قيمة أو منه أيَّ جدوى. بل ظل يمد يده لأمه وأبيه كالمُتسوِّل.. حتى أنّ أباه كرهه فقرر أن يُرسله إلى فرنسا ليدرس ويعتمد على نفسه ولكنه لم يفلح هناك أيضاً.. بل عاد خائباً فاشلاً خالي الوفاض غارقاً في الدين.
وهكذا شعر لحبيب بخيبةِ أمل وبهزيمةٍ في نفسه. لأنه ناجحٌ في كل مشاريعه إلا في مشروع تربية ابنه الوحيد وهو الأهم والأخطر..!!

واستمرتْ التحقيقاتُ ثمانية أيام.. سي لحبيب أولاً ثم ابنه مهدي.. وفيها كان الوالد هادئاً واثقاً من نفسه يتحدث بجملٍ مسترسلة وغير متقطعة أما مهدى فكان مقتضب الكلام بالكاد يجيب على السؤال ولا يوضّح ما يرمي إليه.. بل يتكلم وكأنه يخشى أن يقول كلمةً تُفهم ضده. وأخذ يلتفت يمنة ويسرة كأنه يبحث عمن يسنده في الموقف الذي وجد نفسه فيه. وظل يبحث عن أبيه.. فهو الذي اعتاد أن يلقّنه ويقول له ماذا عليه أن يقول أو ماذا يفعل وكيف يتصرف.

أما الحفيد **معتز** فبلغ حينها عامه الثامن إلا بضعة أسابيع.. حسب ما أفادت به مديرة دار اليتيم مدام فريال.. والتي لاحظت عليه - في تلك الأثناء أنه على غير عادته متوترٌ كأنه صار لا يحتمل ضجيج الناس وحركتهم من حوله. كما لاحظتْ عليه أنه في أحيانٍ أخرى.. يبدو سارحاً مع خياله ومستغرقاً في ذاته.. وحين رأى أمه لأول مرة بعد أن غاب عنها ما يقرب من 4 سنين وهو سجين قال على الفور: *ماما أزيزا*. وسقطتْ دمعةٌ على خدِّهِ وسكتَ ولم يعدْ ينطق بشيء. وكأنّ الكلماتِ وقفتْ في حلقه. ثم أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة ومتقطعة.. لكنها لم تتوقف.. بل تخرج ببطء من بين شفتيْه..!

وكانت عُليّة تظن بأنها ستعود بابنها أخيراً إلى بيتها ليعيش معها ومع أمها بعد أن فارقها طوال تلك المدة من الدهر.. لكن الشرطة منعته من ذلك فوُضع في حبس الأحداث ريثما يخرج حكمٌ قضائي بمصيره وحُدِدَ لسي لحبيب وابنه مهدي موعدٌ بالمثول أمام المحكمة بعد شهر من تاريخ القبض عليهما بتهمة اختطاف طفل صغير وحبسه ومعاملته بقسوة وبتضليل الرأي العام والعدالة والسكوت عنه.
وتسارع محاميان كبيران في الدفاع عنهما.. ولقي المتهمان معاملة خاصة - في الحجز- نظير ما دفعه سي لحبيب من مال بالخفاء.

لم يكن سي لحبيب ولا ابنه يأكلان مما يأكل بقية الموقوفين بغرف التوقيف من طعام الشرطة. وإنما كانت تأتيهم وجباتٌ خاصة من خارج قسم الشرطة أي من مطاعم راقية في المدينة.. وكان الحرّاس يعاملونهما معاملة خاصة تختلف عن بقية الموقوفين.. ولهم أسِرّةٌ خاصة مفروشة بمفارش خاصة أيضاً. وكأنهما في فندق سياحي.

وحرص أحد الحراس بالذات على أن يُحضر إليهما نسخةً من كلِّ الصحف التي تصل إلى المدينة كل يوم.. وما يحتاجانه من سجاير ومكسرات ومناديل وعطور وأدوات حلاقة فالإقامة قد تطول..!

ولم يجد سي لحبيب أيَّ حرج ولا إهانة أو ضيق مما ظل يفعل أمام الآخرين جهاراً نهاراً. فتلك هي عادته والناس بالنسبة إليه بحكم الأعوان والمساعدين المسخّرين لخدمته ما دام هو يستطيع شراءهم بماله ووعوده ومكانته. وحرص على أن تكون له ذيول تصل إلى كل مكان.

وكان يرى أنه بالمال يستطيع أن يحقق كافة أمانيه إلا أمنية واحدة لا يمكنها أن تتحقق بأغلى ثروة وهي: *انجاب البنين*.. فظل هذا حلمٌ يراوده في كل وقت وحين ويخطط له ويفشل. إلى أن سمع ذات يوم أن هناك فتاةً حلوة كالماء الزلال ومنعشة كنسمة الخريف ومزهرة كالورد في الربيع اسمها: عُ لَ يّ ة .. قد حملتْ من ابنه الوحيد..!

فأخذ يتتبع خطاها ويترصد لها يوماً عن يوم وشهراً عن شهر لا يملُّ التتبع ولا الانتظار ما دام هناك هدف وغاية.. ومن العسير الوصول إليهما فعليه أن يصل إلى الهدف ويحافظ عليه ويحميه من أي ضرر قد يلحق به في سبيل أن يمضي به إلى الغاية: **الوريث الذكر**..!

أما مسألة - إنْ كان الطفل شرعياً أو غير شرعيٍّ وقانونياً أو غير قانونيٍّ فهذا لا يعني شيءٌ بالنسبة لنا. بل هو تقييم متخلف وقديم لا فائدة منه. فالظروف الاقتصادية الحالية تتطلب نظرةً متحررة من كافة القيود الدينية والتقاليد القديمة البالية. فأنا بحاجةٍ لوريثٍ يأتي من صُلبي أو من صُلب ابني وكفى.. أما كيف يأتي هذا **الوريث**؟ فذلك أمرٌ لا يهم. المهم أن دمه من دمنا وجيناته من جيناتنا ومن صُلبنا.

كل شيء في هذه الدنيا يُباع ويُشترى بالمال. وحتى الممرضة **هدى** قامت بدورها من أجل المال. فهي التي سهّلتْ لأم حفيدي بأن تلد في المستشفى وهي التي مهّدتْ لها الطريق لكي تهرب به ليلاً وتضعه أمام دار اليتيم. وهي التي اعتنتْ به خصيصاً وهو في دار اليتيم. بعد أن مكّناها من العمل كممرضة هناك.. وكل ذلك من أجل المال.. ثم أننا لكي نتأكد من أن الطفل ينتمي إلينا وإلى دَمِنا.. أمَرْنا هدى أيضاً بأن تأخذ من دمِهِ عينةً.. فأرسلناها إلى باريس.. لإجراء تحليل دقيق يثبتُ بالفعل أن الطفل ابننا. وكل ذلك ما كان ليتمَّ.. إلا بالمال.

وحين أخبرتْه "العيون" الراصدة لتحركات ابنه مهدي وتسكعاته.. بأن له علاقة حميمة بفتاة جميلة اسمها **عُليّة**.. وتعمل نادلة بأحد الملاهي وتطمح إلى الزواج منه. وسمع بأنها حملتْ منه.. قرّرَ سي لحبيب أن يتعرف عليها فقابلها وأغراها بمبلغ من المال.. لكي تترك ابنه ولا تطمع فيه. فتركته بالفعل. ولكنه بعد أن وضعتْ مولودها.. عاد وفكّر في أن يتتبع خطاها ليحتفظ به دون أن يحرمها منه. بل رأى أن بقاءها معه سيكون في صالحه وأتمّ الخطة كما يحب ويرضى وفرض على ابنه أن ينفدها خطوة بخطوة حتى تمكن من ذلك فعلياً وهرب هو وابنه من داخل الحبس لدى الشرطة وقبل أن يتم الحكم عليهما.. وذلك بما توفّر لسي لحبيب من مال وعلاقات..!

عودة الغائب

رفضتْ عُليّة الصبي كل الرفض وقالت لا يمكن أن يكون ابنها معتز. وأصرّت على موقفها كل الاصرار واعتبرتْ المسألة مزورة ورفعت إصبع الاتهام تجاه الشرطة التي لجأتْ - حسب رأي عُليّة- إلى تلك الخدعة لكي تداري فشلها في البحث عن الطفل معتز واستبدلته لذا بطفل بديل. وبفضل جهود المحامي المنجي أمكن تعرية الفضيحة وترتب عن ذلك تقديم العديد من الأطراف للمحاكمة وفي مقدمتها: رئيس قسم الشرطة وأعوانه والطبيب المسؤول عن المصحة العقلية ووالد الطفل البديل الذي تقاضى من الشرطة رشوة مالية.

في حين كانت الشرطة منشغلة بقضيتها وفضيحتها كان الطفل معتز قد خرج من سجن أبيه وجده في قبو المزرعة وتم تهريبه وخطفه.. للمرة الثانية وأمكن تسفيره بالفعل إلى **فرنسا** ثم لحق به أبوه وجده خلال أسابيع قليلة من إلقاء القبض عليهما طبعاً بمقابل مالي..!

وفقدت عُلّية الأمل كلياً في أن تجد ابنها من جديد.. باعتبارها في نظر سي لحبيب مجرد "وسيلة مؤقتة" للمحافظة على حفيده ولم يعد لها دورٌ فيما يأتي من مستقبل ومن مشاريع مستقبلية لمعتز. فهناك في **باريس** وفي **أورشاليم** حياةٌ جديدة تنتظره وفصولٌ مغايرة تماماً لما سبق له وأن عاشه في تونس.. فكلُّ شيءٍ يسير هناك في أوروبا وإسرائيل بتخطيط وترتيب وتنظيم من جده المحنك.

واتجهت عُليّة أو بقايا عُليّة إلى مهنة التمريض لعل اللهَ يغفر لها كل ما اقترفت من ذنوب ومعاصي.. ويخفف عنها العقاب والعذاب في ماضي وحاضر الأيام. اتجهت إلى تمريض المصابين في الحوادث. ثم بحثت بعد أن اكتسبت خبرةً فوجدتْ فرصةً للعمل في ليبيا.

في **السبيتار الكبير** -كما يسمّونه في طرابلس- وجدتْ عُليّة الطريق أمامها ممهداً لكي تزداد علماً وخبرة واستقراراً بمرتب محترم وموقعٍ يمنحها الشعور بقيمتها الفعلية واطمأنت للناس الذين احتكتْ بهم وتعرّفتْ عليهم هنا. وأصبحت سيدة مسلمة تؤدي الصلاة والزكاة والدعاء وتطيل الركوع والسجود وتصوم الاثنين والخميس.. !

وحدث ذات يوم وأن كُلِّفتْ برعايةِ نزيلٍ مصابٍ بإصابات بليغة خطيرة في رأسه وفي بطنه وفي العمود الفقري وبأطرافه وظل يعاني من تبعاتها.. لأكثر من ثلاثة أشهر متتالية كانت **سستر عُليّة** هي من تتابع حالته بل وتأتي أحياناً خصيصاً لكي تطمئن عنه في الليل خارج أوقات مناوبتها. وكانت تقيم في مسكن الممرضات القريب من قسم الحوادث.. ووجدت نفسها مسؤولة عن ذلك الشرطي الذي ضحّى بحياته في سبيل التصدي للمجرمين فدفع الثمن غالياً.

ولكنْ.. ها هو الآن أخيراً بدأ يتحسّن ويتجاوب ويفيق من غيبوبته العميقة وكانت هي – عُليّة- أول من رأى في حياته الجديدة وكان أول ما فعله أن لامس يدها بيده وقال لها بصوتٍ خافتٍ فيه حشرجة: *ما تخلّينيش.. أرجوك يا سستر ما تخلينيش*. ثم ذهب من جديد في غيبوبة أخرى امتدت لأيام.. وقالت له في سرها: *ما نخليكش.. اطمّن يا بهلول أنا لا يمكن نخليك.. إنتي أمانة في رقبتي. ربنا يشفيك*..!

وحينما أفاق من جديد وجدها بجانبه بنفس تلك الابتسامة العزيزة الحزينة التي عُرفت بها فسألها: *أنا وين*؟ فقالت: *إنتي معاي في قلبي*.

ومع مرور الأسابيع والأشهر تحسن **بهلول** وعرفت عُليّة أنه شرطيٌّ شجاع نال العديد من الأوسمة على شجاعته وبطولاته.

وخرج **بهلول** من مستشفى الحوادث بشارع الزاوية وأصبحتْ عُليّة زوجته فسكنا في الحي الذي نقيم فيه نحن.. وحيث يقيم بهلول مع أمه التي توُفيتْ أثناء إصابته في حادث وهو يلاحق عصابة خطيرة. وتركتْ أم بهلول له البيت الذي عاشا فيه.. فتزوج عُليّة فأرسلت إلى أمها في تونس أن تأتي لتقيم معها.. بعد أن تركتها في كنف أخيها مراد الذي عاد من فرنسا. لكنّ السيدة شادية حنّتْ إلى ابنتها وفضّلتْ أن تقيم معها. فرحّب بهلول بذلك. واستقبلها وضمّها إليه كبديلٍ لأمه التي افتقدها كثيراً بعد أن علم بموتها أثناء تواجده في المستشفى في غيبوبة عميقة.. وبكى عليها بحرقة بعد أن استعاد عافيته. وبقدوم عُليّة وانضمام نسيبته السيدة شادية شعر بمعنوية أفضل وأصبح يتكيّف مع حياته الجديدة.. ورأى شمس الأمل مشرقة تسطع من جديد في سماء حياته. وشعرت عُليّة بأن القدر عوضها عن عذابها السابق وأحسّتْ بأن حياتها أخذت تسير بأمن وأمان واطمئنان.

وانتقل مراد –شقيق عُليّة- إلى طرابلس بعد أن خاض عدة تجارب عنيدة فاشلة في أوربا وفي تونس. وقرر أن يستقر في طرابلس ويفتح متجراً وتزوّج بامرأة تونسية وقطع صِلاته بالماضي المشبوه التعيس وتاب إلى ربه وأدّى فريضة الحج بَرّاً بدلاً من البحر والطيران لينال كما قيل له تواباً أفضل لما في رحلة البر من تعب ومشقة وابتلاء. ثم عُرف باسمه الجديد: **الحاج علي الجبالي**. بدلاً من ***سي مراد***.

وسكن بالقرب من صديقه الشيخ ميلود ناظر معهد الشروق وشيخ المحلة المرموق الذي ربطته به صلةُ صداقةٍ من قبل.. ووجد محلاً قريباً من المعهد ففتح فيه متجراً للمواد الغذائية بكافة أنواعها. ولم تمضِ فترة قصيرة من الوقت حتى أصيبتْ السيدة عُليّة بجلطة في الدماغ فقدتْ على إثرها النطق والسمع بينما تحسّنتْ أطرافها.

من جديد استجمعتْ عُليّة قواها وتبسّمتْ.. وعقدت العزم على أن تتغلب على مرضها وتتكيف مع ما تبقى لديها من حواس.. فماذا يعني أنها لا تسمع ولا تنطق؟ فها هي لم تزل تُبْصِر وتتحس بيديها ولم تزل تشم وتتذوق.. فهذه نعم عظيمة من عند الخالق عز وجل يجب ألاّ تنساها وتغفل عنها فغيرها لا يملكها. وها هي قد بدأتْ تتحرك بل وتعتمد على نفسها في حركتها اليومية.. وتقوم بنشاطاتها المعتادة في بيتها. صحيحٌ أنها لم تعد قادرة على أن تستمر في العمل كممرضة.. ولم يعد بإمكانها أن تساعد المرضى وتخفف عنهم كما كانت تتمنى لما في ذلك عظيم الأجر والمغفرة كما علمت.

ولكنّ الأمل يحدوها في أن تتحسن حالتها لتعود من جديد وتمارس مهنة التمريض المقدسة وتساعد المحتاجين كما تحب وترضى لكي يرضى عنها الله تعالى ويغفر لها ذنوبها وتقصيرها في حقه ولن يطول انتظارُها فهي تحملُ بين أضلاعها قلباً كله قناعة وخشوع وتوبة .. قلباً لا ينحني للأزمات والنكبات ويتمنى كل الخير لجميع الكائنات.

وعاد ضابط الشرطة **بهلول الزرقاني** إلى عمله ونشاطه في تقصّي أثر المجرمين وتعرّضَ عديد المرات للأذى والجروح أثناء ملاحقته لمن هو يهدد أمن المدينة وأهلها وكان في كل مرة يسلم ويطيح بخطط الخارجين عن القانون بكل شجاعة وإقدام وأصبح مثالاً لكل شرطيٍّ مخلص ومثابر في عمله. وظهر اسمه كأكبر علامة خطر لمن يفكر في تهريب المخدرات والخمور وخطف الأطفال. وكان قد نُصحه بعض رؤسائه في أن يضعوا أمام بيته شرطياً يحرسه خاصة في الليل. لكنه رفض ذلك وعلل رفضه بأن الله يحرسه ما دام يعمل في مرضاته.. وحاول رئيسه المباشر أن يقلل من شدة حماسه بأن يأخذ بالأسباب وبالحذر والوقاية لأن المجرمين يترصدون له لكنه لم يستجب.

إلى أن تمكّنتْ إحدى العصابات من تتبع حركاته واغتنمتْ الفرصة بعدم وجدود أي موانع من الهجوم عليه في بيته. وعدم تسلحه بأي نوع من الحماية وأجهزة المراقبة. فيبدو أن تلك العصابة قد جندتْ أحدُهم بالهجوم عليه في بيته.. وقتله أمامه وهو يحاول أن يلحق به في الظلام الدامس. وأفاقتْ نسيبته السيدة **شادية**- وهي نائمة في فراشها على صوت معركةٍ حامية تدور في الشارع بين بهلول وأحد المجرمين وانتبهت للعيارات النارية في تلك الليلة المظلمة فزحفتْ إلى غرفة نوم ابنتها التي لا تسمع ولا تنطق فأشارتْ إليها بأن تخرج فوراً وراء زوجها.. ولكي ترى ماذا يحدث من صراع فظيعٍ..!؟

وما أن وصلتْ عُليّة إلى بهلول مفزوعةً حتى وجدته مرمياً في الشارع يسبح ببركةٍ من الدم ولا يتحرك فقد فارق الحياة.. ووجدتْ بجواره قبعةً سوداء ورأتْ حولها شبح البؤس والحزن والألم المظلم يخيّم عليها من جديد بضبابه.. بعد أن كادتْ تهجره وتنساه بالكامل..!

فانتكستْ مجدداً.. وانكسرتْ معنوياتها وغرقتْ في بحرٍ من الدموع وأحسّت بخفقان القلب الموجوع المصروع بين الضلوع. فلم تعد له قدرة كي يدفع الدم متجدداً في العروق بل أوشك على السكون التام. ووقفتْ بجانبها أمها السيدة العجيبة شادية بعقلها الكبير الخبير.. وقلبها العامر بالخير والتنوير والتدبير.. وإحساسها الناطق بالتعبير.. ولم تتركها كما كانت تصارع همومها غمومها وغيومها بسابق أيامها. فالملاكم حتى القوي العنيد المقاتل يحتاج لمن يمسح عنه العرق .. ويُخرجه من المأزق ومن داخل النفق.. ويمنحه قبساً من الأمل لكي ينهض من جديد ويقاوم وينطلق وها هي عُليّة تنهض وتنطلق. لأن الحياة لا يستحقها إلا الذي يصارعها ولا ينكسر أمامها. فهي كالنفس البشرية إذا خضع لها الإنسان غلبته وطرحته واستعبدته ..!

أما المعلم التونسي فخَسِرَ ورَبِحَ في آن واحد خَسِرَ بصَرهُ ولم يكن في إمكانه أن يتحمّل نفقاتِ عملية ترقيع **القرنية** بعينيه الاثنتيْن ورضيَّ بوضعه. ولكنه كسَبَ مكانة مرموقة في فرقة الإذاعة الموسيقية وفي معهد الموسيقى وصار مشهوراً ومسروراً وترك معهد الشروق لأنه لم يعد يستطيع القيام بمهام الإشراف فيه. وفي يوم من الأيام فاجئني بخبرٍ سعيد وهو أنه سيتزوج من إحدى بنات الشيخ ميلود ووعده بأن سيمنحه شقةً بعمارته سوف يسدد ثمنها على أقساط مريحة.

وهكذا يبدو أنّ الدنيا ابتسمتْ أخيراً للمعلم التونسي بعد أن حرمته من أشياء كثيرة في حياته هي في نظر غيره بسيطة.. ولكنه لم ييأس وظل ينتظر "دوره" حتى أتته مفاجآتٌ لم يكن يحلم بها من قبل.. بل جاءته وهو في سن الخمسين. أليس هذا عجيباً؟ أن تتمهّل الدنيا على الإنسان حتى يكادُ أنْ يملَّ الانتظار؟ هل كانت تختبره؟.. تختبر معدنه؟ تختبر صبره ومقاومته؟ أم تهزأ به وتسخر منه؟ أم تريده أن يذوق طعم النعيم وشم النسيم بعد طول حرمان وامتناع وانكار..؟

جرّب المعلم التونسي حظه في عديد المحطات في تونس وفرنسا في البر والبحر فلم يشعر بالراحة.. لكنه وجدها بقريتنا على تواضعها وتواضع أهلها. فقريتنا لم تكن جنةً خضراء ولا أرضاً جرداء. ولكنها على ما يبدو بيئةٌ غنّاء وشطٌ رجاء ومحطةُ إخاء.. وكأنه كان يبحث عما افتقده سنين عديدة فوجده أخيراً ها هنا في قريتنا الفقيرة. وكان بطبيعته وربما من دون قصدٍ منه ماهراً في التعامل مع دنياه.. فلم يسمح لها بأن تطيح به ولا بأحلامه وأمنياته.. حتى انتصر عليها.
وحضرتُ حفل زفافه البسيط وحضره زملائي الذين لم تعد تشملهم صلة بعد أن تركنا المعهد وهنأناه وتمنينا له السعادة والراحة والهناء وهمس لي ضاحكاً: *ما صارش من عروس البحر.. يا سي سالم..!*.

أما **فوزية** فأصبحت زوجة صديقي وجاري **عمر** والذي ينتمي لعائلة ميسورة إذ أن والده تاجر مجوهرات وكان المهر بالنسبة له وتأثيث البيت ولوازم العرس أموراً شكلية ومتوفرة بينما كانت بالنسبة لي من ناطحات السحاب ومن أصعب الأبواب. ثم لأنني إلى جانب ذلك.. قد تحصّلت في تلك الأثناء الصعبة والحرجة على بعثة دراسية في مجال الصحافة في الخارج ولم استطع تأجيلها أو التنازل عنها.

فتقدّم **عمر** حينئذ لخطبة فوزية أثناء غيابي. ولم أعلم بذلك إلا بعد أن تمت الخطوبة وقرب موعد الزفاف. واستغربت أشد الاستغراب لأنني كنت عازم النية على التقدم إليها وكان بيننا رباط الود من خلال رسائل العيون ولغة المصافحات وتبادل الأحاسيس..!

وكنت أتوقع من فوزية أن تنتظرني حتى أعود. كما أنّ عمر لم يبحْ لي بأي إشارة عمّا يربطه بفوزية من مشاعر.. ولكنني سمعتُ أن والده هو من اختار فوزية له ولم يتردد في خطبتها لابنه من أخيها خالد.
وتعجّبتُ كيف أن خالد لم يَدُرْ بباله أنني أنوي الاقتران بأخته حتى وإن لم أطلبها منه لفظياً. أولاً لأنه لم يكن بمقدوري أنْ أتكفل بما للزواج من التزامات مالية في تلك الأثناء. وثانياً لأنني لم أصارح فوزية بذلك لفظياً – وتلك كانت بلا شك غلطتي.. ولعلها اعتبرتني في مقام أخيها (شقيقها).. بينما كنتُ أحس بأنها خُلقتْ لي كزوجة.
المهم حصل ما حصل.. وتمّ عقْدُ القران بين عمر وفوزية.. وأرسلتُ بتهنئة خطيّة لكلٍّ منهما من موقع دراستي بالخارج.. وكنتُ في حالةٍ من الحزن العميق المؤلم فحاولتُ أنْ أخْفيهِ.. لكنْ كمن يحاول أن يُخفي قرص الشمس بالغربال. فظن أصحابي في الخارج أنني أمرُّ بما يسمى "**أزمة الحنين إلى الوطن**" Home sickness.. ولكنه في داخلي كان نوعاً آخراً من *الحنين والاشتياق والصبابة واللهفة والوجد*.

وبحكم طبيعتي الحساسة ألهمتْني تلك الفترة العصيبة من حياتي أنْ أكتب ما لم أكتبه من قبل من قصص وروايات ومقالات أدبية مليئة بالشجون والانفعالات الجيّاشة وردود الفعل ثم قلتُ في نفسي وكما قال المعلم التونسي: *ليس هناك امرأةً بعد فوزية.. وسأفكر بالفعل في أن أنتظر على الشاطيء حتى تخرج لي عروس البحر.. لتقول لي:*
Hyvää huomenta = "هيفاا هوامينتا" صباح الخير..!

وعلمتُ حينها أن جاري عمر لم ينتظر إلا أسابيع قليلة حتى كان كلُّ شيءٍ جاهزاً لمراسم الزفاف: الشقة والأثاث والمهر وكلُّ ما يحتاجه العروسان وسافرا في رحلة *شهر العسل* والذي سرعان ما استحال إلى إلى شهر بصل للأسف الشديد فلم تكن فوزية كما أخبرتني بنفسها فيما بعد أن عمر يشرب بتلك الطريقة ويعاقر الخمر بالليل والنهار.

بل وبتدخين أنواع غريبة وعجيبة من السجاير علاوة على السجاير الشائعة المتداولة بين الناس.. وكأنه كان يشعر بمرارة وقسوة العيش بالرغم مما يتمتع به من رغد وبحبوحة ومزايا لا تتوفر إلا لدى قلة من الشباب.. لكنه كان حين يسكر ينقلب إلى إنسانٍ عنيف في كل شيء عنيفٌ بالضرب. وعنيف في التلفّظ بأفظع الأوصاف والكلمات والشتائم وعنيف بالبكاء والصراخ واللوم والغضب والتمرد.
إنه يصبح بعد أن يسكر بالفعل وحشاً كاسراً يحطم كل شيء.. حتى نفسه.. فيسب الله (تعالى) ويشتم من أوجده في هذه الدنيا.. لماذا؟ لا أحد يعلم لماذا؟.. وحينما تذهب السكرة يصبح جثة هامدة تعود فيها الحياة شيئاً فشيئاً فكأنه وُلد من جديد.. فيبدو حينئذٍ أقرب ما يكون للندم وللضعف وللشعور بالذنب. ويهدأ ويطلب المسكنات. ويتحدث بصوتٍ منخفض وبخاطرٍ منكسر وبرجاء وطلب واعتذار. ولكنّ فوزية لم تحتمل تلك التفاعلات العنيفة في زوجها..!

وخافت منه وأصابها الرعب.. وهي تراه في كل ساعة تمُرُّ في شأنٍ مختلف وبشخصية مغايرة فقررت أن تنجو بنفسها وبجنينها الذي في بطنها من مغبة ما قد يطرأ بينها وبين زوجها. فيكفي ما تلقّتْ منه من سياط اللسان والحزام واللكمات والرفسات ويكفي أنها لم تشعر معه بالأمن والسكينة. وقد علمتُ بذلك وأنا في الخارج فحزِنْتُ أشد الحزن لسوء الحظ والمصير.. وتأسفتُ لذلك شديد الأسف إذ أنني نشأتُ مع صديقي وجاري عمر ولم أكن أتصور أنه على تلك الدرجة من الإدمان والضياع إلى أن تأكدت من ذلك بنفسي.
وذلك حين زرته ذات ليلة وأنا في إجازة لكي أدردش معه.. فوجدته بالفعل ثوراً هائجاً ووحشاً خطيراً عاملني حتى أنا صديقه بقسوة لم أعهدها فيه من قبل.. وفي تلك الليلة اكتشفت أيضاً أن زوجته قد تركت البيت ولم تستطع أن تعود إلى بيت أبيها لبُعده عنها وبقيتْ تنتظر حظها أو منقذها في زقاقٍ مظلم بجوار المنزل.

فاضطررت لاصطحابها إلى بيت أسرتها حيث وجدتُ خالد والسيدة سكينة في حالة هلع وقلق وضيق وحيرة مما طرأ لابنتهما وما علماه منها عن طريق الهاتف في مراتٍ عديدة متتالية. لكنّ خالد ظلّ يأمل أن تتحسن العلاقة بينهما ويعودا إلى رشدهما. إلى أن فوجيء حينما دخلتُ عليه بأنني من ناحية قد رجعت لتوي من الخارج في إجازة.. ومن ناحية أخرى كنت بصحبة فوزية الباكية المحطمة وهي بحالة حمل أيضاً. وعرف خالد أنني كنت وأنا في الخارج أتتبع أخبار عمر. وأنني قد ذهبت من المطار مباشرة إليه لأطمئن عليه وعلى فوزية.

وكانت تلك آخر مرة تخرُجُ فيها فوزية من بيت زوجها.. إذ قام والد عمر نيابةً عنه بإتمام اجراءات الطلاق فوراً.. وقيل أنه أصيب في عمره المتقدم بخيبة أملٍ كبيرة وصدمةٍ عنيفة موجعة في ابنه.

إذ لم يكن يعلم قبل ذلك بأنه مدمنٌ على الخمر والمخدرات..!
وقام والد عمر بسداد مئتي ليرة ذهب كمؤخر صداق مُتَفَقٌ عليه..
ومنح فوزية كلّ ما في الشقة من مفروشات ومحتويات ومتعلقات ومكونات.. وانتهت قصة عمر وفوزية .. من قبل أن تبدأ..!

في تلك الأثناء رجعتُ إلى الخارج لأكمل دراستي.. وزِدْتُ يقيناً.. بيني وبين نفسي- بأنه من الأفضل لي أن أذهب كل صباح إلى الشاطيء.. وانتظر هناك إلى أن تُشرق الشمس ويحين دوري في يوم من الأيام وأرى عروساً من عرائس البحر.. لتقول لي: "*هيفا/ هوامينتا*".
ووصلتني رسالة من الوطن وأنا في الخارج مفادها أن فوزية وضعت طفلة وهي مطلقة في بيت أبيها واسمتها أمل.. وأن علي قد أُدخل في مصحة لعلاج الأمراض النفسية والعقلية ولم يغادرها.. وما هي إلا عدة أشهر حتى سمعت وببالغ الأسف أنه قد انتقل إلى رحمة الله.

بعد نحو 20 عاماً فوجئنا في القرية بأن شاباً في منتصف الثلاثين من عمره طويل القامة نحيل البدن أحمر الشعر ذو عينين عسليتين جاء ليسأل عن **الحاج مراد** صاحب متجر كبير للمواد الغذائية - سوبر ماركت- وهو في منتصف الستين من عمره وقال أنه "خاله".. فدلّه على أكبر متجر لرجلٍ اسمه الحاج **علي الجبالي** وليس مراد. وما أن رآه حتى عرفه وعانقه كثيراً ثم اصطحبه إلى بيت أخته السيدة عليّة فلما فتحت البيت اندهشت وشهقت حين رأت الشاب الغريب عنها أمامها وصاحتْ - وهي التي لم تكن منذ سنوات تنطق:

- مو.. مو.. معتز.. ابني معتز.. الحم له الحمد لله.

عاد معتز أخيراً.. ليسأل عن أمه وخاله وجدّتِه.. بعد أن غاب عنهم لأكثر من ثلاثين عاماً وهو في الخارج.. ونطقت أمه باسمه ثم أغميَّ عليها.. ولكنها عادت إلى وعيها.. وقضت بقية عمرها مع ابنها.

تعقيب

بتوفيق من عند الله سبحانه أتممتُ كتابة هذه الرواية في يناير 2022 في طرابلس الحبيبة وهي تخوض فترةً من أصعب فترات تاريخها وقد شهد بها الوضع السياسي هدوءاً نسبياً.. لكنها في واقع الأمر لا زالت مكبّلة بأطماع الكثيرين فيها من أهل الفساد من داخل البلاد وخارجها.. غير أن الشعب المسكين العاجز لم ييأس – كما عوّدنا طيلة العقود- بل فوّض أمره لله.. !

كتبتُ هذه الرواية وقد قاربتُ على إنهاء 73عاماً من عمري.. وقد رجعتْ بي الذاكرة إلى فترة عزيزة من العمر عشتها بالفعل. حتى وإن لم تكن بنفس الأحداث والأشخاص.. ولكنْ فيها من الحقائق والوقائع الشيء الكثير وقد يشهد بعض الرفاق بتلك الفترة الزمنية البعيدة على ذلك بالفعل.

أ. د. عيسى بن عمران
أستاذ جراحة العظام
والعلاج الفيزيائي (الطبيعي)
طرابلس الحبيبة 2021

المؤلف في سطور

الأستاذ الدكتور/ عيسى سليم بن عمران

أستاذ جراحة العظام والطب الفيزيائي

- مواليد طرابلس – ليبيا في 6-4-1949.
- الشهادة الثانوية 1967- 1968 بمدرسة طرابلس الثانوية.
- أوفد ضمن المتفوقين إلى ألمانيا لدراسة الطب عام 1968
- تحصّل على بكالوريوس الطب والجراحة عام 1976.
- تحصّل على الدكتوراه في جراحة العظام من ألمانيا عام 1984.
- تحصل على تخصص (الطب الفيزيائي) من ألمانيا عام 1985.
- باشر عمله كإختصاصي جراحة عظام بمستشفى طرابلس المركزي عام 1986.
- باشر عمله كاختصاصي ورئيس قسم علاج طبيعي بنفس المستشفى.
- عُيِّن كمحاضر بكلية الطب / جامعة طرابلس عام 1986.
- رئاسة الوحدة (ب) بقسم العظام بمستشفى طرابلس المركزي 1987.
- رقي إلى درجة أستاذ مساعد بمجال جراحة العظام عام 1989.
- رقي إلى درجة أستاذ مشارك بمجال جراحة العظام عام 1993.
- أشرف على تأسيس قسم العلاج الفيزيائي بمركز طرابلس الطبي عام 1996.
- استلم رئاسة قسم العلاج الفيزيائي بمركز طرابلس الطبي عام 1996.
- قام بتكوين أول *كوادر طبية* في مجال العلاج الفيزيائي عام 1997.
- قام بتخريج 65 *طبيباً* في مجال العلاج الفيزيائي كأول نواة في ليبيا.: بإشراف اللجنة الشعبية العامة – معهد تنمية القوى العاملة الطبية.
- قام بتكوين عديد الكوادر الفنية (من المعالجين الفيزيائيين).
- ترقّي إلى درجة أستاذ (بروفيسور) بمجال جراحة العظام عام 1999.
- ألّف العديد من الكتب بمجال التثقيف الصحي والكتب الطبية المنهجية, ونشر العديد من الدراسات الطبية والثقافية وأشرف على العديد من الدورات التدريبية ورسائل الدراسات العليا.

- قدّم العديد من البرامج المرئية والمسموعة ما بين 1978 و2009. عبر الإذاعات والقنوات التلفزية الليبية.
- هوايته التصوير الفوتوغرافي وكتب العديد من القصص والروايات والمقالات ووصل مجموع ما كتبه من كتب متنوعة أكثر من 75 كتاباً نُشر. جزءً منها.
- أب لثلاثة أبناء:د. وسام مواليد 1978(طبيب) متزوج وأب لثلاثة أطفال.
م. رامي مواليد 1981(مهندس حاسوب) متزوج وأب لطفلين.
م. أحمد مواليد 1985(مهندس ميكانيكي وطيار) متزوج وأب لطفلين.
كفيل لمسرّة مواليد 1996 حاصلة على ليسانس لغة انجليزية.
- مؤسس منتدى الحكمة لحماية المسنين)
منذ: 1-10-2011 في طرابلس.
- العنوان بشبكة الانترنت: issa.benomran49@gmail.com

مؤلفات أ. د. عيسى سليم بن عمران

كتب سبق نشرها: تشير الأرقام بنهاية العنوان؟ إلى تسلسل الكتب

- **صحتنا بين الوقاية والعلاج**[10]: سلسلة من 10 أجزاء صدرت ما بين 1980- 1990
  عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع. طرابلس ليبيا.
- **كتاب داء الدوالي وتصلب الشرايين**[11] : صدر عام 1991 عن مطابع الأهرام- القاهرة مصر.
- **كتاب دليل الطب الطبيعي**[13-12] باللغة الانجليزية في جزئين صدر عام 2004 بمكتبة طرابلس العلمية العالمية
  عن معهد تنمية القوى العاملة الطبية - اللجنة الشعبية العامة. طرابلس ليبيا.
  Manual of physical medicine in 2 volumes
- **كتاب أحفاد إبليس**[14]**:** المجموعة القصصية الأولى: صدر عام 2007 منشورات مجلة المؤتمر- طرابلس ليبيا
- **كتاب طبيب شاهد عيان**[15]: نظرات في عهد حكم معمر القذافي صدر عام 2012
  عن مكتبة الوحدة الشعبية- طرابلس.
- **سلسلة الجهاز الحركي:** الجزء الأول[16] : أمراض وإصابات العمود الفقري. صدر عام 2014.

- **كتب تحت الطبع:**
  - **كتاب ليبيا ما بعد القذافي**[17] تحليل واقتراحات عن مشاريع بناء الدولة. وزارة الثقافة 2013.
  - **كتاب عرس خوي جمعة**[18] مواقف طريفة مع رواد العيادة. وزارة الثقافة 2013.
- **كتب لم تُنشر بعد:**
- **سلسلة دروس سريرية بمجال طب وجراحة العظام:**

الدرس الأول[19]: فحص مريض العظام- العدوى الجرثومية في العظام والمفاصل.
الدرس الثاني[20]: فحص وتشخيص أمراض وإصابات القدم والكاحل.
الجزء الثالث[21]: فحص وتشخيص أمراض وإصابات الطرف العلوي.
الجزء الرابع[22]: فحص وتشخيص أمراض وإصابات الطرف السفلي.

- **سلسلة العلاج الحركي:**

الكتاب الأول[23]: أسس العلاج الحركي.
الكتاب الثاني[24]: علاج متاعب العمود الفقري بالوسائل الطبيعية.

- **سلسلة الكتب الطبية:**

الكتاب الأول[25]: الشلل التشنجي لدى الطفل.
الكتاب الثاني[26]: الشلل النصفي لدى الكبار والصغار.
الكتاب الثالث[27]: حوادث الطفولة.
الكتاب الرابع[28]: تجربتي الشخصية مع مرض السكر كمريض وكطبيب ثم كأستاذ جامعي.

- **سلسلة رحلاتي الثقافية:**

1) **الكتاب الأول**[29]: رحلاتي مع طغاة القرن العشرين.
2) **الكتاب الثاني**[30]: رحلاتي مع طليعة العلماء المسلمين.
3) **الكتاب الثالث**[31]: رحلاتي مع كتب الأدب العربي.
4) **الكتاب الرابع**[32]: رحلاتي مع مختارات من الرواية العربية.
5) **الكتاب الخامس**[33]: رحلاتي مع الرواية في العالم الإسلامي وأفريقيا.
6) **الكتاب السادس**[34]: رحلاتي مع الرواية في أميركا الجنوبية وآسيا.
7) **الكتاب السابع**[35]: رحلاتي مع الرواية في أوروبا الغربية (أ).
8) **الكتاب الثامن**[36]: رحلاتي مع الرواية في أوروبا الغربية (ب).
9) **الكتاب التاسع**[37]: رحلاتي مع الرواية في روسيا وأوروبا الشرقية.
10) **الكتاب العاشر**[38]: رحلاتي مع الرواية في أميركا الشمالية.
11) **الكتاب الحادي عشر**[39]: رحلاتي مع أشهر الاختراعات في التاريخ.

12) **الكتاب الثاني عشر**[40]: رحلاتي مع أبطال العصر الحديث.
13) **الكتاب الثالث عشر**[41]: رحلاتي مع قادة ألمانيا الحديثة (بعد الحرب العالمية الثانية).
14) **الكتاب الرابع عشر**[42]: رحلاتي مع تطور الطب الحديث.
15) **الكتاب الخامس عشر**[43]: رحلاتي في العالم خلال 50 عاماً.

- **سلسلة الكتب الأدبية:**

الرواية الأولى[44] **والرواية الثانية**[45]: قصة حياتي منذ الطفولة إلى الشيخوخة (في جزئين).
الرواية الثالثة[46]: رواية الجبين الصامت عن الوالد سليم بن عمران.
الرواية الرابعة[47]: رواية أبو الهول يتكلم. عن مسيرة والدي في الحياة.
الرواية الخامسة[48]: رواية نسيج الغيب من وحي الذاكرة.
الرواية السادسة[49]: رواية يوميات خميس وجمعة.
الرواية السابعة[50]: رواية يوميات مرزوقة (زوجة الحمار).
الرواية الثامنة[51]: رواية المزرعة.
الرواية التاسعة[52]: رواية حكايات طبيب متقاعد. من مذكراتي.
الرواية العاشرة[53]: رواية اللباس يصنع الناس.
المجموعة القصصية الثانية[54]: قصة لن أعيش في الظلام. قصة الوباء. قصة الأقنعة.
المجموعة القصصية الثالثة[55]: ماما فوق السحاب. بائعة العسل.
الرواية الحادية عشرة[56]: رواية الهروب من السفينة.
الرواية الثانية عشر[57]: رواية كيف تكسب مليون دولاراً.

- **سلسلة الكتب الثقافية:**

الكتاب الأول[58]: باب السلام: تأملات في الحج والعمرة.
الكتاب الثاني[59]: تجربتي مع الحياة الجامعية كطالب وكأستاذ.
الكتاب الثالث[60] **والرابع**[61]: حصاد العمر عن منتدى الحكمة لحماية المسنين في جزئين اثنين.

الكتاب الخامس[62]: أسس الوقاية الصحية. كيفية الوقاية من الأمراض.

- **كتب تحت الإنجاز:**
  - **الكتاب الأول**[63]: **ما قل ودل**: مقالات نُشرت في صحيفة **أويا- طرابلس ليبيا**.
  - **الكتاب الثاني**[64]: **الصفحة الطبية**: مقالات توعوية نُشرتْ بصحيفة **وطني- طرابلس ليبيا**.
  - **الكتاب الثالث**[65]: **فيه حاجة غلط**: مسلسل تمثيلي إذاعي عن التوعية الصحية. تقديم الإذاعة الليبية.
  - **الكتاب الرابع**[66]: **كان يا ما كان**: مسلسل تمثيلي إذاعي عن التوعية الصحية.
  - **الكتاب الخامس**[67]: **كتاب البحث في الطب الطبيعي.** كتاب منهجي للطبيب والمعالج.
  - **الكتاب السادس**[68]: **كتاب الأورام في العظام** كتاب منهجي للأطباء والمعالجين بالمجال.
  - **الكتاب السابع** [69]: **كتاب كيف تتعامل مع المعاق؟** كتاب إرشادي لكل من يتعامل مع المعاق.
  - **الكتاب الثامن**[70]: **العلاج الفيزيائي للأمراض العصبية** كتاب منهجي للأطباء والمعالجين.
  - **الكتاب التاسع**[71]: **كتاب الأشعة بمجال العظام** كيف تقرأ صور الأشعة في الأمراض العظمية. منهجي.
  - **الكتاب العاشر**[72]: **خطة علاج الشلل التشنجي لدى الطفل.** كتاب منهجي للطبيب والمعالج.
  - **الكتاب الحادي عشر**[73]: **كتاب كيف تفحص مريض العظام.** كتاب منهجي للطبيب والمعالج.
  - **الكتاب الثاني عشر**[74]: **المعلم التونسي** رواية.